و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** معناه أنّ اللّه يعلم حيث يجعل رسالته و أن شئت قلت أنّه تعالىٰ يعلم أنّ بيان الأحكام بعد النّبي مفوّضٌ الىٰ باب مدينة علمه و الأئمّة الطّاهرين من ولده و هذا هو الصراط المستقيم في قوله: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** فأفهم فلو كان الأمر على غير هذا المنوال يلزم إضلال النّاس بعد إذ هديٰهم الى الإسلام واللّه تعالىٰ أجلّ من ذلك هذا ما فهمناه من الآية واللّه أعلم.

**إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ**

**المُلك** بضمّ الميم الحقّ الدّائم للّه **المِلك** بكسر الميم هو كالجنس للملك فكلّ مُلكٍ مِلكٌ و ليس كلّ مِلكٍ مُلكاً فقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** معناه ضبط الشّئ المتصّرف فيه بالحكم و مع ذلك تدخل فيه الملّكية أيضاً لما ذكرناه و قيل الملك إتّساع المقدور لمن له السّياسة و التّدبير و خزائن اللّه لا تفنى و ملكه لا يبيد و لا يبلى و إذا كان كذلك فهو تعالى يتصرّف في ملكه كيف يشاء بما يشاء و ليس لأحدٍ مَنعه منه.

و أمّا قوله: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** فهو من شؤن الملك و ذلك لأنّ الإحياء و الإماتة نوعٌ من التصّرف فله أن يتصرّف في ملكه بالإحياء و الإماتة و قوله: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ** يظهر معناه ممّا ذكرناه في معنى الملك و ذلك لأنّ الإنسان داخل في السّمٰوات و الأرض فيدخل تحت ملكه فهو القادر القاهر فوق عباده لأنّه علىٰ كلّ شئٍ قدير و من زعم أنّ له ولّيٌ و ناصرٌ غير اللّه فقد أخطأ لأنّ غيره تعالىٰ كائناً من كان مخلوق له محتاج اليه في جميع شئونه و أن شئت قلت لا قدرة له من ذاته إلاّ ما أقدره اللّه عليه فالولّي و النّاصر في الحقيقة هو اللّه تعالىٰ والىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعًا وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لا حَيٰوةً وَ لا نُشُورًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**(٣).

و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ الإنسان ينبغي له أن لا يعتمد إلاّ علىٰ اللّه و لا يستنصر إلاّ من اللّه و لا يستعين إلاّ به و هكذا و هذا هو رمز التّوحيد الخالص.

## لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهٰاجِرِينَ وَالْأَنْصٰارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سٰاعَةِ الْعُسْرَةِ

قيل أنّ اللاّم في قوله: **لَقَدْ** لام القسم بأنّه تعالى تاب على النّبي و المهاجرين و الأنصار بمعنى أنّه رجع اليهم و قبل توبتهم لأنّهم الّذين إتبّعوه في ساعة العسرة يعني في الخروج معه الى تبوك، و **العُسرة** بضمّ العين صعوبة الأمر و قيل الضِّيق و الشدّة و هذه أي غزوة تبوك هي جيش العسرة الّذي قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من جهَّز جيش العسرة فله الجنّة و أنّما سمّيت بها لأنّه بلغت العسرة بهم الى أن كان العشرة منهم يعقبون على بعيرٍ واحد و الى أن قسمّوا التّمرة بين الرّجلين و كان النضّر يأخذون التّمرة الواحدة فيمصّها أحدهم و يشرب عليها الماء ثمّ يفعل بها كلّهم ذلك **مِنْ بَعْدِ ما كٰادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** الزّيغ ميل القلب عن الحقّ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنٰا لا تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنٰا**(٥).

---

١- الفرقان = ٣
٢- الأسراء=٥٦
٣- فاطر=١٣
٤- الصّف=٥
٥- آل عمران=٨

قيل أنّ من شدّة ما لحقهم همّ كثيرٌ منهم بالرّجوع فتاب اللّه عليهم و قيل من بعد ما كان شكّ جماعةٍ منهم في دينه ثمّ تابوا فتاب اللّه عليهم أي قبل توبتهم أنّه تعالىٰ: **رَءُوفٌ رَحِيمٌ** و الرّأفة أعظم الرّحمة.

قال كعب بن مالك الأنصاري:

نطيع نبّينا ونُطيع ربّاً هو الرّحمٰن كان بنا رؤفاً

و قال الآخر:

تَرىٰ للمسلمين عليك حقّاً كمثل الوالد الرّؤف الرّحيم

قال إبن هشام في السيّرة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمَرَ أصحابه بالتهيّؤ لغزو الرُّوم و ذلك في زمان مِن عسرة النّاس و شدّةٍ من الحرّ وجدبٍ من البلاد و حين طابت الثمار و النّاس يحبّون المقام في ثمارهم و ظلالهم و يكرهون الشّخوص على احال من الزّمان الّذي هم عليه و كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله قلمّا يخرج في غزوة الاكنىٰ عنها و أخبر أنّه يريد غير الوجه الّذي يصمد له إلاّ ما كان من غزوة تبوك لبعد الشّقة و شدّة الزّمان و كثرة العدّو الّذي يعمد له ليتأهّب النّاس لذلك أهبته فأمر النّاس بالجهاز و أخبرهم أنّه يريد الرُّوم و ساق الحديث الى أن قال و خلف رسول اللّه صلى الله عليه وآله علّي بن أبىطالب علىٰ أهله و أمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون و قالوا ما خلّفه إلاّ إستثقالاً له و تخفُّفاً منه فلّما قال ذلك المنافقون أخذ علّي بن أبي طالب عليه السلام سلاحه ثمّ خرج حتّىٰ أتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله و هو نازل بالجرف فقال يا نبّي اللّه زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني لأنّك إستثقلتني و تخفّفت منّي فقال صلى الله عليه وآله كذبوا و لكنّني خلّفتك لما تركت ورائي فأرجع فأخلفني في أهلي و أهلك أَفلا ترضى: **يا علّي أن تكون منّي بِمَنزلة هٰرون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبّي بعدى** فرجع علّي عليه السلام الىٰ المدينة و مضى رسول اللّه على سفره ثمّ أنّ أبا خثيمة رجع بعد أن سار رسول اللّه صلى الله عليه وآله أيّاماً، الىٰ أهله في يوم حّارٍ فوجد إمرأتين له في عرشين لهما

في حائطه قد رشّت كلّ واحدةٍ منهما عريشها و بردّت له فيه ماءٍ و هيّأت له فيه طعاماً فلّما دخل قام على باب العرش فنظر الى إمرأتيه و ما صنعتا له فقال رسول اللّه في الضِّح، (في الصّح) و الرّيح و الجَّر و أبو خثيمة في ظّلٍ باردٍ و طعامٍ مهّيأ وإمرأةٍ حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنِّصف ثمّ قال و اللّه لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتّى ألحقّ برسول اللّه ﷺ فهّيئا لي زاداً ففعلتا ثمّ قدم ناضحه فأرتحله ثمّ خرج في طلب رسول اللّه حتّىٰ أدركه حين نزل تبوك الى آخر القصّة و هو الّذي يقول:

لمّا رأيت النّاس في الدّين نافقوا ... أتيت الّتي كانت أعّف و أكرما
وبايعت باليمنىٰ يدي لمُحّمدٍ ... فلم إكتسب إثماً ولم أغّش مجرماً
تركت خفّيناً في العريش وحرمةً ... صفايا كراماً بسرها قد تحمّما
وكنت إذا شكّ المنافق أسمجت ... الىٰ الدّين نفسي شطره حيث يمّما

**وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّٰىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوٓا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللّٰهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ.**

**وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا** عن التّوبة عن مجاهد وأبي مالك، وعن غزوة تبوك عن قتادة و قيل معنى خلّفوا، تُركوا، و قرأ بعضهم، خلّفوا بالتّخفيف أي أقاموا بعقب رسول اللّه وقرأ بعضهم خالفوا، و قيل، خلّفوا بفتح اللاّم أي أرجئوا و أخّروا عن المنافقين فلم يقضوا منهم بشئ و هٰؤلاء الثّلاثة الّذين خُلّفوا هم كعب بن مالك، و مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمّية الواقفي و كلّهم من الأنصار قيل أنّهم لم يتخلّفوا عن نفاقٍ لكن عن توانٍ ثمّ ندموا على ما فعلوا من التّخلف فلما ورد النّبي جاءوا و أعتذروا فلم يكلّمهم النّبي و تقدّم الىٰ المسلمين بأن لا يكلّمهم أحدٌ منهم فهجرهم النّاس حتّى الصّبيان و أهاليهم و جاءت نسائهم الى رسول اللّه تعتزلهم فقال لا و لكن لا يقربونّكن

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا الى رؤوس الجبال فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطّعام و يتركونهم و لا يكلّمونهم فقال بعضهم لبعضٍ قد هجرنا النّاس و لا يكلّمنا أحد فهلاّ نتهاجر نحن أيضاً فتفرّقوا و لم يجتمع منهم إثنان و ثبتوا على ذلك نَيّفاً و أربعين يوماً و قيل سنة يضّرعون الى اللّه تعالى و يتوبون اليه فقبل اللّه حينئذٍ توبتهم و أنزل فيهم هذه الآية فقوله: **حَتّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** فالضّيق ضدّ السّعة و منه ضيق الصّدر خلاف إتّساعه و قوله: **بِمَا رَحُبَتْ** أي بما إتسعت **وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ** ضيق النّفس هاهنا بمعنى ضيق الصّدر بالهَم الّذي حصل فيها و قوله: **وَ ظَنُّوٓا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ** قيل ظنّ هاهنا بمعنى، علم، أي علموا و تيقّنوا أنّه لا مَلجأ و لا معتصم من اللّه إلاّ به **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا** أي جعل لهم التّوبة ليَتوبوا بها و المخرج ليخرجوا به و قيل لطف لهم في التّوبة كما يقال في الدّعاء**تاب اللّه عليهم**

و قيل معناه، قبل توبتهم ليمسّكوا بها في المستقبل **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** معناه واضح.

## يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ

أمر اللّه المؤمنين في هذه الآية بتقوى اللّه و الكون مع الصّادقين و إنّما خَّص الخطاب بهم ولم يقل يا أيّها النّاس مثلاً لأنّ التّقوىٰ و الكون مع الصّادقين لا يتحقّق إلاّ من المؤمن باللّه و رسوله ثمّ أنّ التّقوىٰ لا خفاء فيها و أمّا الكون مع الصّادقين فأختلفوا فيه فقال بعضهم المراد بالصدّق هاهنا صدق الحديث.

و قال الآخر الصّحة في الدّين و التّمكن في الخير.

و قال الآخر معناه كونوا مَعَ محمّد و أبىبكر و عُمر و خيار المهاجرين الّذين صدقوا اللّه في الإسلام.

و قيل هم الثّلاثة أي كونوا مثل هٰؤلاء في صدقهم و ثباتهم.

و قال صاحب الكّشاف هم الّذين صدقوا في إيمانهم و معاهدتهم اللّه و رسوله من قوله: **رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اَللّٰهَ عَلَيْهِ**[1] وهُم الّذين صَدَقوا في دين اللّه نيّة و قولاً و عملاً إنتهىٰ.

**أقول** ما ذكره الزّمخشري، لا بأس به و هو أحسن الأقوال المذكورة و لكن لا مِصداق له بين المسلمين بعد رسول اللّه إلاّ أوصيائه و خلفائه الإثني عشرفهم الّذين صدقوا إيمانهم و معاهدتهم اللّه و رسوله و هم الّذين صدقوا في دين اللّه نيّة و قولاً و عملاً و لم يوجد و لن يوجد من يتّصف بها إلاّ المعصوم قطعاً و عليه فقوله: **وَ كُونُوا مَعَ اَلصّٰادِقِينَ** أي كونوا مع المعصومين و قد تنّبه الرّازي و هو إمام أهل السُّنة و أعلمهم و أشهرهم لهذه النكتة الخفّية إلاّ أنّه قال ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة و نحن نذكر عين عباراته ثمّ نتكلّم في كلامه قال الرّازى.

**الرابع**: و هو أنّ قوله: **يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ اٰمَنُوا اَتَّقُوا اَللّٰهَ** أمر لهم بالتّقوىٰ و هذا الأمر إنّما يتناول من يصّح منه أن لا يكون متّقياً و إنّما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ فكانت الآية دالّة على أنّ ما كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العِصمة و هم الّذين حكم اللّه تعالىٰ بكونهم صادقين فهذا يدّل علىٰ أنّه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ حتّى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ و هذا المعنى قائم في جميع الأزمان فوجب حصوله في كلّ الأزمان ان قلت لم لا يجوز أن يكون المراد هو كون المؤمن مع المعصوم الموجود في كلّ زمانٍ قلنا نحن نعترف بأنّه لابّد من معصومٍ في كلّ زمانٍ إلاّ إنّا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة و أنتم تقولون ذلك المعصوم واحد.

---

١- الاحزاب = ٢٣

فنقول هذا الثّاني باطل لأنّه تعالىٰ أوجب على كلّ واحدٍ من المؤمنين أن يكون مع الصّادقين و إنّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنّ ذلك الصّادق من هو لا الجاهل بأنّه من هو، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليف ما لا يطاق و أنّه لا يجوز و لكّنا لا نعلم إنساناً موصوفاً بوصف العصمة و العلم بإنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة فثبت أنّ قوله و كونوا مع الصّادقين ليس أمراً بالكون مع شخصٍ معيّن و لّما بطل هذا بقى أنّ المراد منه الكون مع مجموع الأمّة و ذلك يدّل على أنّ قول مجموع الأمّة حقّ و صواب و لا معنى لقولنا الإجماع حجّة إلاّ ذلك إنتهىٰ كلامه.

**وأنا أقول** أنت ترىٰ أنّ الرّازي تفطّن لهذه الدّقيقة إلاّ أنّ تعصّبه و عِناده منعه عن بيان الحقّ و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ حّب الدّنيا رأس كلّ خطيئة و هو الّذي يعمي و يصمّ و أوّل من سلك هذا المسلك أعني إنكار الحّق مع وضوحه و علمه به هو أبوبكر بن أبي قحافة حيث أنّه تصّدى لمنصب الخلافة مع علمه بأنّ الخلافة حّق أمير المؤمنين علّي بن أبىطالب و قد تمّسك هو و أتباعه في ذلك بإجماع الأمّة و إنمّا قلنا بأنّه كان عالماً.

لقول أمير المؤمنين في الخطبة الشّقشقية:

أَمَا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمصَّهَا ابْنُ اَبِى قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلِّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى.

و إذا كان أبوبكر مع مصاحبته للنّبي مدّة عشرين سنة أو أقّل أو أكثر كذلك فلا عجب من أتباعه و أشياعه أن يحذوا حذوه و يسلكوا مسلكه فأن قال قائل أنّ أبابكر أو عُمر أو عثمان و من تابعهم في صدر الإسلام كانوا من العوام الّذين لا يعلمون الحّر من البرد فلو كان حُّب الدّنيا غالباً عليهم كغيرهم من العوام فهو مطابق للأصل لأنّ الأصل فيهم أنّهم أبناء الدّنيا مغلوبين للشّهوات و أمّا الرّازي و أمثاله مع توغلّهم في العلوم العقّلية كيف يتكلّمون علىٰ خلاف العقل.

**نقول** في جوابه حُب الدّنيا غالب علىٰ العقل أيضاً فلا فرق في ذلك بين العالم و الجاهل و الّذي يعجبني من كلامه هو قوله (نحن نعترف بأنّه لابّد من معصوم في كلّ زمانٍ) إلاّ أنّا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة الخ.

وجه التّعجب من كلامه هو أنّا لا نعلم و لا نفهم ما أراد بذلك القول و هو أنّ المعصوم مجموع الأمّة فأنّه كلامٌ لا طائل تحته و لا يفهم معناه أحدٌ حتّىٰ القائل به و ذلك لأنّ مجموع الأمّة عبارة عن جميع المسلمين و عليه فالمعنىٰ يا ايّها الّذين أمنوا إتّقوا اللّه و كونوا مع المسلمين أو مع الأمّة و هذا الكلام لا ينبغي أن يصدر من أحاد النّاس فضلاً عن اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّ المؤمن المتّقي كيف يكون خارجاً عن الأمّة أو من المسلمين اذ لو كان خارجاً منهم و لم يكن معهم لا يكون مؤمناً مسلم و المفروض أنّ الخطاب للمؤمنين.

**ثانياً**: لو كان الأمر كما ذكره فحقّ العبارة أن يقول كونوا مع المسلمين أو كونوا مع الأمّة و لم يقل ذلك بل قال كونوا مع الصّادقين.

**ثالثاً**: أنّ مجموع الأمّة منهم صادق و منهم كاذب و عليه فالمعنى كونوا مع الصّادقين و الكاذبين و ظاهر الآية يأباه لأنّ المعيّة إختصّت بالصّادقين.

**رابعاً**: أنّ المجموع من حيث هو هو من الأمور الإنتزاعيّة التّي لا وجود لها في الخارج بل وجوده يدور مدار الإنتزاع و تعلّق الحكم بأمرٍ لا وجود له في الخارج غير معقول و أشنع منه قوله فنقول هذا الثّاني باطل لأنّه تعالىٰ أوجب علىٰ كلّ أحدٍ من المؤمنين أن يكون مع الصّادقين وجه الشّناعة أنّه أيّ إشكالٍ في هذا الوجوب.

قوله و أنّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنّ ذلك الصّادق من هو لا الجاهل بأنّه من هو.

نقول تحصيل هذا العلم أمرٌ سهل لكلّ أحدٍ كما أنّه يعلم أنّ الرّسول من هو و بعبارة أخرى معرفة الصّادق معرفة الرّسول بعينه لأنّه رأس الصّادقين و

رئيسهم فكما أنّ المكلّف يقدر على معرفة الرّسول كذلك يقدر على معرفة شخص المعصوم بعد الرّسول في كلّ عصرٍ و زمانٍ و لا فرق بين المعرفتين أصلاً.

قوله بأنّ ذلك تكليفٌ بما لا يطاق و أنّه لا يجوز كلامٌ بلا محصّل لأنّ الجاهل على قسمين، جاهلٌ يقدر علىٰ رفع جهله و جاهل لا يقدر عليه كالمجانين و أمثالهم و من المعلوم أنّ القسم الثّاني رفع عنهم القلم ما داموا كذلك فلم يكلّفوا بمعرفة الرّسول فضلاً عن المعصوم بعده.

**أمّا القسم الأوّل**: فأنّهم مكلّفون بمعرفة اللّه و معرفة الرّسول و معرفة الوّصي و معرفة الدّين و هكذا و ذلك لأنّ رفع الجهل مقدور لهم بحسب إستعدادهم و مراتبهم و هو ظاهر و قوله لكنّا لا نعلم إنساناً معيّناً موصوفاً بوصف العصمة و العلم بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة.

فالحقّ أنّه من تجاهل العارف فأنّ الرّازي و أمثاله من الفحول كالغزالي و التّفتازاني و الطّبري و السّيوطي و القُرطبي و هكذا لإطّلاعهم على الأخبار و الأثار الواردة لا يخفي عليهم هذا الأمر الّذي هو أظهر من الشّمس و أبين من الأمس ألَم يعرفوا عليّ ببن أبىطالب و أولاده المعصومين كالباقر عليه السلام و الصّادق عليه السلام و الرّضا عليه السلام و غيرهم من هُم أليس الرّازي يقول في تفسير سورة الفاتحة و لا شكّ في أنّه من إقتدى في دينه لعليٍّ فقد إهتدىٰ و هل يجوز لعاقلٍ من المسلمين أن يقول و العلم بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة فضلاً عن الرّازي و أمثاله كيف تكون معرفة أبىبكر و عُمر و أبىهريرة و أبىحنيفة و الشّافعي و إبن حنبل و غيرهم ممكناً و معرفة ولاد رسول اللّه غير ممكنٍ أيجوز للمسلم أن يقول بهذه المقالة في مقام الإستدلال على إنكار الحقّ و حيث إنجرّ الكلام الىٰ هذا المقام.

فَنحنُ نُشير الىٰ شطرٍ ممّا ورد في المراد بالصّادقين من طرق العامّة و الخاصّة ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيىٰ مَن حيّ عنها فنقول:

قال الحافظ الحَسكاني وهو من مشاهير علماءهم في كتاب شواهد التّنزيل بأسناده عن محمّد بن أبي الصّلت قال حدّثني أبي عن جعفر بن محمّد عليه السلام في قوله إتّقوا اللّه وكونوا مع الصّادقين قال عليه السلام يعني مع محمّد وعلّي انتهىٰ.

و بأسناده عن الكلبي مع أبي صالح عن إبن عبّاس في قوله إتّقوا اللّه و كونوا مع الصّادقين، قال: نزلت في علّي بن أبي طالب خاصّة انتهىٰ.

و بأسناده عنه عن إبن عبّاس أيضاً بطريقٍ أخر في هذه الآية يا أيّها الذّين أمنوا إتّقوا اللّه و كونوا مَع الصّادقين، قال مع علّي و أصحاب علّي انتهىٰ

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر و هو الباقر عليه السلام في قوله و كونوا مع الصّادقين، قال عليه السلام: مَعَ أل محمّدٍ انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي سعيد البلخي عن مقاتل بن سليمان عن الضّحاك عن إبن عبّاس في قوله: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قال: يعني مع علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و بأسناده عن أبان بن تغلب عن أبي جعفر في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قال: مَع علّي بن أبي طالب.

و بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قال: مَع علّي و أصحاب علّي انتهىٰ.

و بأسناده عن نافع عن عبد اللّه بن عمر في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قال: أمر اللّه أصحاب محمّد أن يخافوا اللّه ثمّ قال لهم وكونوا مع الصّادقين يعني محمّداً وأهَل بيته انتهىٰ.

و في كتاب غاية المرام روي عن صدر الأئمّة عند المخالفين أخطب خوارزم أبو المُؤيّد موّفق بن أحَمد من أعيان علماء العامّة في كتاب الفضائل بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن موّفق بن أحمد بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن إبراهيم بن محمّد الحمويني من أعيان علماء العامّة بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس في هذه الآية قال: مع علّي بن أبـي طالب انتهىٰ.

و عن أبي نعيم أحمد بن عبد اللّه بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصفهاني في كتابه بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

أبو نعيم هذا بأسناده عن جعفر بن محمّد في قوله تـعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: محمّد و علّي عليهما السّلام انتهىٰ والأحاديث من طُرق العامّة في الباب كثيرة جدّاً.

و أمّا الأخبار الواردة في الباب من طريق الخاصّة فأكثر من أن تُحصىٰ ونحن نشير الىٰ قليل منها تكميلاً للبحث

منها، ما رواه في غاية المرام عن محمّد بن يعقوب بأسناده عـن يزيد بن معاوية العجلي قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال عليه السلام إيّانا عني.

و عنه بأسناده عن إبن أبي نصر عن أبي الحَسَن الرّضا عليه السلام قال: سَألتُه عن قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال الصّادقون هم الأئمّة الصّديقون بطاعتهم انتهىٰ.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قال عليه السلام: مَع علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن محمّد بن الحسن الشّيباني في نهج البيان في معنىٰ الآية قال: روي عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه أنّ الصّادقين هاهنا هم الأئمّة الطّاهرون من أل محمّد قال و روي أيضاً أنّ النّبي سئل عن الصّادقين هاهنا فقال صلى الله عليه وآله هُم علّي و فاطمة و الحسن و الحسين و ذرّيتهم الطّاهرون الىٰ يوم القيامة انتهىٰ.

و عن سليم بن قيس الهلالي في كتابه في حديث المناشدة قال أمير المؤمنين فأنشدكم اللّه أتَعلمون أنّ اللّه عزّ وجلّ أنزل: يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ فقال سلمان يا رسول اللّه أم عامّة هي أم خاصّة قال صلى الله عليه وآله: المأمورُون فالعامّة مع المؤمنين أمروا بذلك وأمّا الصّادقون فخاصّة لأخي علّي والأوصياء من بعده الىٰ يوم القيامة انتهىٰ.

و عن تفسير العيّاشي بأسناده عن هشام بن عجلان قال قلت لأبي عبد اللّه أسَألك عن شئ لا أسأل عنه أحداً بعدك أسَألك عن الإيمان الّذي لا يَسع النّاس جهله، قال عليه السلام: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه والإقرار بما جاء به من عند اللّه و إقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة و حجّ البيت و صوم شهر رمضان و الولاية لنا و البراءة من عَدّونا مَع الصّديقين انتهىٰ.

**أقول** فهذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ المراد بالصّديقين في الآية هم الأئمّة بعد الرّسول أوّلهم علّي بن أبي طالب و أخرهم حجّة بن الحسن الإمام المنتظر عجّل اللّه تعالىٰ له الفرج و جعلنا من أعوانه و أنصاره

بحقّ محمدٍّ و أله الطّاهرين و لختم الكلام في تفسير الآية بما قاله بعض المحقّقين من المفسّرين أعلىٰ اللّه مقامه حيث قال قدس سره.

و قال بعضهم أراد بكونهم مع الصّادقين كونهم مع كعب بن مالك و أصحابه الذّين صدقوا في أقوالهم و لم يكذبوا في الإعتذار عن تخلّفهم في الجهاد ولم يعلموا أنّ الصّادق الحقيقي هو القائل بالحقّ العامل به لأنّها صفة مدح لا تطلق إلاّ على من يستحقّ المَدح على صدقه فأمّا من فسق بإرتكاب الكبائر والإصرار على الصّغائر فلا يطلق عليه إسم صادق و لذلك مدح اللّه الصّديقين و جعلهم قالين للنبيّين في قوله: **مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّنَ وَ ٱلصِّدِّيقِينَ وَ ٱلشُّهَدَآءِ وَ ٱلصَّالِحِينَ**[1].

**مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللّٰهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ** لمّا أخبر اللّه تعالىٰ في الأيات السّابقة تأخّر المتّخلّفين عن النّبي و الخروج معه الىٰ غزوة تبوك و إعتذارهم بعد ذلك و توبتهم منه وقبول توبتهم من اللّه تعالىٰ لرأفته و رحمته عليهم ذكر عقيب ذلك لأهل المدينة و من حولها من الأعراب علىٰ وجه التّوبيخ و الإزراء على ما فعلوه من التّخلف و الإعتذار و التّوبة بعد ذلك فقال ما كان لأهل المدينة من المهاجرين و الأنصار و من حَول المَدينة من الأعراب و سكّان البوادي، أن يتّخلفوا عن رسول اللّه أي لا يجوز لهم ذلك لأنّ التّخلف عنه صلى الله عليه وآله هو التّخلف عن الإسلام بعينه و معصيته معصية اللّه، و لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي و لا أن يطلبوا نفع نفوسهم و بعبارةٍ أُخرى لا يجوز لهم أن يعرضوا عن رسول اللّه و ذلك لأنّ كلمة (رغب) اذا تعدّيت بعن فمعناها الإعراض يقال رغبت عنه أي أعَرضتُ عنه واذا تعدّيت بغيرها معناً الميل يقال رغبت اليه أو به أي ملت اليه و تشّوقت اليه و هى هاهنا من قسم الأوّل

١- النّساء = ٦٨

لأنّ التّقدير و لا يرغبوا عن نفسه بأنفسهم وأظنّ أنّ في تقديم بأنفسهم على نفسه دلالة على هذا المعنى حيث أنّهم قدّموا أنفسهم على نفس رسول اللّه في التّخلُف و هذا لا يجوز.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** ثمّ أوضح اللّه تعالىٰ ما ذكره بقوله:

**ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ اللّٰهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغيظُ الْكُفّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللّٰهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنينَ**

أي كانت علّة تخلّفهم عن الجهاد أن لا يصيبهم ظمأ و هو شدّة العطش و لا نصبٌ، أي تعبٌ و مشقّة و لا مخمصةٌ، يعني محاجة و أصله خمور البطن للمجاعة و منه رجلٌ خميص البطن و إمرأة خصمانة و الحاصل أنّهم تقاعدوا عن الجهاد لأجل هذه الأمور **في سَبيلِ اللّٰهِ** و بعبارةٍ أخرىٰ أنّهم لم يرضوا بتحمّل المشّاق في سبيل اللّه و هو الجهاد مع أنّ المؤمن الحقيقي لا يكون كذلك و العجب أنّهم رضوا بتحمّل المشّاق في حقّ رسول اللّه فقدّموا نفوسهم علىٰ نفسه.

**وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغيظُ الْكُفّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ**

الواو في قوله: **وَ لا يَطَؤُنَ** للحال أي أنّهم كانوا كذلك و الحال أنّهم لا يخطون خطوة توجب غيظ الكفّار و لا ينالون نيلاً أي و لا يصيبون من **المشركين أمراً من قتلٍ أو جرحٍ أو ما يغمّهم ويغيظهم إِلّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ** أي إلاّ و يكتب اللّه لهم به عملاً صالحاً أنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين، أي أجر من فعل الأفعال الحسنة الّتي يستحقّ بها المدح و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما بال قومٍ يتّقاعدون عن الجهاد أو كلّ ما فيه تقوية الدِّين.

قال قتادة حكم هذه الآية مختصّ بالنّبي فأنّه ﷺ اذا غزا لم يكن لأحدٍ أن يتخلّف عنه فأمّا من بعده من الخلفاء فأنّ ذلك جائز.

و قال الأوزاعي و غيره أنّ هذه الآية لأوّل الأمّة و أخرها من المجاهدين في سبيل اللّه و قال إبن زيد هذا حين كان المسلمون قليلين فلمّا كثرو أنسخ بقوله: **وَ مٰا كٰانَ اَلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً**[1].

قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله الأقوال المذكورة عنهم و هذا هو الأقوى لأنّه لا خلاف أنّ الجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كلّ أحدٍ النّفر لصار من فروض الأعيان إنتهى كلامه رفع مقامه.

**أقُول** و فيه بحثٌ لا يسعه المقام وموضعه الكتب الفقهية.

■



١- التوبة= ١٢٥

وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ
أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَ مَا كَانَ
الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ
الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَ
أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَ لَا
يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَ إِذَا مَا
أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيكُمْ
مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

## ◄اللّغة

لِيَنْفِرُوا، النَّفر بسكون الفاء الإنزعاج عن الشّئ و الى الشّئ كالفزع الىٰ الشّئ و عن الشّئ يقال نفر عن الشّئ نفوراً.

يَلُونَكُمْ أي يقربُون اليكم.

غِلْظَةً بكسر الغين و فتح الظّاء ضدّ اللّين خلاف الرّقة.

يُفْتَنُونَ، الفِتنة المحنَة (ما عنّت أي ما يلحقكم من الأذىٰ الّذي يضيق الصَّدر به.

## ◄الإعراب

فِرْقَةٍ مِنْهُمْ قوله منهم صفة لفرقة و يجوز أن يكون حالاً من طائفة عَزِيزٌ عَلَيْهِ هو صفة لرسول و ماء، مصدّرية موضعها رفع بعزيز.

## ◄التّفسير

**وَ لٰا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لٰا كَبِيرَةً وَ لٰا يَقْطَعُونَ وٰادِيًا إِلّٰا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**

هذه الآية عطف على السّابقة أي و لا يطئون موطئاً يغيظ الكفّار و لا ينالون من عدّوٍ نيلاً، و لا ينفقون نفقةً صغيرةً و لا كبيرةً أي أنّ هؤلاء لا ينفقون في سبيل اللّه و جهاد أعداءه نفقةً صغيرة أو كبيرة يريدون بها التّقرب الى اللّه و إعزاز دينه و إعلاء كلمته و نفع المسلمين به و ذلك لأنّ الإنفاق متى كان للشّهوة أو للشُّهرة كان مباحاً و إن كان للرّياء و السُّمعة أو للمعاونة على الفساد كان معصية و أن كان خالصاً لوجه اللّه و متقرّباً اليه فهو الممدوح و حيث أنّهم لم ينفقوا و أن أنفقوا كان إنفاقهم من القسمين الأوّلين لا جرم حكم اللّه بعدمه لأنّ الإنفاق اذا لم يكن وسيلة للتّقرب اليه تعالى فهو كالمعدوم هذا كلّه بالنّسبة الىٰ الإنفاق.

و أمّا تحمل المشّاق في السّير الى الجهاد فهو أيضاً كذلك أي لا ينفع اذا لم يكن للّه تعالى فيصير محصّل المعنى أنّ ما بالهم لا ينفقون في سبيل اللّه يسيرون الى الجهاد مع أنّهم لو أنفقوا في سبيل اللّه و ساروا الى الجهاد يجزيهم اللّه أحسن ما كانوا يعملون ففي هذه الآية و سابقتها حثٌّ و ترغيبٌ الى الإنفاق و الجهاد و توبيخٌ على التّقاعد و التّخلف عنه.

**وَ مٰا كٰانَ اَلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كٰآفَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى اَلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**

قوله: **فَلَوْلا** معناه، هلاّ نفر لأنّها أي لولا للتّحضيض اذا دخلت على الفعل و أمّا اذا دخلت على الإسم فهي بمعنى إمتناع الشّئ لأجل وجود غيره و قيل في معنىٰ الآية ثلاثة أوجه:

**أحدها**: ما قاله الحسن و هو أنّ اللّه تعالىٰ حثَّ الطّائفة النّافرة على التّفقُّه لترجع الى المتخلّفة فتحذرها.

**ثانيها**: ما قاله قتادة أنّ المعنىٰ أنّه لم يكن لهم أن ينفروا بأجمعهم في السّرايا و يتركوا النّبي بالمدينة وحده و لكن تبقى بقيّة لتّفقه البقيّة ثمّ تُنذر النّافرة.

**ثالثها**: قال أبو علّي الجبائي تنفر الطّائفة من كلّ ناحية الىٰ النّبي لتسمع كلامه و تتفقّه عنه ثمّ يتبيّنوا ذلك لقولهم اذا رجعوا اليهم.

و قال مجاهد نزلت الآية في قوم خرجوا الىٰ البادية ليفقّهوهم و ينالوا منهم خيراً فلمّا عاتب اللّه من تأخّر عن النّبي عند خروجه الى تبوك و ذمّ أخرين خافوا أن يكونوا منهم فنفروا بأجمعهم فقال اللّه، لا نفر بعضهم ليفقّه عن النّبي ما يجب عليهم و ما لا يجب و يرجعون فيخبرون أصحابهم بذلك ليحذروا هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال القُرطبي في تفسيره لها أنّ هذه الآية أصلٌ و فى وجوب طلب العلم لأنّ المعنى و ما كان المؤمنون لينفروا كافّة و النّبي صلى الله عليه وآله في المدينة مقيمٌ لا ينفر فيتركوه وحده فلولا نَفر.

بعد ما علموا أنّ النّضير لا يسع جميعهم، من كلّ فرقةٍ منهم طائفة، و تبقى بقيّتها مع النّبي صلى الله عليه وآله ليتحمّلوا عنه الدّين و يتَّفقهوا فاذا رجع النّافرون اليهم أخبروهم بما سمعوا و علموهم و في هذا ايجاب التَّفقه في الكتاب و السنّة و أنّه على الكفاية دون الأعيان انتهى كلامه.

و قال الطّبري بعد نقله الأقوال في تفسير الأية، و أولىٰ الأقوال في تأويل ذلك بالصّواب أن يقال تأويله و ما كان المؤمنُون لينفروا جميعاً و يتركوا رسول اللّه و أنّ اللّه نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا الى غزو و جهادٍ و غير ذلك من أمورهم و يدعوا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وحيداً و لكن عليهم اذا سرى رسول اللّه صلى الله عليه وآله سرّية أن ينفر معها من كلّ قبيلة من قبائل العرب و هى الفرقة، طائفة و ذلك من الواحد الى ما بلغ من العدد ثمّ قال بعد أسطرٍ.

## لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ

فأن أولىٰ الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال ليتَّفقه الطّائفة النّافرة بما تعاين من نصر اللّه أله دينه و أصحاب رسوله على أهل دينه و أصحاب رسوله على أهل عداوته و الكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة أمر الإسلام و ظهوره على الأديان فعلَّم بذلك من لم يكن فقَّهه و لينذروا قومهم فحذَّروهم أن ينزل بهم من بأس اللّه مثل الّذي نزل بمن شاهدوا و عاينوا ممّن ظفر بهم المسلمون من أهل الشّرك اذا هم رجعوا اليهم من غزوهم لعلَّهم يحذرون انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال الرّازي يمكن أن تكون الآية من بقيّة أحكام الجهاد و يمكن أن تكون كلامٌ مبتدأ لا تعلّق لهما بالجهاد.

**فعلى الأوّل**: نقل عن إبن عبّاس أنّه قال كان الرّسول اذا خرج الى الغزو لم يتخلّف عنه إلاّ منافق أوصاحب عذر فلمّا بالغ اللّه سبحانه في عيوب المنافقين في غزوة تبوك قال المؤمنون و الّه لانتخلّف عن شئ من الغزوات مع الرّسول و لا عن سرّية فلمّا قدم الرّسول صلى الله عليه وآله المدينة و أرسل السّرايا الى الكفّار نفر المسلمون جميعاً الى الغزو و تركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية و عليه فالمعنىٰ لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكلّيتهم الى الغزو و الجهاد بل يجب أن تنفر طائفة و تبقى طائفة أخرىٰ في خدمة الرّسول للتّفقه في الدّين و حفظ التّكاليف و إبلاغها الى الغائبين بعد رجوعهم اليهم من الغزو و هاهنا إحتمالان:

**أحدهما**: أن تكون الطّائفة المقيمة هم الّذين يتّفقهون في الدّين بسبب أنّهم لا زموا خدمة الرّسول فينذرون الطّائفة النّافرة.

**ثانيهما**: أن التّفقه صفة للطّائفة النّافرة لأنّهم كانوا يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين.

**على الثّاني**: و هو أنّ الآية ليست من بقايا أحكام الجهاد بل هو حكمٌ مبتدأ فقد بيّن في هذه الآية عبادة التّفقه بعد ما بيّن في الأيات السّابقة عبادة الهجرة و الجهاد ثمّ قرّر ما أفاد بما لا مزيد عليه هذا كلامه ملخّصاً.

**أنا أقول** المستفاد من الآية الشّريفة هو لزوم التّفقه في الدّين أو وجوبه على سبيل الواجب الكفائي لا العيني و هذا ممّا لا خلاف فيه بين الكلّ.

و أيضاً يستفاد منها أنّ التّفقه مقدّمة لإنذار القوم و بعبارةٍ أخرىٰ أنّه ليس مطلوباً الاّ لأجل الإنذار و هذا أيضاً ممّا لا خلاف فيه عندهم و أمّا أنّ الآية من بقيّة أحكام الجهاد أو أنّها كلامٌ مبتدأ فلا يهمّنا البحث فيه.

به عبارةٍ أخرى يستفاد من الآية انّه يجب على المسلم التّفقه كفاية ثمّ الإنذار بعده و هذا حكمٌ عامٌ لا يختصّ بزمانٍ دون زمان و قد قلنا مراراً أنّ خصوصيّة المورد لا تنافي عموميّة الحكم فلو فرضنا أنّ الآية نزلت في الجهاد لا يمنعنا ذلك عن حملها على العموم من حيث المعنى اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **فَلَوْلَا نَفَرَ** معناه فهلاّ نفر**مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ** أي من المسلمين، طائفة و هى في اللّغة الجماعة و قد تقع علىٰ أقلّ من ذلك حتّىٰ تبلغ الرّجلين و للواحد على معنىٰ نفس الطّائفة و لا شكّ أنّ المراد بها هنا جماعة عقلاً و لُغةً.

**أمّا العقل** فلأنّ العلم لا يتحصّل بواحدٍ في الغالب.

و أمّا اللّغة فلقوله: **لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ** حيث جاء بضمير الجماعة.

و قيل أنّ الطّائفة هاهنا واحد و يعتضدون ذلك بالدّليل علىٰ وجوب العمل بخبر الواحد و فيه بحث و تفصيل الكلام فيه في الأصول**لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ** أي يتبصّروا و يتيقّنوا في أصول دينهم و فروعه و ما يتعلّق به من الأحكام بقدر الإمكان و الإستطاعة و القدرة.

**وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**

الإنذار ضدّ البشارة و الضّمير في قوله لينذروا يرجع الى المتَّفقهين المتَّبصرين أي و لينذروا قومهم بعد الرّجوع اليهم، من الكفّار هذا على مسلك القوم.

و أمّا على المختار في معنى الآية فالمعنى، و لينذروا قومهم من عذاب اللّه و سخطه لعلّهم يحذرون أي لكي يحذروا من عذابه و لنذكر بعض ما ورد في التّفقه من الأخبار و منه يعلم تفسير الآية أيضاً.

**عن أُصول الكافي بأسناده عن علّي بن حمزة قال سمعتُ أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: تفقهوا في الدِّين فانّ من لم يتفقّه منكم في الدّين فهو أعرابي، أنّ اللّه يقول في كتابه: لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ انتهىٰ.**

و بأسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلتُ لأبي عبد اذا أحدث علىٰ الإمام حدث كيف يصنع النّاس قال عليه السلام: أيَن قول اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰآئِفَةٌ.

ثمّ قال عليه السلام: هم في عذرٍ ما داموا في الطَّلب و هؤلاء الّذين ينتظرونهم في عذرٍ حتّى يرجع اليهم أصحابهم انتهىٰ

عن علّي بن إبراهيم بأسناده عن عبد الأعلى قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول رسول اللّه صلى الله عليه و آله من مات و ليس له إمام مات ميتةً جاهليّة، قال الحقّ و اللّه، قلت إماماً هلك و رجل بخراسان لا يعلم مَن وصّيه لم يسعه ذلك قال لا يسعه أنّ الإمام اذا هلك وقعت حُجّة وصّيه علىٰ من هو معه في البلد و حقّ النَّفر على من ليس بحضرته اذا بلغهم أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰآئِفَةٌ

و عن محمّد بن يحيىٰ بأسناده عن محمّد بن مُسلم قال: قلتُ لأبي عبد اللّه أصلحك اللّه بلغنا شكواك و أشفقنا فلو أعلمتنا من، فقال عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام كان عالماً و العلم يتوارث فلا يهلك عالمٌ إلاّ بقى مِن بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء اللّه قلت أفيسع النّاس اذا مات العالم أن لا يعرفوا الّذي بعده فقال أمّا أهل هذه البلدة فلا يعني المدينة، و أمّا غيرها من البلدان فبقدر مسيرهم أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: وَ مٰا كٰانَ اَلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كٰآفَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي اَلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ الخبر انتهىٰ موضع الحاجة منه.

و عن عيُون الأخبار في باب العلل التّي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها مِن الرِّضا عليه السلام فأن قال فلم أمر بالحجّ قيل لعلَّه الوفادة و طلب الزّيادة الىٰ أن قال عليه السلام: مع ما فيه من التَّفقه و نقل أخبار الأئمّة عليهم السّلام الىٰ كلّ صقعٍ و ناحية كما قال اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلا نَفَرَ

مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ وليشهدوا منافع لهم انتهىٰ.

و عن كتاب عِلل الشّرائع بأسناده عن عبد اللّه بن المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد اللّه أنّ قوماً يروون أنّ رسول اللّه قال: إختلاف أمّتي رحمة، فقال صدقوا فقلت أن كان إختلافهم رحمة فإجتماعهم عذابٌ قال عليه السلام: ليس حيث تذهب و ذهبوا أنّما أرادوا قول اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ فأمرهم أن يَنفروا الىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله ويختلفوا اليه فيتَّعلموا ثمّ يرجعوا الىٰ قومهم فيعلّموهم أنّما أراد إختلافهم من البلدان لا إختلافاً في دين اللّه أنّما الدّين واحد انتهىٰ.

و بأسناده عن عبد الأعلىٰ قال قلتُ لأبي الحَسن عليه السلام أن بلغنا وفاة الإمام كيف نصنع قال عليكم النَّفير قلت النَّفير جميعاً قال عليه السلام: أنّ اللّه يقول: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ.

و عن تفسير العيّاشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلتُ له اذا حدث للإمام حَدَث كيف يَصنع النّاس قال عليه السلام: يكون كما قال اللّه فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ قال قلتُ فما حالهم قال هم في عُذرٍ انتهىٰ و الأحاديث نقلناها عن تفسير نُور الثّقلين[1].

و قد نقل قدس سره كثيراً من الأخبار بهذا المضمون فمن شاء الإطّلاع على أكثر ممّا نقلناه فعليه بمراجعته و قد تحصَّل ممّا ذكرناه أنّ الآية أنّما نزلت لأجل التَّفقه في الدّين و هو لا ينافي أن يكون نزولها في الجهاد فأنّ المقصود حصول التَّفقه و الإنذار بعده و من المعلوم أنّ النَّفر للتَّفقه من أعظم مصاديق الجهاد.

---

۱- ج ۲ ص ۲۸۲

**يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ**

قرأ عاصم، **غلظة**، بفتح الغين و الباقون بكسرها قيل قراءة الكسر هي العرَبية و ذكر الزّجاج أنّ فيه ثلاث لغات الفتح و الضمّ و الكسر أفصحها و الكسر لغة أهل الحجاز و الضمّ لغة تميم.

أمر اللّه تعالىٰ المؤمنين أن يقاتلوا الكفّار الّذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب.

قال بعض المفسّرين و ذلك يدّل على أنّه يجب على أهل كلّ ثغرٍ أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الإسلام اذا لم يكن هناك إمامٌ عادل و أنّما جاز من اللّه تعالىٰ أن يأمر بالقتال ليدعوهم الى الحقّ و لم يجز أن يمنعهم من الكفر لأنّ المنع ينافي التّكليف و من قاتل الأبعد من الكفّا و ترك الأقرب فالأقرب فأن كان بأذن الإمام كان مصيباً و أن كان بغير أمره كان مخطئاً انتهىٰ.

و هو حقّ لا مرية فيه لأنّ الدِّفاع لا يحتاج الى إذن الإمام و أمّا الجهاد فيحتاج الى اذنه.

و أمّا قوله: **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** معناه و ليخشوا منكم بالغلظة و هى ضدّ اللّين و خلاف الرِّقة و معناها الشدّة في إحلال النّقمة.

و أمّا قوله: **وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ** فمعناه واضح و أعلم أنّه نُقل عن الحسن أنّه قال أنّ الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافّة ثمّ أنّهم صارت منسوخة بقوله قاتلوا المشركين كافّة.

و قد أجمع أهل التّحقيق على خلافة و ذلك لأنّه تعالى لمّا أمرهم بقتال المشركين كافّة أرشدهم الى الطّريق الأصوب الأصلح و هو أنّ القتال ينتقل من الأقرب فالأقرب الى الأبعد فالأبعد و ذلك لأنّ أمر الدَّعوة يقع على هذا التّرتيب هكذا قيل.

و الحقّ أنّا لا نحتاج الىٰ هذه التّخريجات في عدم النّسخ بل نقول الآية ناظرة الى الدِّفاع عن بيضة الإسلام و حفظ نواميس المسلمين و أموالهم و أنفسهم و هذا ممّا يتقبل به العقل السّليم و لا يحتاج الىٰ إذن الإمام و اذا كان كذلك فهو غير قابلٍ للنّسخ فأنّ حكم العقل لا نسخ فيه.

ألا ترى أنّه تعالىٰ يقول: **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ** فأنّ مفهوم الكلام هو عدم القتال في غيرهم لأنّه محتاج الىٰ إذن الإمام.

**وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه متى نزلت سورة مِن القرأن فمنهم، أي من المنافقين من يقول على وجه الإستهزاء و الإنكار أيّكم زادته هذه إيماناً، أي أيُّ شخصٍ منكم زيد في إيمانه بسبب نزول السُّورة و غرضهم من هذا الكلام هو أنّ القرأن لا يزيد في إيمانكم فلا فرق في نزول السُّورة و عدمه وهذه مقالة المنافقين المستهزئين فأمّا الّذين أمنوا باللّه و رسوله حقّاً فلا يقولون ذلك بل يعترفون و يعتقدون بأنّ السُّورة تزيد في إيمانهم و هم يستبشرون به أي و الحال أنّهم يستبشرون به و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ المنافق لنفاقه و عدم إعتقاده و إيمانه باطناً دائماً بصدد الإستهزاء للدّين و إنكار الحقائق و المؤمن بخلافه و هذا معلوم من حالهما و لا حاجة الىٰ تفصيل الكلام في المقام هذا حال المنافقين الّذين ليس في قلوبهم مرض و نعبّر عنهم بالمتوسّطين.

و أمّا الّذين في قلوبهم مرض كما أشار اللّه تعالىٰ اليهم بقوله: **وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** قالوا يعني شكّ و نفاق من الإسلام و يتحمل أن يراد به العناد فأنّ المنافقين علىٰ صنفين:

معاند، و غير معاندٍ فالآية السّابقة ناظرة الى غير المعاندين و هذه الآية ناظرة الى المنافقين المُعاندين و هم الّذين يقول اللّه فيهم: **مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ**

**رِجْسًا إِلٰى رِجْسِهِمْ** أي نفاقاً و كفراً الى كفرهم و ذلك لكونهم شّاكين في دينهم بل منكرين للّدين واقعاً و هذا فساد في القلب يحتاج الى العلاج كالفساد في البدن يحتاج الى مداواة و مرض القلب أعضل و علاجه أعسر **والرِّجس** بكسر الرّاء و النَّجس واحد و سمّي الكفر رجساً لأنّه يجب تجنّبه كما يجب تجنُّب الأنجاس قيل أنّما أضاف الزّيادة الى السوّرة لأنّهم يزدادون عندها و مثله قولهم كفىٰ بالسّلامة داء قال الشّاعر:

أرىٰ بصري قد رابني بعد صحّةٍ و حسبك داءً أن تصّح و تسلماً

و أمّا قوله: **وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ** فالوجه فيه أنّ المرض القلبي يؤدّي صاحبه الى الموت على شرّ حالٍ لأنّها تسوق الىٰ النّار دائماً قال ماتوا و لم يقل يموتون لأنّه عطف على زادتهم رجساً الى رجسهم و إلاّ فالمعنى أنّهم يموتون و هم كافرون.

**أَوَ لٰا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لٰا يَتُوبُونَ وَ لٰا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**

قرأ حمزة و يعقوب، بالتّاء و الباقون بالياء و عليه المصاحف و هو الأشهر أي أولا ترون الّذين في قلوبهم مرض **أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ** الفتنة المحنة بالقتل و السَّبي و نصر اللّه لنبيّه ﷺ حتّىٰ يستعلى علىٰ كلّ من ناواه في قول الحسن و قتادة و قال مجاهد، هي بالقحط و الجوع، و قيل هي بالمرض الّذي ينزل بهم.

**أقول** الإفتنان الإختبار فقوله يفتنون أي يختبرون و لا شكّ أنّ الإختبار تارّةً يكون بالقحط و تارّةً بشيوع الأمراض و تارّةً بالآلام و المصائب و تارّةً بالغنى و الثّروة و هكذا و يستفاد من الأيات و الأخبار أنّ اللّه تعالىٰ يختبر جميع النّاس في مدّة حياتهم:

قال اللّه تعالىٰ: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً**[3].

**أن قلت** إذا كان كذلك فما الفرق بين المؤمن و المنافق.

**قُلتُ** من هذه الجهة لا فرق بينهم و إنّما الفرق في أنّ المؤمن يتذّكر و يتوب الىٰ اللّه و المنافق لا يتوب و لا يتذّكر بل يدوم على ما هو عليه و الى هذا المعنى أشار بقوله ثمّ يتوبون و لا هم يذكرون.

**وَ إِذَا مَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ** أي نَظَر المنافقين الىٰ بعضٍ.

**قال** بعض المفسّرين أي إذا حضروا الرّسول و هو يتلوا قرآناً أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم الىٰ بعضٍ نظر الرُّعب على جهة التّقدير يقول: **هَلْ يَرٰيكُمْ مِنْ أَحَدٍ** إذا تكلّمتم بهذا فينقله الىٰ محمّد ﷺ و ذلك لجهلهم بنبوّته و أنّ اللّه يطّلعه على ما يشاء من غيبه.

و قد حكى الطّبري عن بعضهم أنّه قال، نظر، في هذه الآية موضع قال أي كأنّه قال بعضهم لبعض و الى هذا المعنىٰ ينظر من قال أنّ، نظر، في هذه الآية بمعنى، أنبأ **ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا صَرَفَ ٱللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ** أي ثمّ يقومون فينصرفون صرف اللّه قلوبهم، عن رحمته عقوبةً لهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون، مواعظ اللّه و أوامره و نواهيه و أنّما قال ذلك في حقّهم مع أنّهم كانوا عقلاء يفقهون الأشياء لأنّهم لم ينظروا فيه حقّ النّظر و لم يتدبّروا في القرآن و مواعظ الرّسول حقّ التّدبر و لذلك لم يعملوا بموجبه فصاروا كأنّهم لم يفقهُوه كما يقال لمن لا ينتفع بما يسمع و يبصر **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ** مع أنّ الحجّة قد تمّت عليهم بمجيئ الرّسول و اليه الإشارة بقوله:

---

١- العنكبوت =٢
٢- الدّخان =١٧
٣- الأنبياء =٣٥

**لَقَدْ جٰآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**

قيل اللاّم في قوله: **لَقَدْ جٰآءَكُمْ** للقسم و عليه فأقسم اللّه في الآية بأنّه قد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، و الخطاب متعلّق الى جميع الخلق لأنّه الرّسول صلى الله عليه وآله قد بعث الى كافّة الخلق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا كَآفَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا**[1].

و قوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** أي من جنس البشر فالمعنى أنّكم ترجعون الىٰ نفسٍ واحدة:

كما قال تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**[2].

و قيل أنّ المراد بقوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** أي من العرب و على هذا فيكون الخطاب متوجّهاً الى العرب خاصّة.

و نقل القرطبي أنّ عبد اللّه بن قسيط المكّي قرأ من **أَنْفَسَكُم**، بفتح الفاء من النّفاسة و عليه فالمعنى جاءكم رسولٌ مِن أشرفكم و أنفسكم أي أفضلكم من قولك شئ نفيس إذا كان مرغوباً فيه.

و قيل أي أكثركم طاعةً، و لكلٍّ وجهٌ وجيه و مع ذلك لا يخفى عليك أنّ ضمّ الفاء أولى و عليه جميع المصاحف و المعنى هو بشرٌ مثلكم لِتفهموا عنه و تأتّموا به إذ لو كان من جنس الملك مثلاً لم تحصل بينكم ألفة أو مؤانسته لعدم السنّخية بين الملك و البشر و قوله: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ** أي يعزّ عليه مشقّتكم و العنت المشقّة، و، ما، في ما عنتم مصدّرية و هي إبتداء و عزيزٌ خبر مقدّم و قيل: **مٰا عَنِتُّمْ** فاعل بعزيز، و عزيز صفة للرّسول وكذا قوله: **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** و كذا رؤفٌ رحيمٌ، رفع علىٰ الصفّة، و معنى حريصٌ عليكم أنّ الرّسول حريصٌ على أن تؤمنوا باللّه و رسوله و تدخلوا الجنّة و هو يدّل على كمال رأفته و علاقته بالمؤمنين.



---

١- سَبَأ=٢٨ ٢- الكهف=١١١

**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ.**

الفاء للتّفريع و المعنى و أن أعرضوا عن الحقّ و إتبّاع الرّسول و ما يأمرهم به فقل يا محمّد حسبي اللّه أي كفاني اللّه فأنّي لا أحتاج الى إيمانكم و ذلك لأنّ نفع الإيمان يرجع اليكم في الدّنيا و الأخرة و لا أعتمد عليكم بل توكلّت و أعتمدت على اللّه و هو ربّ العرش العظيم و من كان اللّه تعالى مغنيه و ناصره فهو غنيٌّ عن غيره فأنّ اللّه على كلّ شيٍ قدير و محصّل الكلام في الآية و سابقتها هو أنّ اللّه تعالى بمنّه و كرمه و لطفه و عنايته بعباده قد أرسل رسله اليهم في كلّ عصر و زمانٍ و قد جعل الأنبياء من جنس البشر و أنزل معهم الكتاب و الميزان ليقوم النّاس بالقسط مع العلم بعدم إحتياجه تعالىٰ اليهم في خلقهم و لا في عبادتهم لأنّه لا تنفعُه طاعة من أطاعه و لا تضّره معصية من عصاه بل خلقهم علىٰ أساس جوده و كرمه و كلّفهم و أرسل اليهم الرُّسل بمقتضى لطفه و رحمته و على هذا فمن تولّىٰ و أعرض عن الحقّ فأنّه لا يضُرّ اللّه شيئاً و من إهتدىٰ و عمل بما قرّره الشّارع من الأوامر و النّواهي فهو سعيدٌ في الدّنيا والأخرة.

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**[2].

و مِن المعلوم أنّ الدّاعي الى الحقّ وظيفته الدّعوة فقط قال تعالىٰ: **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ**[3] و هذا آخر الكلام في تفسير سورة التّوبة و الحمد للّه ربّ العالمين.

* * *

١- الشورىٰ=٤٨ ٢- النّسا=٨٠

٣- المائدة= ٩٩

## سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرٰ تِلْكَ اٰيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ ٱلنَّاسَ وَ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْاٰيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ

فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَاٰيٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ
ٱلدُّنْيَا وَ ٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ اٰيٰتِنَا
غٰافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ ٱلنّٰارُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا
ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِاِيمٰانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوٰيهُمْ
فِيهٰا سُبْحٰانَكَ ٱللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ اٰخِرُ
دَعْوٰيهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿١٠﴾

## ◄ اللّغة

أَوْحَيْنٰآ الوحي في الأصل الإشارة السّريعة و لتضّمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك يكون بالكلام علىٰ سبيل الرّمز و التّعريض.

لَسٰاحِرٌ السِّحر الخداع و تخييلات لا حقيقة لها.

بِالْقِسْطِ أي بالعدل.

حَمِيمٍ و هُو الّذي أسخِن بالنّار أشدّ إسخانٍ.

مَأْوٰيهُمُ المأوىٰ المكان.

## ◄ الإعراب

أَكٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنٰآ؛ أَوْحَيْنٰآ إسم كان و خبرها عجباً، وللنّاس حال من عجب و التّقدير، أكان عجباً للنّاس أَنْ أَنْذِرِ ٱلنّٰاسَ يجوز أن تكون، أن، مصدّرية فيكون موضعها نصباً، بأوحينا، و أن تكون بمعنى، أي، فلا يكون لها موضع يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يجوز أن يكون مستأنفاً، و أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون

حالاً وَعْدَ ٱللَّهِ هو منصُوب على المصدر بفعلٍ دلَّ عليه الكلام و هو قوله: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ و حَقًّا مصدر آخر تقديره حقّ ذلك حقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ الجمهور على كسر الهَمزَة على الإستئناف و قرئ بفتحها والتّقدير حقّ أنّه يبدأ فهو فاعل بِمَا كَانُوا في موضع رفع صفة أخرى، لعذاب و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً مفعولان و يجوز أن يكون، ضياء، حالاً و جعل بمعنى خلق و التّقدير ذات ضياء وَ ٱلْقَمَرَ نُورً أي ذا نُورٍ و قيل المصدر بمعنىٰ الفاعل أي منيراً (وقَدَّره منازل) أي و قدّر له منازل فحذف حرف الجرّ التّقدير ذا منازل إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ خبر، أن، أُولَٰئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ فأُولئك مبتدأ و مأواهم مبتدأ ثان و النّار خبره و الجملة خبر، أولئك، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً من ضمير المفعول في، يهديهم، فِي جَنَّاتِ يجوز أن يتعلّق بتجري و أن يكون حالاً من الأنهار و أن يكون متعلّقاً بيهدي و أن يكون حالاً من ضمير المفعول في، يهدي، و أن يكون خبراً ثانياً، لأن دَعْوَىٰهُمْ مبتدأ وسُبْحَانَكَ منصوب علىٰ المصدر و هو تفسير الدّعوىٰ لأنّ المعنىٰ قولهم سبحانك اللّهم و(فيها) متعلّق بتحيّةٍ أَنِ ٱلْحَمْدُ أن مخفّفة من الثّقيلة و قد يقرأ، أنّ بتشدّيد النّون و هى مصدّرية و التّقدير آخر دعواهم فيها حمد اللّه.

## ◄التّفسير

### الٓرٰ

ليست به آيةٍ مستقّلة وأنّما لم تعدّ آية كما عدّ ألم في عدد الكوّفيين آية لأنّ آخره لا يشاكل رؤوس الأي الّتي بعده ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى هذه الحروف الّتي في أوّل السُّور و قد تكلّمنا فيه في أوّل سورة البقرة و أنّها أسماء السُّور و لا يعلم معناها إلاّ اللّه تعالى لأنّها من الرُّموز فكلّ ما قيل أو يقال في معناها إستخراجات ظنّية لا مأخذ لها من الشّرع تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ إختلفوا في المشار اليه بقوله تلك، فقال قوم المعنىٰ الأيات الّتي تقدّم ذكرها.

و قيل إشارة الى الكتاب المحكم الّذي هو مخزون مكتوب عند اللّه ومنه نسخ كلّ كتابٍ كما قال بل هو قرآن مجيد في لَوح محفوظ.

و قيل إشارة الىٰ، ألرا و أخواتها من حروف المعجم أي تلك الحروف المفتتح بها السُّور و أن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المثال و هى آيات الكتاب بها يتلّىٰ و ألفاظه اليها ترجع، و قيل، تلك، بمعنىٰ هذه و المشار اليه حاضرٌ قريب و الأقوال فيها كثيرة و المراد بالكتاب في الآية القرآن و أنّما وصِف بأنّه حكيم لأنّه دليل علىٰ الحقّ كالنّاطق بالحكمة و لأنّه يؤّدي الىٰ المعرفة الّتي يميز بها طريق الهلاك من طريق النّجاة.

**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ**

الألف في قوله: **أَكَانَ** ألف إستفهام و المراد به الإنكار أي ليس كذلك قيل عجبت العرب و قريش أن يبعث اللّه فيهم نبيّاً فأنزل اللّه الآية.

و قال الحسن معناه ليس بعجب ما فعلناه في ذلك و المعنى ألم يبعث اللّه رسلاً من أهل البادية و لا من الجِنّ و لا مِن الإنس و العجب تغيُّر النّفس بما لا يعرف سببه ممّا خرج عن العادة الى ما يجوز كونه.

و قيل معناه لا عجب في ذلك فهي عادة اللّه في الأمم السّالفة و قوله: **أَنْ أَوْحَيْنَآ** اليه الى الرّجل المبعوث و الوحي بفتح الواو الإشارة السّريعة و لتضّمن السّرعة قيل أمرٌ وَحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب و بأشارةٍ ببعض الجوارح و بالكتابة و قد حمل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ حكايةً عن زكريا.

قال اللّه تعالىٰ: **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا**[1].

١- مريم=١١

فقد قيل،رمزاً و قيل إعتبار و قيل كتب و علىٰ هذه الوجوه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ اَلْإِنْسِ وَ اَلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُورًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰآئِهِمْ إِنَّ اَلشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰآئِهِمْ**(٢).

فذلك بالوسواس المشار اليه:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْ شَرِّ اَلْوَسْوٰاسِ اَلْخَنّٰاسِ**(٣).

و قوله ﷺ أنّ للشيّطان لمّة الخير و يقال للكلمة الإلٰهية الّتي تلقى الىٰ أنبياءه و أولياءه وحيٌ، و ذلك على أقسام حسب ما دلّ عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلّٰا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرٰآءِ حِجٰابٍ**(٤)

و ذلك إمّا برسولٍ مشاهد ثرى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل النّبي في صورةٍ معيّنةٍ و أمّا بسماع كلامٍ من معانيه كسماع موسى كلام اللّه.

و أمّا بإلقاءٍ في الرُّوح كما ذكر عليه السّلام، إنّ روح القُدس نفث في روحي.

و إمّا بإلهامٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنٰآ إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**(٥).

و أمّا بتسخيرٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى اَلنَّحْلِ**(٦).

أو بمنامٍ كما قال ﷺ إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن فالإلهام و التّسخير و المنام دلّ عليه قوله: **إِلّٰا وَحْيًا** و سماع الكلام معاينة دلّ

١- الأنعام=١١٢
٢- الأنعام=١٢١
٣- ناس=٣
٤- الشّورىٰ=٥١
٥- القصص=٧
٦- النّحل =٦٨

عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ** و تبليغ جبرئيل في صورةٍ معيّنة دلَّ عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اَفْتَرٰى عَلَى اَللّٰهِ كَذِبًا أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**(٢).

اذا عرفت الوحي و أقسامه فقد ظهر لك معنى الآية و أنّه لا عجب من وَحي اللّه تعالى الى رجلٍ خاصّ الّذي يسمّى بالنّبي اذ لا إشكال فيه بل هو أمرٌ جرى على السّيرة المستّمرة في جميع الأنبياء.

و أمّا قوله: **وَ بَشِّرِ اَلَّذِينَ اٰمَنُوٓا** فهو مفاد الوحي و محتواه فكأنّه قيل و لِمَ أوحى اللّه تعالىٰ الى رجلٍ من البشر و ما الفائدة فيه فقال تعالىٰ أن أنذر الآية أي أوحينا اليه أن أنذر النّاس من عذاب اللّه و سخطه في الدّنيا و الأخرة و بشّر المؤمنين **أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ** أي عرّف لهم ما فيه السّرور و الخلود في نعيم الجنّة علىٰ وجه الإكرام و الإجلال بالأعمال الصّالحة لأنّ لهم سابقة إخلاص الطّاعة كإخلاص الصِّدق من شائبة الكذب.

و قال الزّمخشري، قَدم صِدقٍ عند ربّهم، أي سابقةً و فضلاً و منزلةً رفيعة فأن قلت لم سمّيت السّابقة قدماً.

**قُلتُ** لمّا كان السَّعي و السّبق بالقدم سمّيت المسعاة الجميلة و السّابقة قدماً كما سمّيت النّعمة، يداً لأنّها تعطى باليد و باعاً لأنّ صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدمٌ في الخير و إضافته الى صدقٍ دلالة علىٰ زيادة فضل و أنّه من السّوابق العظيمة.

و قيل مقام صدقٍ، هذا الكتاب و ما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله انتهىٰ كلامه.

**قٰالَ اَلْكٰافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِينٌ** أي قال الكافرون باللّه ورسوله أنّ هذا أي النّبي ساحرٌ مبين أي مظهر أو ما أتى به سحرٌ مبين على إختلاف

١- الشّورىٰ =٥١ ٢- الأنعام =٩٣

القراءات فعلى قراءة السّاحر يكون هذا، إشارة الى النّبي و على قراءة السِّحر إشارة الى القرأن أو ما جاء به النّبي من المعجزات و السّحر يقال على معانٍ:

**الأوّل**: الخداع و تخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يدٍ و ما يفعله النّمام بقولٍ مزخرفٍ عائقٍ للأسماع و على ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ**[1].

**الثّاني**: إستجلاب معاونة الشّيطان بضَربٍ من التّقرب اليه وعلىٰ ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ ٱلشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ**[2].

**الثّالث**: ما يذهب اليه الإغتام و هو إسم لفعلٍ يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصُّور و الطّبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند أهل الفهم و الدّراية و سيأتي البحث منّا فيه و فى أنواعه في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ و لا شكّ أنّ نسبة السِّحر الى النّبي كذبٌ محض ينشأ من عجز الكاذبين فأنّ العاجز يكذب و يتهمّ غيره بأنواع التُّهم و هذا لا يختصّ بنبيّ الإسلام بل كان شائعاً في الأمم الماضية أيضاً كما سيأتى.

## إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

أصل «سِتّة» سدسة أبدل من أحدى السّينين تاء و أدغم في الدّال لأنّك تقول في تصغيرها سديسة و الجمع أسداس و الجمع و التّصغير يردّان الىٰ أصولها بيّن اللّه تعالى في هذه الآية مسائل:

**الأُولىٰ**: أنّ ربّكم و هو الذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكمالّية الّذي خلق أي أوجد السّموات و الأرض في ستّة أيّام فقال بعضهم أي من أيّام الأخرة كلّ يومٍ ألف سنة.

---

١- الأعراف =١١٦ ٢- البقرة =١٠٢

و قال مجاهد و غيره من أيّام الدّنيا و إختلفوا في وجه إختصاص الخلق بالسّتة مع أنّه تعالى لو أراد خلقها في لحظةٍ لفعل لأنّه على كلّ شيءٍ قدير علىٰ قولين:

**أحدهما**: أنّ في إظهارهما كذلك مصلحة للملائكة و عبرة لهم.

**الثّانى**: لما فيه من الإعتبار اذا أخبر عنه بتصرّف الحال كما صرّف اللّه الإنسان من حالٍ الى حالٍ لأنّ ذلك أبعد من توّهم الإتّفاق فيه.

و في المقام قول ثالث، و هو أنّه تعالى أراد أن يعلم العباد الرِّفق و التّثبت في الأمور و لتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيءٍ و أمّا كيفيّة خلق السّموات و الأرض فقد تكلّمنا فيها سابقاً بقدر وسعنا واللّه تعالى أعلم بحقيقة الحال.

**الثّانية**: قوله **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** الإستواء الإستيلاء بإنشاء التّدبير كما يستوي الملك على سرير ملكه بالإستيلاء على تدبيره قال الشّاعر:

ثمّ إستوىٰ بشرٌ على العراق  من غير سيفٍ ودمٍ مهراقٍ

و قوله: **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** فالتّدبير تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها مأخوذ من الدّبر فتجري على أحكام الدّابر في البارئ.

**و إعلم** أنّ **العَرش** بفتح العين و سكون الرّاء في الأصل شيٌّ سقّف وجمعه عروش.

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**[1].

و منه قيل عرشت الكرم و عرشته اذا جعلت له كهيئة السّقف و قد يقال لذلك المعرش.

قال اللّه تعالىٰ: **وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَ جَنَّٰتٍ مَعْرُوشَٰتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**[3].

---

١- البقرة =٢٥٩  ٢- الأنعام =١٤١

٣- الأعراف =١٣٧

و سمّي مجلس السّلطان عرشاً إعتباراً بعلّوه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**[٢].

اذا عرفت معنى العرش و موارد إطلاقاته بحسب العرف فنقول:

أنّ عرش اللّه ممّا لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالإسم و ليس كما تذهب اليه أوهام العامّة فأنّه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالىٰ عن ذلك لا محمولاً و اللّه تعالىٰ يقول:

**إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**[٣].

فقال قوم هو الفلك الأعلى و الكُرسي فلك الكواكب و قيل أنّ العرش في حقّه تعالىٰ هو إشارة الى مملكته و سلطانه لا الى مقرٍّ له يتعالىٰ عن ذلك.

و في بعض الأخبار، قلب المؤمن عرش الرَّحمٰن، و كيف كان لا شكّ عند العلماء أنّ العرش بالمعنى اللُّغوي أو المتعارف عند العوام لا يمكن إطلاقه على عرش الرّحمٰن لتّنزهه تبارك و تعالى عن كونه في المكان أو في جهةٍ من الجهات.

قال القُرطبي في تفسيره عند قوله تعالىٰ:

**إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ**[٤].

ما هذا لفظه و الأكثر من المتقدّمين و المتأخّرين أنّه اذا وجب تنزيه البارئ سبحانه عن الجهة و التّخير فمن ضرورة ذلك و لواحقه اللاّزمة عليه عند عامّة العلماء المتقدمين و قادتهم من المتّأخرين تنزيهه تبارك و تعالىٰ عن الجهة

١- يوسف =١٠٠
٢- النّمل =٣٨
٣- فاطر =٤١
٤- الأعراف =٥٤

فليس بجهة فوقٍ عندهم لأنّه يلزم من ذلك عندهم متى إختصّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيّزٍ و يلزم على المكان و الحيّز الحركة و السّكون للمتّحيز و التّغيّر و الحدوث هذا قول المتكلّمين و قد كان السّلف الأوّل لا يقولون بنفي الجهة و لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم و الكافّة بإثباتها للّه تعالىٰ كما نطق كتابه و أخبرت رسله و لم ينكر أحدٌ من السّلف الصّالح أنّه إستوى على عرشه حقيقةً و خصّ العرش بذلك لأنّه أعظم مخلوقاته و أنّما جهلوا كيفيّة الإستواء فأنّه لا تعلم حقيقته.

قال مالك، الإستواء معلوم يعني في اللّغة و الكيف مجهول و السّؤال عن هذا بدعة و كذا قالت أمّ سلمة و هذا القدر كافٍ و من أراد زيادةً عليه فليقف عليه في موضعه انتهىٰ كلامه.

**وأنا أقول** ما ذكره أوّلاً و نسبه الى المتكملّين لا كلام لنا فيه فأنّه قد ثبت عقلاً و نقلاً كونه تعالىٰ منزّهاً عن الجهة و المكان فليس له عرش بالمعنى المتعارف عند النّاس.

و أمّا ما نقله عن السّلف الصّالح بزعمه من أنّه تعالى إستوى علىٰ عرشه حقيقةً و أنّهم لم يقولوا بنفي الجهة عنه تعالى فهو كفرٌ محض و القائل به خارج عن حوزة الإسلام اللّهم إلاّ أن يقال أنّ السّلف الصّالح لم يفهموا و لم يعلموا ما يقولون و هو أمرٌ أخر.

**إن قلت** فما معنىٰ قوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** قلت معناه إستولى عليه لتدبير أمور مملكته و يدّل عليه قوله يدّبر الأمر.

**المسألة الثّالثة:** قوله **مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** و هذا ممّا لا كلام لأحدٍ فيه و قد مرَّ الكلام في الشّفاعة و أنّها لا تكون إلاّ بإذنه تعالىٰ عند قوله: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**[1].

١- البقرة =٢٥٥

**المسألة الرّابعة:** قوله **ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ** ذلكم إشارة الىٰ ما مرَّ ذكره و بيانه أي أنّ الّذي خلق السّموات و الأرض في ستّة أيّام ثمّ إستوى على العرش الى أخره ذلكم اللّه ربّكم فأعبدوه و الفاء للتّفريع أي فهو الّذي يستحقّ العبادة لا غيره ممَّن لا يقدر علىٰ شيءٍ و اليه الإشارة بقوله: **أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ** الإستفهام للتّوبيخ ففيه حثٌّ على التذّكر و التّفكر و على تعرّف صحّة ما أخبرهم به.

قال بعضهم أنّما ذكر الشّفيع في الآية و لم يجر له ذكر لأنّ المخاطبين بذلك كانوا يقولون الأصنام شفعاؤهم عند اللّه كما سيأتي فقال تعالىٰ: **مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** ثمّ قال في أخر كلامه، أفلا تذّكرون، أشار بذلك الىٰ أنَّ الأصنام التّي لا تعقل فكيف تكون شافعة مع أنّه لا شفيع عنده إلاّ من إرتضاه اللّه.

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ الرّب الّذي ينبغي أن يعبد هو الموصوف بهذه الصّفات و أمّا غيره كائناً ما كان فهو مخلوق مثلكم مردودٌ اليكم و العقل السّليم لا يحكم بعبادة المخلوق لمخلوقٍ أخر مثله ثمّ أعقب الكلام بقوله:

**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا**

أي الى الرّب الموصوف بالصّفات المذكورة مرجعكم جميعاً أي يرجع اليه جميع النّاس موّحداً كان أم غيره وعَد اللّه حقّاً، مصدر أن أي وعد اللّه ذلك وعداً و حقّقه حقّاً صِدقاً لا خلف فيه و من أصدق مِن اللّه قيلاً.

**إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** و هذا هو الوعد الّذي وعده و حقّقه حقّاً أي وعد اللّه حقّاً أنّه يبدأ الخلق ثمّ يعيده أي هو الذّي أنشأ الخلق إبتداءً و هو الّذي يعيدهم بعد موتهم النّشأة الأخرى و فيه إشارة الى أنّه تعالىٰ قادرٌ على الإعادة كما كان قادراً على الإبتداء مع أنّ الإبتداء أصعب و أشكل من الإعادة إرجاع الشّيء الى ما كان عليه فهو مسبوقة بالوجود بخلاف الإبتداء فأنّه إيجاد

الشّئ بعد أن لم يكن موجوداً و من المعلوم أنّ إخراج الشيى من ورطة العدم المحض الى الوجود أصعب من إرجاع الموجود الى ما كان عليه من الوجود مع بقاء المادّة الأصّلية كما ستعرف تفصيل الكلام في هذه المباحث في أواخر الكتاب إن شاء اللّه تعالىٰ.

و حيث كانت هاهنا فطّنة سؤالٍ و هو أنّه ما الفائدة في الإعادة فقال تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ** واللاّم في قوله: **لِيَجْزِيَ** للغاية أو للعلّة فعلىٰ الأوّل يكون الجزاء غاية للإعادة.

و على الثّاني هو علّة و سبب لها و على التّقديرين معنى الكلام واضح أنّ اللّه تعالىٰ يعيد الخلق ليجزيهم بما عملوا في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍّ فيجزي الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات بالقسط و العدل أي أنّ العدل الّذي هو وضع الشّئ في محلّه يقتضي أن يجزي النّاس علىٰ أعمالهم **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** أي أنّ الّذين أنكروا التّوحيد و النبّوة و جحدوا بآيات اللّه لهم شرابٌ من حميم، و هو الّذي أسخن بالنّار أشدّ إسخانٍ و عذابٌ أليم أي مولم بما يكفرون أي بسبب كفرهم إشارة الى أنّ هذا الجزاء ليس خارجاً عن القسط و العدل بل هو عين العدل لأنّ السيّئة لا تجزى إلاّ بمثلها فالسّبب فيه هو الكفر و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد.

**هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** في الآية مسائل.

**الأولىٰ**: قوله **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** أي أنّ اللّه تعالى جعل الشّمس و القمر كذلك لا غيره و يستفاد منه الحصر لأنّ تقديم المسند اليه أعني به (هو) يفيد الحصر لا ترىٰ أنّ قول القائل هو القائم يفيد حصر القيام فيه بخلاف قوله هو و كذلك في المقام فأنّه تعالىٰ مال هو الّذي

فعل كذا أو كذا معناه أنّ غيره لا يقدر عليه فقوله: **جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** معناه إنحصار الفعل فيه و هو المطلوب، **والجَعل** بفتح الجيم و سكون العين و اللاّم في إصطلاح الفلاسفة على قسمين، بسيطٌ و مرّكبٌ، و البسيط عبارة عن إيجاد الشّئ و المرّكب عبارة عن إيجاد الشّئ شيئاً آخر و توضيحه إجمالاً هو أنّ الوجود ينقسم الى الوجود الرّابط و الى الوجود النّفسي أي أنّه رابطٌ و نفسيٌ، فالجعل البسيط ما كان متعلّقة الوجود النّفسي و الجعل المرّكب و قد يعبّر عنه بالتّأليفي ما كان متعلّقة الوجود الرّابط فأنّ الأوّل جَعل الشّئ و إضافة نفس الشّئ و بلسان الأدباء الجعل المتعدّي لواحدٍ.

**والثّاني**: و هو المرّكب عبارة عن جعل الشّئ شيئاً و الجعل المتعدّي لأثنين و هذا الجعل أعني به المؤّلف أو المرّكب يختصّ بالعرضيّات المفارقة لخلّو الذّات عنها و لا يتصّور بين الشّئ و نفسه و لا بينه و بين ذاتياته و لا بينه عوارضه اللاّزمة كالإنسان إنسان و الأربعة زوج و الإنسان حيوان لأنّها نسب ضرّورية و أنّما قالوا ذلك لأنّ ثبوت الشّئ لنفسه و ذاتّياته ضرّوري و سلبه عن نفسه و هكذا سلب ذاتّياته عنه محال فأنّ الإنسانيّة للإنسان و الحيوانيّة له و الزّوجية للأربعة و الفرّدية للثلاثة و الرّطوبة للماء و هكذا ضرّوريٌ لا يمكن سلبها عنه و الى هذا المعنى أشار الشّيخ الرّئيس أبو علي سينا، حيث قال ما جعل اللّه المشمش و لكن أوجده.

و أنّما قال ذلك لأنّالمشمشيّةللمشمش ضرّوري لا يمكن سلبها عنه فهو أي المشمش غير قابل للجعل التّأليفي فلا محالة يكون مجعولاً بالجعل البسيط أعني به صرف الإيجاد لا جعل الشّئ شيئاً أخر اذا عرفت معنى الجعل فنقول:

قوله: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** أن قلنا أنّ الضّوء لِلشّمس و النُّور للقمر ذاتّيٌ لهما بحيث لا يمكن مفارقتهما عنهما كالزّوجية للأربعة و الفرّدية للثّلاثة فهما مجعولان بالجعل البسيط و المعنى أنّ اللّه أوجد الشّمس والقَمَر.

**و إن قُلنا** بأنّ الضَّوء مثلاً من العوارض المفارقة للشّمس و ليس ذاتيّاً لها فهي أي الشّمس مجعولة بالجعل المرّكب أي أنّ اللّه تعالىٰ أوجد الشّمس و جعلها ذات ضياء و القمر ذا نورٍ و بعبارةٍ أخرى جعل الشّمس مضيئة و القمر منيراً و عليه فالاضاءة لها من إفاضات الجاعل الموجد لا من ذاتها والّذي يؤدّي اليه النّظر هو أنّ الجعل في الآية تركيبيّ تأليفي لأنّ اللّه تعالى يقول: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً** و فيه إيماء الى أنّ الضَّوء ليس عين الشّمس و لا من ذاتيّاتها اذ لو كان كذلك لقال هو الّذي جعل الشّمس و القمر و لم يقل ذلك.

ألا ترىٰ أنّه لا يقال هو الّذي جعل الإنسان إنساناً و يقال هو الّذي جعل الإنسان ضاحكاً، ماشياً متكلّماً و هكذا و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ خلق الشّمس و أفاض عليها الضَّوء و خلق القمر و أفاض عليه النُّور و لو بالإكتساب مِن الشّمس فهو من جعل الشّئ شيئاً أخر و هو اطلوب.

و الشَّمس يقال للقرصة و للضَّوء المنتشر عنها و القمر معلومٌ واللّه تعالىٰ أثبت للشّمس ضياءً و للقمر نوراً.

**والضّياء** بكسر الضّاد جمع **ضَوء** بفتحها مثل سوط و سياط و حوض و حياض و روض و رياض أو مصدر **ضاء ضَوءً وضياءً** مثل قام يقوم و قياماً و صام يصوم و صياماً.

ثمّ أنّ الضَّوء في الأصل ما إنتشر من الأجسام النَّيرة يقال ضاءت النّار و أضاءت و أضاءها غيرها.

قال اللّه تعالىٰ: **يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ**[٣].

---

١- البقرة =٢٠ ٢- البقرة =١٧

٣- القصص =٧١

والنُّور بضّم النّون الضَّوء المنتشر الذّي يعين على الإبصار و هو على ضربين معقولٌ و محسوس.

**فالأوّل**: كنُور العقل ونُور القرأن ونور العلم قال عليه السلام العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء.

**والثّانى**: ما إنتشر من الأجسام النَّيرة كنور القمر و النّجوم و النَّيرات و هذا هو المراد به في المقام فأنّ نور القمر من الأنوار المحسوسة و عليه فيصير معنىٰ الكلام هو الَّذي جعل الشّمس ذات ضياء و القمر ذا نورٍ و قد ثبت أنّ القمر يكتسب نور من الشّمس فهو في حدّ ذاته لا نور له و لعلَّه لذلك أثبت الضّياء لها و النُّور له أي أنّ الضَّوء المنتشرة في الشّمس حيث أنّه من ذات الشّمس فيعبّر عنه بالضّياء و أن لم يكن كذلك فهو نُور.

و قال الرّازي إعلم أنّ النُّور كيفيّة قابلة للأشدّ و الأضعف فأنّ نور الصّباح أضعف من النّور الحاصل في أوّل النّهار قبل طلوع الشّمس و هو أضعف من النّور الحاصل في أفنية الجدران عند طلوع الشّمس و هو أضعف من النّور السّاطع من الشّمس على الجدران و هو أضعف من الضّوء القائم بجرم الشّمس فكمال هذه الكيفيّة المسمّاة بالضَّوء أقوى من الكيفيّة القائمة بالشّمس فهو من مواقف العقول.

و إختلف النّاس في أنّ الشّعاع الفائض من الشّمس هل هو جسم أو عرض و الحقّ أنّه عرض و هو كيفيّة مخصوصة و اذا أثبت أنّه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشّمس أو لأجل أنّ اللّه تعالىٰ أجرى عادته بخلق هذه الكيفيّة في الأجرام المقابلة لقرص الشّمس على سبيل العادة فهي مباحث عميقة و أنّما يليق الإستقصاء فيها بعلوم المعقولات و اذا عرفت هذا فنقول:

النُّور إسمٌ لأصل هذه الكيفيّة و أمّا الضَّوء فهو إسم لهذه الكيفيّة اذا كانت كاملة تامّة قوّية و الدّليل علىٰ أنّه تعالى سمّى الكيفيّة القائمة بالشّمس ضياءً و

الكيفيّة القائمة بالقَمر نوراً و لا شكّ أنّ الكيفيّة القائمة بالشّمس أقوى و أكمل من الكيفيّة القائمة بالقمر انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** أمّا قوله أنّ النُّور كيفيّة قابلة للأشدّ و الأضعف فهو متين و لا كلام لنا فيه لإتّفاق الفلاسفة عليه.

قال السّبزواري في المنظومة:

مراتباً غنىً و فقراً تختلف كالنُّور حيثما يقوّي وضعف

و أمّا قوله أنّ الشّعاع الفائض من الشّمس عرض فهو مردودٌ و قد ثبت خلافه في هذا العصر بدَليلٍ قاطع و البحث فيه خارج عن موضوع الكتاب.

و قوله النُّور إسمٌ لأصل هذه الكيفيّة و الضَّوء إسمٌ لها اذا كانت كاملة قوّية، يحتمل أن يكون صحيحاً إلاّ أنّا لم نسمع هذا الكلام من غيره فلعلَّه من إستخراجاته و إستظهاراته و لا إشكال فيه أن ساعده الدّليل و عليه فالفرق بين الضَّوء و النُّور بالشدّة و الضّعف و حيث أنّ النُّور في الشّمس أقوى و أكمل فسُمّي بالضّياء و في القمر أضعف فسمّي بالنُّور فالفرق بينهما بالشدّة و الضّعف و الكمال و النَّقص و كيف كان ففي الآية دلالة قوّية على التّوحيد فأنّ القادر على هذا الخلق و الجعل منحصرٌ به فهو اللّه الّذي لا إله إلاّ هو.

و أمّا قوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ** أي و قدَّر مسيره منازل و قيل المعنىٰ قدَّره ذا منازل و إختلفوا في الضّمير في، قدَّره علىٰ قولين:

**أحدهما**: أنّه يرجع الى كلّ واحدٍ من الشّمس و القمر و وحيد الضّمير للإيجاز و إلاّ فهو في معنى التّثنية إكتفاءً بالمعلوم لأنّ عَدد السّنين و الحساب أنّما يعرف بسير الشّمس و القمر نظيره قوله تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**[1].

١- التوبة = ٦٢

**ثانيهم**: أنّه يرجع الى القمر و حده لأنّ بسير القمر تعرف الشّهور لأنّها مبنيّةٌ على رؤية الأهلّية و السّنة المعتبرة في الشّريعة هي الشّسّنة القمّرية كما قال تعالىٰ: **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ**[1] و هذا هو الأقوى في النّظر و أوفق بسياق النّظم و الأدب، و فيه إشارة الىٰ أنّ المقدّر هو اللّه تعالى أي أنّ اللّه جعله كذلك و تقدير اللّه الأشياء على وجهين:

**أحدهما**: بإعطاء القدرة.

**الثّاني**: بأن يجعلها على مقدارٍ مخصصو و وجهٍ مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة و ذلك أنّ فعل اللّه ضربان:

ضربٌ أوجده بالفعل بأن أبدعه كاملاً دفعةً بحيث لا تعتريه الزّيادة و النّقصان الى أن يشاء أن يفنيه أو يبدّله كالسّموات و ما فيها.

و ضربٌ جعل أصوله موجوده بالفعل و أجزاءه بالقوّة و قدّره على وجهٍ لا يتّأتى منه غير ما قدّره فيه كتقديره في النّواة أن ينبت منها النّخل دون التّفاح و الزّيتون و تقدير منّي الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات فتقدير اللّه تارةً بالحكم منه أن يكون كذا و لا يكون كذا أمّا على سبيل الوجوب و أمّا على سبيل الإمكان و على ذلك قوله: **قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**[2].

و تارةً بإعطاء القدرة عليه و منه قوله تعالىٰ: **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ**[3].

اذا عرفت هذا فقوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ** ليس من إعطاء القدرة للقمر بل هو من القسم الثّاني أعني جعله على مقدارٍ مخصوصٍ و وجهٍ مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة فيه، و المنازل هي البروج و كانت العرب تَنسب اليها الأنواء و هي ثمانية و عشرون منزلة الشّرطين و البطين و الثّريا و الدّبران و الهقعة و الهنعة و الذّراع و النّثرة و الطّرف و الجبهة و الدّبرة و الصّرفة و العَواء،

١- التوبة = ٣٦
٢- الطّلاق =٣
٣- المُرسلات =٢٣

و السّمالك و الغفر و الزّبانان و الإكليل و القلب و الشّولة، و النّعائم و البلدة، و سعد الذّابح، و سعد بلغ، و سعد السّعود، و سعد الأخبتية، و الفرع المؤخّر، و الرّشاء و هو الحوت.

**لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ**

و اللاّم متعلّق بقوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ** أي قدّره فيها لتعلموا عدد السِّنين و ذلك لأنّ السّنين جمع سنة و كلّ سنةٍ أثني عشر شهراً و أن شئت قلت معرفة السّنة تتوقّف على معرفة الشّهور و الشّهر لا يوجد إلاّ بعد رؤية الهلال فلولا وجود القمر لم يعرف الشّهر و لم يعرف السّنة و هذا معلوم لا يحتاج الى مزيد بيان و منه يعرف أنّ الحساب أيضاً يتوقّف على الشّهر كالسّنة فلولا الشّهر و لا سّنة لم يعرف الحساب أصلاً.

**مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**

و المعنى ما خلق اللّه الشّمس و القمر و ما قدّر فيهما إلاّ بالحقّ يفصّل الأيات أي يميز بعضها من بعضٍ لقوم يعلمون و يصّح منهم الإستدلال دون البهائم و من لا عقل له كالمجنون و ذلك لأنّ العاقل يعلم ما فيهما من الفوائد والمنافع التّي لا يمكن التّعيش بدونها فالشّمس سلطان النّهار و القمر سلطان اللّيل و بسبب وجود الشّمس تنقسم السّنة الى الفصول الأربعة و بها تنتظم مصالح هذا العالم و بحركة القمر تحصل الشّهور و السّنين و الحساب و بالحركة اليّومية تحصل النّهار و اللّيل فالنّهار للتّكسب و الطّلب و اللّيل يكون زماناً للنّوم و الرّاحة و كلّ ذلك يدّل على كثرة رحمة اللّه على الخلق و عظم عنايته بهم.

و حيث قد ثبت في موضعه أنّ الأجسام متساوية فكلّ جسم بشكله المعيّن و وضعه المعيّن و حيّزه المعيّن و صفته المعيّنة و أثاره المختلفة ليس إلاّ بتدبير مدّبرٍ حكيم رحيم قادرٍ قاهرٍ و به يظهر أنّ جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم أنّما هو بسبب حركات الأفلاك و الأثار المترتّبة عليها بتدبير خالقها المدّبر الحكيم سبحانه و تعالى و هو المطلوب.

**إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**

قالوا الإختلاف ذهاب كلّ واحدٍ من الشّيئين في غير جهة الأخر و عليه فإختلاف اللّيل و النّهار ذهاب أحدهما في جهة الضّياء و الأخر في جهة الظّلام و لا شكّ أنّ جهة الضّياء غير جهة الظّلام و اللّيل جمع ليلة كتمر و تمرة و هو عبارة عن إبتداء غروب الشّمس الى طلوع الفجر الثّاني كما أنّ النّهار عبارة عن إتّساع الضّياء من طلوع الفجر الثّاني الى غروب الشّمس و هو و اليوم بمعنى واحد.

**وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**

أصل الخلق التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ إحتذاءٍ و قد يستعمل في إيجاد الشّئ من الشّي.

**فَمِن الأوّل** قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**[١].

**من الثانى** قوله: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَٰلَةٍ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا**[٥].

و غيرها من الأيات و ليس الخلق بالمعنى الأوّل و هو الإبداع إلاّ لِلّه تعالى.

و أمّا الخَلق بالمعنى الثّاني و هو إيجاد الشّئ من الشّئ فلا يختصّ به تعالىٰ

١- البقرة= ١١٧
٢- الأعراف =١٨٩
٣- النّحل =٤
٤- المؤمنون =١٢
٥- الفرقان =٥٤

و الى الفرق بين الخلقين أشار اللّه تعالى بقوله: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[١] أي أفمن لا يخلق كذلك.

و أمّا الخَلق الّذي يكون بالإستحالة فقد جعله اللّه لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ بِإِذْنِي**[٢] اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ** إشارة الىٰ الموجودات الّتي خلقها اللّه فيهما من الملائكة و الإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و الجنّ و غيرها ممّا يصدّق عليه المخلوق فأنّ في ذلك لأياتٍ لقومٍ يتّقون والآية العلامة و المعنى أنّ المخلوقات كلّها علامات للتّوحيد و معرفة الخالق للمتّقين كما قال الشّاعر:

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدّل علىٰ أنّه واحدُ

و أنّما خصَّ ذلك بالمتّقين لأنّهم هم المنتفعون بها دون غيرهم من الغافلين عن أسار التّوحيد و أمّا تفصيل الكلام فيما خَلق اللّه في السّموات والأرض فهو خارج عن قُدرة البشر و مع ذلك خارجٌ عن موضوع الكتاب قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[٣].

**وأنا أقول** كما أنّ النِّعم غير قابلة للإحصاء كذلك المخلوقات الموجودة غير قابلةٍ لنا للإحصاء و لا سيّما في النّباتات و الحيوانات و لذلك نرى في زماننا هذا كلّ يوم يكشف فيه ما كان مجهولاً عندهم قبل اليوم و أظنّ أنّ هذه السّيرة مستمّرةً الى أخر الدُّنيا هذا كلّه من جهة الإحصاء.

و أمّا من جهة أنّ المخلوق كائناً ما كان فهو أيةٌ و علامةٌ للتّوحيد و معرفة الخالق فالأمر فيها أوضح من أن يخفى على العاقل اللّبيب.

---

١- النحل = ١٧ ٢- المائدة = ١١٠

٣- ابراهيم = ٣٤

**إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ ٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ اٰيَاتِنَا غٰافِلُونَ**

اللِّقاء بكسر اللاّم الملاقاة و هو في الأصل مقابلة الشّئ ومصادفته معاً و قد يعبّر به عن كلّ واحدٍ منهما يقال لقيه لقاءً و يقال ذلك في الإدراك بالحسّ و بالبصر و بالبصيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَبًا**[٢].

و الحاصل أنّ اللّقاء و الملاقاة لا يختصّ بالحسّ أو بالبصر أو بالبصيرة بل يقال في مطلق الإدراك هذا ثمّ أنّ ملاقاة اللّه عزّ وجلّ عبارة عن المصير اليه يوم القيامة و اليه الإشارة بقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ مُلٰاقُوهُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلٰاقُوا ٱللّٰهِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلٰاقِيهِ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلٰاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**[٦].

اذا عرفت معنى اللِّقاء فنقول:

قال بعض المفسّرين أنّ الّذين لا يرجون لقاءنا، يحتمل أمرين:

**أحدهما**: لا يخافون عقابنا كما قال الهذلي:

اذا لسعته النّحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت ندب عواسل

**الثّاني**: معناه لا يطمعون في ثوابنا و منه قول الشّاعر:

أيرجو بنو مروانٍ سمعي وطاعتي وقومي تميمُ والفلاة وراءياً

١- أل عمران =١٤٣
٢- الكهف =٦٢
٣- البقرة =٢٢٣
٤- البقرة =٢٤٩
٥- الإنشقاق =٦
٦- البَقرة =٤٦

أي يطمع بنو مروان كذا و الحال أنّ قومي تميم الخ و عليه فالرّجاء يكون بمعنى الخوف و الطّمع أي لا يخافون عقاباً و لا يرجون أي لا يطمعون ثواباً، و جعل لقاء العذاب و الثّواب لقاء اللّه تفخيماً لهما.

قال القُرطبي و قيل يجري اللّقاء على ظاهره و هو الرُّؤية أي لا يطمعون في رؤيتنا.

**أقول** هذا الّذي ذكره القرطبي من حمل اللّقاء على ظاهره و هو الرّؤية فهو على مسلكه و مذهبه من أنّ اللّه تعالىٰ سيرى يوم القيامة برؤية البصر مذهب أكثر العامّة و قد أقيمت الدّلائل على بطلان الرّؤية في حقّه تعالى في الدّنيا و الأخرة عقلاً و نقلاً بما لا مزيد عليه كما سبق ذكره و بيانه و سيأتي البحث في هذا الباب بوجهٍ أبسط في موضعه إن شاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا قوله: **وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَطْمَأَنُّوا بِهٰا** فمعناه أنّهم قَنعُوا بالحياة الدُّنيا عن الأخرة، و إطّمأنوا بها، أي ركنوا اليها على وجه التّمكين فيه و من كان على هذه الصّفة فهو مذموم لإنقطاعه بها عن الواجب من أمر اللّه.

و الوجه فيه هو أنّ الحياة الدّنيا فانية زائلة و الحياة بعد الموت باقية دائمة لا زوال فيها و لا شكّ أنّ الباقي خير من الفاني فمن رجّح الفاني على الباقي فهو مذمومٌ.

**ثانياً**: أنّ الحياة الدُّنيوية محفوفة بالألام و الهموم و حياة الأخرّوية محفوفة بالسّرور لا ألم فيها و لا غمّ و لا همّ، فمن رجّح المحفوفة بالهموم و الألام على المحفوفة بالسّرور و اللّذات فهو مذموم و اذا كان كذلك فكيف يطّمئن العاقل بما لا بقاء له و لا لذة فيه بل هو بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و يترك الحياة الدّائمة الّتي لا بلاء فيها و لا فناء و قد ذمّ اللّه تعالى الدّنيا و حياتها و مدح الأخرة و بقاءها في كثير من الأيات فتارةً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا اَلْحَيٰوةُ اَلدُّنْيٰآ إِلّٰا مَتٰاعُ اَلْغُرُورِ**[1].

١- أل عمران =١٨٥

و تارةً يعبّر عنها باللّهو واللّعب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا اَلْحَيٰوةُ اَلدُّنْيٰآ إِلّٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَرِ اَلَّذِينَ اَتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيٰوةُ اَلدُّنْيٰا**[٢].

كما مدح الأخرة و الحياة فيها في كثير من الأيات أيضاً.

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَلدّٰارُ اَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ**[٣].

منها قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَتٰاعُ اَلدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ اَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اَتَّقىٰ**[٤].

منها قال اللّه تعالىٰ: **تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ يُرِيدُ اَلْاٰخِرَةَ**[٥].

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَدارُ اَلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ اَلْمُتَّقِينَ**[٦].

منها قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُونَ ظٰاهِرًا مِنَ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا وَ هُمْ عَنِ اَلْاٰخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ**[٧].

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ اَلْأُولىٰ**[٨].

و الأيات كثيرة جدّاً و اذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يرجّح العاقل الدّنيا علىٰ الأخرة و يطمئن بها و يغفل عنها و هذا من الواضحات.

و أمّا قوله: **وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ اٰيٰاتِنٰا غٰافِلُونَ** ففيه إشارة الىٰ الغافلين عن الأيات التّكوينية و التّشريعية الّتي تدلّ على وجود خالقها و أنّما ذكر هذا بعد قوله و رضوا بالحياة الدّنيا، لنكتة دقيقة و هي أنّ منشأ الغفلة عن الأيات و التدّبر فيها أنّما هو حبّ الدّنيا و إختيارها على الأخرة و الإطمئنان بها و من كان كذلك فلامحالة يكون غافلاً عن اللّه تعالى فضلاً عن أياته فأنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ و منشأ كلّ غفلةٍ و بالجملة فيه خسران الدّنيا و الأخرة أعذنا اللّه منه.

---

١- الأنعام =٣٢
٢- الأنعام =٧٠
٣- الأنعام =٣٢
٤- النّساء =٧٧
٥- الأنفال =٦٧
٦- النّحل =٣٠
٧- الرّوم =٧
٨- الضّحىٰ =٤

أُولٰئِكَ مَأْوىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

قيل الكاف في أُولئك حرف الخطاب مثل الكاف في قولهم أنا ذاك و لهذا لم يجز تأكيده و لا البدل منه و أولاء مبنّي على الكسر لتَّضمنه معنى الإشارة الى المعرفة و يستعمل هؤلاء لما قرب، و أولئك لما بعد كما تقول في هذا للقريب و ذاك للبعيد لأنّ ما بعد يقتضي التّعريف بالخطاب.

و أمّا ما قرب يكفي فيه التّنبيه و المعنى أولئك الّذين تقدّم وصفهم في الآية السّابقة أعني بهم الّذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدّنيا و غفلوا عن أياتنا، مأواهم النّار، أي مصيرهم اليها بما كانوا يكسبون، الباء للسَّبب أي بسبب ما كانوا يكسبون بأيديهم ففيه إشارة الى أنّهم بإختيارهم و إرادتهم و وقعوا فيما وقعوا فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد و من المعلوم أنّهم لو تابوا و رجعوا عمّا كانوا عليه يتوب اللّه عليهم و هو واضح.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءٰامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ

لمّا بيَّن اللّه تعالىٰ فيما مضى أنّ مصير أولئك الى النّار بيَّن في هذه الآية أنّ مصير المؤمنين الى الجنّة، فقال: (أنّ الّذين أمنوا باللّه و برسوله و عملوا الصّالحات) و فيه إشارة الى أنّ الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالعمل الصّالح فهو مشروط به و هو الحقّ خلافاً للعامّة حيث لم يشترطوا فيه العمل و قالوا أنّه يتحقّق بمجرّد الإعتقاد و قد تكلّمنا فيه سابقاً بما لا مزيد عليه و قلنا أنّ الآثار مترتّبة على الوجود الخارجي.

و أمّا الوجود الذّهني فلا يترتّب عليه شئ و الإيمان في الخارج يتحقّق بالعمل.

و أمّا قوله: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ فالباء للسَّبب أي يرشدهم ربّهم بسبب إيمانهم فالإرشاد منه تعالى بمنزلة الجزاء على الإيمان و قيل وصفهم بالهداية

جزاءٌ على إيمانهم به تعالى و تقدير الكلام يهديهم ربّهم بإيمانهم الىٰ الجنّة و ذلك لأنّ قوله: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ** يدّل على ما ذكرناه و يوضحه قوله: **فِي جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ و عليه** فالمعنى يهديهم ربّهم بسبب إيمانهم الىٰ الجنّة الّتي تجري من تحتها الأنهار الّتي فيها النّعيم يعني أنواع اللّذات و المنافع الّتي يتّنعمون بها فيها.

و قال صاحب الكشاف يهديهم ربّهم بإيمانهم، أي يسدّدهم بسبب إيمانهم للإستقامة على سلوك السّبيل المؤدّي الى الثّواب و لذلك جعل **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ** بياناً له و تفسيراً لأنّ التمسّك بسبب السّعادة كالوصول اليها و يجوز أن يريد يهديهم في الأخرة بنور إيمانهم الى طريق الجنّة انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** ما ذكره صاحب الكشّاف لا بأس به و يؤيده ما ورد في الأخبار الواردة عن أهل البيت مِن أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ يضّل الظّالمين يوم القيامة عن دار كرامته و يهدي أهل الإيمان و العمل الصّالح الىٰ جنّته كما قال تعالىٰ: **وَ يُضِلُّ ٱللّٰهُ ٱلظّٰالِمِينَ**[1].

و يفعل اللّه ما يشاء و قال عزّ وجلّ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءٰامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ.**

**دَعْوٰيٰهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ ٱللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلٰامٌ وَ ءٰاخِرُ دَعْوٰيٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ المؤمنين في جنّات النّعيم أشار في هذه الآية الىٰ دعاء المؤمنين للّه فيها و هو أنّهم يقولون، سبحانك اللّهم، معناه أنّا نسبّحك كقول القانت في دعاء القنوت اللّهم أيّاك نعبد و لك نصلّي و نسجد، هذا إذا قلنا بأنّ الدعّاء في قوله: **دَعْوٰيٰهُمْ** نداء اللّه و يتحمل أن يكون

۱- ابراهيم = ۲۷

الدّعاء بمعنى العبادة، كقوله تعالىٰ: **وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ**[1] أي ما تعبدون من دون اللّه و حيث لا تكليف في الجنّة فيكون ذلك على سبيل الإبتهاج و الإلتذاذ و أطلق عليه العبادة مجازاً أو أنّ عبادتهم فيها تسبيح و تحميد و قوله و تحيتهم فيها سلام.

قيل التّحية مأخوذة من قولهم أحياك اللّه حياةً طيّبةً و المعنى تحيّة بعضهم لبعضٍ فيها سلامٌ، أي سلمت و آمنت ممّا إبتلىٰ به أهل النّار و آخر دعوايهم أي خاتمة دعوايهم فيها الحمد للّه ربّ العالمين.

و (أن) هي المُخفّفة من الثّقيلة و الميم في اللّهم بمعنىٰ، يا، كأنّه قال يا اللّه، و حَقٌّ لهم أن يختموا دعائهم بذلك لأنّهم إذا مرَّ بهم الطَّير يشتهونه قالوا سبحانك اللّهم، فيؤتون به فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا الحمد للّه ربّ العالمين.

■



١- مريم = ٤٨

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ
لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ
مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ
بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَاتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا
يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ
شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُۥ وَ

تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَ مَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَ يَقُولُونَ لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

## ◀ اللّغة

فِي طُغْيَانِهِمْ، الطّغيان بضمّ الطّاء تجاوز الحدّ في العصيان.

يَعْمَهُونَ العمه التردّد في الأمر من التّحير.

ٱلضُّرُّ بضمّ الضّاد سوء الحال إمّا في نفسه و أمّا في بدنه.

لِجَنْبِهِۦٓ بفتح الجيم في الأصل الجارحة و جمعه جنوب.

خَلَٰٓئِفَ بفتح الخاء جمع خَليفة، و خُلفاء جمع خَليف.

## ◀ الإعراب

ٱلشَّرَّ مفعول يعجل و ٱسْتِعْجَالَهُمْ تقديره تعجيلاً مثا إستعجالهم فحذف المصدر وصفة المضافة و أقيم المضاف اليه مقامهما و قيل هو منصوب بتقدير حرف الجرّ أي كأستعجالهم و هو بعيد إذ لو جاز ذلك لجاز زيد غلام عمرو أي كغلام عمروٍ فَنَذَرُ هو معطوف على فعلٍ محذوف تقديره و لكن نمهلهم فنذر لِجَنْبِهِۦٓ في موضع الحال أي دعاناًمضجعاً و مثله قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا وقيل العامل في هذه الأحوال هو، مسَّ، كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَآ في موضع الحال من الفاعل في، مرَّ، مِنْ قَبْلِكُمْ متّعلق بأهلكنا وليس بحالٍ من القرون لأنّه زمان و جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يجوز أن يكون حالاً أي و قد جاءتهم و يجوز أن يكون معطوفاً على، ظلموا.

## ◄التّفسير

**وَ لَوْ يُعَجِّلُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَلشَّرَّ اَسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**

كلمة لَو شرّطية و جوابها، لقضي اليهم أجلهم و قرأ إبـن عـامر و يـعقوب، لقضى اليهم، بفتح القاف و الباقون بضمّها على ما لم يسمّ فاعله، و الشَّر و الخير ضدّان، و الشَّر يقال لما يرغب عنه الكلّ كما أنّ الخير هـو الّـذي يَـرغب فـيه الكلّ فالجهل و الظّلم و الخيانة و الكذب و أمثالها شرور، و العـلم و الأمـانة و العدالة و الصِّدق و أمثالها خيرات، ثمّ أنّ الخير مطلق و هـو أن يكـون مـرغوباً فيه بكلّ حالٍ و عند كلّ واحدٍ كما وصف عليه السّلام بـه الجنّة فـقال لا خـير بخير بعده النّار و لا شرّ بشَّرٍ بعد الجنّة و قد يكونان مقيّدان و هو أن يكون خيراً لواحدٍ و شرّاً لآخر كالمال الّذي ربمّا يكون خيراً لزيـد و شـرّاً لعـمرو و لذلك وصفه اللّه تعالى بالأمرين فقال في موضع:

**اَلْمٰالُ وَ اَلْبَنُونَ زِينَةُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا**(١).

و قال في موضع آخر.

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ نُسٰارِعُ لَهُمْ فِي اَلْخَيْرٰاتِ**(٣).

ثمّ أنّ الخير يقابل به الشّر مرّةً والضرّورة أخرىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلّٰا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**(٤)

إذا عرفت معنىٰ الخير و الشَّر فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية.

---

١- الكهف = ٤٦
٢- الانفال = ٢٨
٣- المؤمنون = ٥٥/٥٦
٤- الأنعام=١٧

**وَ لَوْ يُعَجِّلُ ٱللّٰهُ لِلنّٰاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ**

قيل في معناه أي ما يدعون به مِن الشّر على أنفسهم و أولادهم في حال ضجرٍ و بطرٍ و شدّةٍ لو يعجّل اللّه تعالى لهم العقوبة كما يستعجلون الثّواب و الخير لماتوا و بعبارةٍ أخرىٰ دعاء الإنسان لا يخلو إمّا أن يدعو بخيرٍ و أمّا أن يدعو بشّرٍ في الحالين يطلب من اللّه الإجابة و لكنّ اللّه يؤّخر إجابة الشّر و يسرع في إجابة الخَير و ذلك لمصلحةٍ ذكرها في الآية و هو أنّه تعالى لو عَجَّل لهم العقوبة في دعاء الشّر كما يعجلّ في جانب الخير **لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ** و إنقضاء الأجل كنايةٌ عن الموت أي لو كان الإستعجال في المقامين علىٰ حدٍّ سواء لماتوا.

قال بعض المفسّرين أنّه خاّص بالكافر أي و لو يعجّل اللّه للكافر العذاب على كفره كما عجَّل له خير الدنيّا من المال و الولد لعجَّل له قضاء أجله ليتعجّل عذاب الأخرة.

و قال مقاتل هو قول النضّر بن الحارث: **اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ ٱلسَّمٰآءِ**[1] و قال مجاهد نزلت في الرّجل يدعوا على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب، اللّهم أهلكه، اللّهم لا تبارك له فيه و ألعنه أو نحو هذا فلو أستجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي اليهم أجلهم فالآية نزلت ذامّةً لخلقٍ ذميم هو في بعض النّاس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثمّ يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدّعاء في الشّر فلو عجلّ لهم لهلكوا.

قال بعضهم التعجيل من اللّه و الإستعجال من العبد.

و قال أبو علّي هما من اللّه و فى الكلام حذف أي و ليعجّل اللّه للنّاس الشّر تعجيلاً مثل إستعجالهم بالخير، ثمّ حذف تعجيلاً و أقام صفة مقامه ثمّ حذف

١- الأنفال=٣٢

صفة و أقام المضاف اليه مقامه **فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** معناه نترك الّذين لا يخافون لقاءنا أو لا يطمعون فيه بمعنى أنّهم لا يخافون عقاب معاصينا و لا يطمعون في ثواب طاعتنا في طغيانهم يعمهون، الطُّغيان الغُلو و تجاوز الحدّ في ظلم العباد و العمه الحيرة و التّردد و المعنى نتركهم في طغيانهم يتّحيرون و أنّما نتركهم ليتوبوا من ذلك

و قيل المعنى نتركهم في الأخرة يتّحيرون في جزاء طغيانهم.

**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ**

**المَّس** بفتح الميم كاللَّمس وزناً و معنىً لكنّ اللَّمس قد يقال لطلب الشّيْ و أن لم يوجد و المسّ يقال فيما معه إدراك بحاسّة اللَّمس و كنّي به عن النكاح.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مٰا فَرَضْتُمْ**[1].

وكنيّ به عن الجنون فى.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ**[2].

والمسّ يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى

قال اللّه تعالىٰ: **مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَ ٱلضَّرَّآءُ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**[4].

**والضُّر** بضمّ الضّاد سوء الحال و هو إمّا فيِ نفسه لقلّة العلم و الفضل و العفّة.

و إمّا في بدنه لعدم جارحةٍ أو نقصٍ منه.

و أمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّة مالٍ و جاهٍ و الضُّر في المقام محتمل للأقسام الثّلاثة.

---

١- البقرة=٢٣٧
٢- البقرة=٢٧٥
٣- البقرة=٢١٤
٤- القَمَر=٤٨

فقد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال الإنسان إذا ناله الضُّر أيُّ ضرٍّ كان و عن قلّة صبره في المكروهات الواردة عليه سواء كان قائماً أو قاعداً إذا أطاقه أو على جنبه من شدّة المرض فهو في هذه الحالة يجتهد في الدعّاء فيدعو اللّه و يطلب منه العافية و أنّما غرضه في ذلك زوال ما هو فيه من الالام و ليس غرضه نيل الثّواب للأخرة فإذا كشف ذلك الضُّر و أعطاه العافية مرَّ معرضاً عن شكر ما وهبه اللّه من العافية و لا يتّذكر ما كان من الآلام و صار في ذلك بمنزلة من لم يدع اللّه كشف ألمه و لا سأله إزالة الضَّرر عنه الّذي كان به **كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** و المزّين لهم هو الشّيطان أي أنّه زيّن لهم أعمالهم السيّئة ،و إغواءهم بها و بترك شكر نعم اللّه الّذي يجب على المنعم عليه عقلاً و شرعاً.

و المقصود من الآية أنّه ينبغي لمن وهب اللّه له العافية بعد المرض أو الفقر أو مطلق الشّدة أن يتّذكر حسن صنع اللّه اليه فيشكره على ذلك فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و مع ذلك فيه تنبيهٌ على أنّه يجب عليه الصّبر في الشدّائد و الآلام و ترك الجزع عند إحتساب الأجر و طلب الثّواب في الصَّبر على ذلك و أن يعلم أنّ اللّه محسنٌ اليه بذلك و ليس بظالم له أعاننا اللّه عليه هذا كلّه بمقتضى ظاهر الآية بالنسبة الى الضُّعفاء و المتّوسّطين من المؤمنين المؤمن الحقيقي الّذي وصل الى مقام الرّضا و التسليم فهو يعلم أنّ ما قدرّه اللّه له من الصحّة و المرض و الفقر و الغنّى و الشّدة و الرّخاء كلّ ذلك بمقتضى مصلحته و حكمته و أنّه لا يحبّ للعبد إلاّ ما هو خير له و أن كان العبد، جاهلاً له.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اَللّٰهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**[2].

١- البقرة=٢١٦ ٢- النّساء=١٩

و محصّل الكلام أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعيّة و لا فرق في ذلك بين الأحكام الشرعيّة من الأوامر و النواهي و غيرها من المقدّرات المعلوم أنّ العلم بالمصالح و المفاسد مختص به تعالى.

و أيضاً لا شكّ أنّ اللّه تعالى رؤوفٌ بعباده كما وصف نفسه بذلك في كثير من الأيات و إذا كان الأمر على هذا المنوال فهو بمقتضى علمه و رأفته لا يحكم بما فيه مفسدة في حقّ العبد كما أنّه لا يظلم عليه أبداً و عليه فكلّ ما أعطاه للعبد خيرٌ له قطعاً و أن كان في نظر العبد شرّاً و إذا كان العبد راضياً بحكمه تسليماً لقضاءه فقد يكون شاكراً له على كلّ حالٍ إلاّ أنّ هؤلاء الأخيار أعزّ من الكبريت الأحمر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ اَلشَّكُورُ**[1].

**وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ.**

قيل اللاّم في قوله: **وَ لَقَدْ** للقسم و **القرُون** بضمّ القاف جمع قرن بفتحها و سميّ أهل كلّ عصرٍ قرناً لمقارنة بعضهم لبعضٍ و القرن هو المقاوم لقرينه في الشدّة و الظُّلم وضع الشّئ في غير محلّه.

و أن شئت قلت هو التّجاوز عن الحدّ، أقسم اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أهلك من كان قبل هذه الأمّة من القرون و علّل ذلك بأنّهم ظلموا بعد ما جاءتهم الرسُل من قبل اللّه اليهم بالبيّنات من المعجزات و الكرامات الدالّة على صدق دعوايهم و فى قوله و ما كانوا ليؤمنوا، إشارة الى عنادهم و ثباتهم على ما كانوا عليه من الظّلم و قوله: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ**[2] إشارة الىٰ أنّ حكم الأمثال واحد أي أنّ الإهلاك لم يكن مختصّاً بهم بل هو ثابت لكلّ مجرمٍ

١- سبا = ١٣ ٢- الانعام= ٨٤

ظالم من أيّة أمّةٍ كان و ذلك لأنّ علّة الإهلاك هي ظلمهم بعد تماميّة الحجّة بواسطة الرسّل و هذه العلّة أينما وجدت يترتب عليها وجود المعلول الإهلاك و هو المطلوب.

فهذا تفسير ألفاظ الآية و أن شئت الإطّلاع على كيفيّة إهلاك القرون و سببه فعليك بمراجعة التّواريخ.

و قد أشار اللّه تعالى الى شطرٍ منه في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ اَلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا اَلْأُولىٰ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّٰاهُمْ فِي اَلْأَرْضِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّٰا وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثٰاثًا وَ رِءْيًا**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا أَشْيٰاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**(٨).

قال اللّه تعالىٰ: **فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ فَهِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا**(٩).

و الأيات كثيرة جدّاً.

---

١- القصص=٧٨
٢- النّجم=٥٠
٣- الأنعام=٦
٤- الحجر=٤
٥- الإسراء=١٧
٦- مريم=٧٤
٧- مَريم=٩٨
٨- القَمر=٥١
٩- الحج=٤٥

**تَنبيهٌ**

**و أعلم** أنّ المستفاد من الآية الشّريفة هو أنّ الظُّلم صار سبباً لإهلاك القرون كما هو الظّاهر منها و من المعلوم أنّه أعمّ من الكفر و لكن بعض المفسّرين أرادوا بالظّلم الكفر قال الزّمخشري و أنّ اللّه قد علم منهم أنّهم يصرّون على كفرهم و قال القرطبي، لمّا ظلموا أي كفروا و أشركوا.

و به قال الرّازي و غيره من مفسّري العامّة ولعلّ الوجه فيه هو أنّهم إستفادوا ذلك من قوله: **وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا** فعبّروا في كلماتهم عن عدم إيمانهم بالكفر و هذا كما ترى لا يساعد ظاهر الآية ولو كان المراد من الظُّلم أو عدم الإيمان هو الكفر فحقّ الكلام أن يقال فيه لمّا كفروا، بدل قوله: **لَمّٰا ظَلَمُوا**.

و أن يقال و ما كانوا ليسلموا بدل قوله: **لِيُؤْمِنُوا** ولم يقل ذلك و إذا كان كذلك فليت شعري ما الدّاعي لهم على حمل الكلام على خلاف ظاهره مع إمكان حمله على ظاهره هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ قول بعضهم أنّها نزلت في كفّار مكّة و أنّه تعالى كان يخوفهم من العذاب بتكذيبهم محمّداً صلى الله عليه وآله، لا دليل عليه بل الآية باقية على عمومها و أنّها بصدد بيان حكم كلّي عامّ و هو أنّ الأمم الماضية لما أهلكوا بسبب ظلمهم فكذلك هذه الأمّة لو سلكت مسلكهم و ظلموا يترتّب على ظلمهم العذاب و الإهلاك و هذا هو السّر في نقل قصص القرآن فالملاك كلّ الملاك في الإهلاك هو الظُّلم بمعناه العّام الشّامل للكفر أيضاً بل قلنا أنّ الكافر العادل خارج عن مصداق الآية لا إشكال فيه إذ ليس كلّ كافرٍ ظالم على غيره نعم أنّه ظالم على نفسه و الآية ظاهرة في الظُّلم على الغير و كيف كان فحمل الآية على ظاهرها و هو الظُّلم بمعناه العّام هو المعتمد و المخالف يحتاج الى الدّليل و إذ ليس فليس و على ما أخترناه في تفسير الآية فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ حذّر النّاس عن الظُّلم بل هددّهم عليه و أفاد أن مآل الأمّة الظّالمة بعد تماميّة الحجّة الى

الهلاك و الفناء في الدنيّا و العذاب في الآخرة و هذا هو جزاء المجرم العاص لا غير، نعم في الآية موعظة و تذكير بأنّ حكم الأمثال واحد.

**ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلٰآئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.**

**قلنا** أنّ الخلائف جمع خليفة و الخطاب في الآية لهذه الأمّة الإسلامية و كلمة، ثمّ تفيد التّأخير و المعنىٰ أنّا أخرّناكم عن القرون من قبلكم في الحياة الدّنيا و جعلناكم خلائف لهم في الأرض من بعد موتهم و هلاكهم بسبب ظلمهم لننظر كيف تعملون.

أن قيل كيف جاز النّظر على اللّه تعالى و فيه معنى المقابلة، يقال في الجواب هو مستعار للعلم المحقّق الّذي هو العلم بالشّئ موجوداً شبه بنظر النّاظر و عيان المعاين في تحقّقه قاله في الكشّاف.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** فيه دلالة لهم على أنّي أفعل بكم هذين، الثّواب أن أمنتم و أطعتم و العذاب أن كفرتم و عصيتم و إستعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله أهل اللّغة على هذا المعنى لأنّهم لا يعلمون ما يكون من المكلّفين و ما يفعل بهم من الثّواب و العقاب و هو عالمٌ بذلك و مثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الإنسان يقول القائل لغلامه الّذي يأمره، أنّي سأعاقبك و أضربك لأنظر كيف صبرك و أعطيك مالاً لأنظر كيف تعمل، و أن كان عالماً بما يؤل اليه الأمر في ذلك انتهىٰ كلامه.

و قال الأخر معناه ليقع منكم ما تستّحقون به من الثّواب و العقاب ولم يزل يعلمه غيباً، و قيل يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل.

و قيل النّظر راجع الى الرّسل أي لينظر رسلنا و أولياءنا كيف أعمالكم، و كيف نصب بقوله تعملون لأنّ الإستفهام له صدر الكلام انتهى.

و قال الرّازي أنّه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله: **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**[١] و قد مرَّ نظائر هذا رسول اللّه ﷺ أنّ الدنيّا خضرة حلوة و أنّ اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون.

و قال قتادة صدق اللّه ربّنا ما جعلنا خلفاء إلاّ ليـنظر الى أعـمالنا فأروا اللّـه من أعمالكم خيراً باللّيل و النّهار انتهىٰ.

**أقول** فهذه أقوالهم في المسألة و أنا أقول:

النَّظر في الأصل تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشّيئ و رؤيته و قد يراد بـه التّأمل و الفحص و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص و هو الرّؤية يـقال نظرت فمل تنظر أي لم تتّأمل و لم تتّرو فـقوله تـعالىٰ: **قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ**[٢] أي تأمّلوا فيها و إستعمال النَّظر في البصر أكثر عند العامّة البصيرة أكثر عند الخاصّة، **فَمن الأوّل**:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا مَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ أَغْرَقْنَآ اٰلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ، وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَـنْظُرُونَ**[٧] و غيرها من الأيات.

**من الثّاني**: أعني به إستعماله في البصيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**[٨].

أى أفلا يتّأملون في خلقها.

---

١- هود = ٧
٢- يونس = ١٠١
٣- التّوبة =١٢٧
٤- البقرة =٥٠
٥- البقرة =٥٥
٦- أل عمران =١٤٢
٧- الواقعة =٨٣/٨٤
٨- الغاشية =١٧

قال اللّه تعالىٰ: **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**(٣).

فهذه الأيات وأمثالهما ممّا أستعمل فيها بمعنى البصيرة و التّأمل في المنظور اليه اذا عرفت هذا و علمت أنّ النّظر يستعمل في لغة العرب في كلا المعنيين فنقول:

النّظر في حقّه تعالى الى عباده معناه إحسانه اليهم و إفاضة نعمه عليهم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُكَلِّمُهُمُ ٱللّٰهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **كَلّٰآ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**(٥).

معناه منع إحسانه اليهم أو عدم إعتناءه بهم و الحاصل هو أنّ نظر اللّه الى عباده هو كناية عن توّجه المعبود اليهم بنظر الرّحمة و الرّأفة و العناية و عليه فيصير معنى الآية ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم أي من بعد القرون الّذين أهلكناهم لينظر كيف تعملون، يأ لتظهر أعمالكم من الخير و الشّر و هل تستحقّون بها الرّحمة أو العذاب ففيه إختبارٌ لهم ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و هو واضح.

## وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُنا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ ٱلَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقٰآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذٰآ أَوْ بَدِّلْهُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار اذا قرأ النّبي عليهم أيات اللّه و بيّناته قال الّذين لا يرجون لقاءنا، أي لقاء عذاب اللّه إن عصوه أو ثواب اللّه إن

١- الصّافات =٨٨/٨٩
٢- الأعراف =١٨٥
٣- يوسف =١٠٩
٤- آل عمران =٧٧
٥- المطفّفين =١٥

أطاعوه، أئت بقرآنٍ غير هذا الّذي تتلوه علينا، أو بدّله أي بدّل القرآن بغيره و التّبديل لا يكون إلاّ برفعه **قُلْ مٰا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار ليس لي أنّ أبدّله من تلقاء نفسي أي من جهة نفسي و ناحية نفسي، وليس لي أن أتّبع إلاّ الّذي يوحى إليّ، و كلمة، ما، و كلمة، إن، للنّفي بمعنى ليس **إِنِّيٓ أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي** في إتّباع غيره **عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** يعني يوم القيامة.

قال بعضهم أنّ الآية تدلّ على أنّ نسخ القرآن بالسنّة لا يجوز لأنّه يوجب التّبديل و لم يعلم أنّ السنّة لا يقولها النّبي إلاّ بوحي من اللّه لا من تلقاء نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ**[1].

هذا تفسير ألفاظ الآية و فيها مسائل يجب التّنبيه عليها:

**الأُولىٰ**: لم قالوا أئت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله و ما الفرق بين المقامين، أقول أنّما قالوا ذلك لأنّ بعض الأيات كان مخالفاً لأميالهم و شهواتهم النفسانيّة مثل أية الرّباء و الزّنا و شرب الخمر و القمار و أمثال ذلك من الأيات التّي نزلت في المحرّمات بل أكثر الواجبات مثل الصّوم و لا زكاة و الجهاد و غيرها و ذلك لأنّ النّاس عبيد الدنيّا و الدّين لئقٌ على ألسنتهم الخ.

و لمّا كان كذلك فقالوا ما قالوا و أمّا الفرق بين قولهم أئت بقرآنٍ غير هذا و قولهم بدّله، فهو أنّ الإتيان بغيره قد يكون معه و أمّا التّبديل فلا يكون إلاّ برفعه.

**الثّانية**: أنّ وصفهم بكونهم لا يرجون لقاء اللّه قيل أريد به كونهم مكذّبين بالحشر و النّشر منكرين للبعث و القيامة و لأنّ من لا يرجو لقاء ربّه معناه لا يرجو لقاء ما وعد الله من الثّواب و من كان كذلك لا يخاف أيضاً ما يوعده به من العقاب و بعبارةٍ أخرى من لا يرجو ثواب اللّه لا يخاف عقابه أيضاً و هو

١- النّجم =٤

كاشف عن إنكاره الحشر و النّشر و الثّواب و العقاب و جمع ذلك يرجع الى إنكار اللّه تعالى فثبت وتحقق أنّ الّذين لا يرجون لقاء اللّه هم الكفّار المنكرين للتّوحيد و النّبوة و المعاد.

**الثّالثة**: قوله: **قُلْ مٰا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** فيه إشارة الىٰ أنّ القرأن كلام اللّه تعالى لا كلام النّبي و لا كلام غيره من المخلوق و ذلك لأنّه لو كان من كلام النّبي لم يقل: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** فأنّ معنىٰ هذا الكلام هو أنّ النّبي كان تابعاً للوحي فيه

ومن المعلوم أنّ تبديل ما كان بالوحي لا يمكن إلاّ بالوحي و أمّا ما كان بغير وحيٍ فتبديله لا يحتاج اليه و حيث أنّه ﷺ قال: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** نكشف عنه أنّ القرأن كلام اللّه و قد أوحى اللّه تعالى به الى نبيّه و هو المطلوب. و يدلّ على ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰٓ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْيٌ يُوحىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمٰآ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[٦] والأيات كثيرة.

---

١- النّجم =٤
٢- يوسف =٣
٣- يونس =١٠٩
٤- الكهف =١١٠
٥- طه =١٣
٦- سورة الزّخرف أية ٤٣

**الرّابعة**: قوله **إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** فيه إشارة الىٰ أنّ التّصرف في كلام اللّه من تلقاء النّفس معصية و العاصي يعذّب غداً يوم القيامة و هو كذلك و لا فرق في ذلك بيّن النّبي و غيره من أحاد النّاس فأنّ المعصية معصية سواء صدرت عن النّبي أو صدرت من غيره بل هي منه أعظم و عذابه أشدّ و اذا كان النّبي صلى الله عليه و آله و هو يقول: **إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** و ما ظنّك بمن سواه كائناً من كان و يستفاد من مجموع ما ذكرناه في تفسير الآية وجوب حفظ الأيات عن التّحريف و التّغير بأيّ نحوٍ كان و حتّى التّحرز عن تفسيرها بالرّأي لأنّه أيضاً داخل في التّغير و التّبديل بل هو الأصل فيهما فأنّ اللّفظ يجب مراعاته تحفظاً على المعنى و إلاّ فهو مع قطع النّظر عن المعنى ليس بشئٍ و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من فسّر القرأن برأيه فليتبوء مقعده من النّار.

**قُلْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَآ أَدْرٰيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**

أي قل يا محمّد لهؤلاء الّذين يقولون كذا و كذا لو شاء اللّه ما أرسلني اليكم فتلوت عليكم القرأن و لا أدريكم به أي أعلمكم اللّه و لا أخبركم به فقد لبثت فيكم عمراً، و هو أربعون سنة من قبله أي من قبل أن أبعث أو من قبل أن أتلو عليكم الأيات أفلا تعقلون.

روي أنّ قريشاً قالت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله إئتنا بقرأنٍ غير هذا فأنّ هذا شيٌ تعلّمته من اليهود و النّصارى قال اللّه عزّ وجلّ: **قُلْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ** أي قد لَبثتُ فيكم أربعين سنة قبل أن يوحى إليَّ لم أتكم بشئٍ منه حتّى أوحي اللّه إليَّ به، و في قوله: **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** إشارة الىٰ نُكتة دقيقةٍ و هى أنّ المنكرين و الكفّار زعموا أنّ القرأن ليس من عند اللّه و لا هو كلامه بل هو من كلام الرّسول و قد تعلّمه من اليهود و النّصارى و لذلك قالوا له

انت بقرآنٍ غير هذا أو بدلّه، فأمر اللّه تعالى رسوله أن يقول لهم ليس لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلاّ ما يوحى الخ.

و حيث أنّهم لم يقنعوا بهذا الجواب أمره اللّه تعالى ثانياً أن يقول لهم.

**قُلْ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰيكُمْ بِهِ**

أي أنّي تلوته عليكم بمشيّئة اللّه و إرادته فقد لبثت فيكم عمراً أفلا تعقلون، أي أنّكم عرفتموني في مدّة أربعين سنة و علمتم أنّي ما طالعت كتاباً و لا رأيت أستاذاً و لا تعلّمت من أحدٍ ثمّ بعد مضيّ أربعين سنة جئتكم بهذا الكتاب الّذي يشتمل على نفائس الأصول و دقائق الأحكام و لطائف علم الأخلاق و بالجملة جميع ما يحتاج اليه البشر في الدنيّا و الأخرة و قد عجز عن معارضته العلماء و الخطباء و الفصحاء.

و العاقل لا يشكّ أنّ مثل هذا لا يحصل إلاّ بالوحي إذ لو كان من كلام البشر لما عجز عن معارضته البلغاء هذا كلّه مضافاً الى أنّكم ما سمعتم في مدّة أرعين سنة منّي كذباً و لا رأيتم منّي خيانة.

فكيف تزعمون أنّ الكتاب من إختلاقي و إفتعالي، أفلا تعقلون،قوله: **أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ** على سبيل الإستفهام الإنكاري دلالة على عنادهم ولجاجهم كما هو دأب كثيرٍ من أبناء الدّنيا و المغرورين بها فأنّهم اذا رأوا شيئاً مخالفاً لمقاصدهم و أمالهم أنكروه اذ لا حرب لهم في قتالهم مع الحقّ إلاّ الإنكار.

و الدّليل على ذلك هو قوله تعالى حكايةً من أهل الكتاب.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰآءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ**[2].

١- البقرة =١٤٦ ٢- النّحل =٨٣

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**[1] و غيرها من الأيات.

فقوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ليس علىٰ سبيل الإستفهام الحقيقي لعلم الرّسول بأنّ المنكرين كانوا من عقلاء زمانهم و لكنّ العقل اذا صار مقهوراً مغلوباً للشّهوات وهو كالعدم أعاذنا اللّه منه.

**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَاتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ.**

قوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ** كلمة مَن إستفهامية و المراد هنا الإستعظام و الإخبار به أي أنّه لا أحد أظلم ممّن إخترع كلاماً أو خبراً ثمّ أضافه الى اللّه و يريد به النّبي نفسه لو كان فعل أو كذّب بأياته و هم الكفّار و المكذّبون لأنّهم كذّبوا بأياته.

و من المعلوم أنّه لا يفلح المجرمون، و هذه الآية ناظرة الى الآية السّابقة فقوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا** ناظرٌ الىٰ النّبي و قوله أو كذّب بأياته الخ الىٰ الكفّار المنكرين.

و تقريره هو أنّكم أيّها الكفّار تقولون أنّ القرأن ليس من عند اللّه فالنّبي إفترى على اللّه كذباً حيث قال أنّه من عند اللّه و يلزم من ذلك أن يكون النّبي من أظلم النّاس لإفتراءه على اللّه و لا يقول به عاقل.

و أمّا أنتم فلتكذيبكم أيات اللّه تعدّون من المجرمين و المجرم لا يفلح و بعبارة أخرى من أظلم من المفتري على اللّه و من المكذّب أيات اللّه و لمّا كان الإفتراء من أقبح الظُّلم و لا سيّما الإفتراء على اللّه فالنّبي صلى الله عليه وآله منزّهٌ عنه فما قاله النّبي لكم حقّ لا مرية فيه و أمّا التّكذيب لأيات اللّه فهو ثابت لكم فأنتم من المجرمين الذّين لا يفلحون و أنّما قال لا أحد أظلم ممّن هذه صفة لأنّه ظلم كفرٍ و هو أعظم من ظلم غيره من أقسام الظُّلم.

---

١- البقرة =٨٩

**وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَضُرُّهُمْ وَ لٰا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ**

العبوديّة إظهار التّذلل و العبادة أبلغ منها لأنّها غاية التّذلل و لا يستّحقها إلاّ من له غاية الإفضال و هو اللّه تعالى و العبادة ضربان:

عبادةٌ بالتّسخير و عبادة بالإختيار و هى لذوي النُّطق و هى المأمور بها في الدّين و ما نحن فيه من هذا القبيل فقوله: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ** يعني يعبدونه بالإختيار و الإرادة.

و العبادة بهذا المعنى يتّرتب عليها الثّواب أو العقاب فأن كانت له تعالى يثاب فاعلها و أن كانت لغيره يعاقب عليها و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار يعبدون بإختيارهم من دون اللّه من الأصنام و الأوثان التّي لا تضُّر و لا تنفع لهم بمعنى أنّ وجودها كالعدم و ما كان كذلك لا ينبغي أن يعبد.

**إن قلت** كيف يصحّ ذمّهم على عبادة الوثن الّذي لا يضُّر و لا ينفع مع أنّه لو نفع و ضرّ أيضاً لم تجز عبادته.

**قلت** اذا كان من يضُّر و ينفع قد لا يستّحق العبادة اذا لم يقدر على أصول النِّعم فمن لا يقدر على النَّفع و الضَّر أبعد من أن يستّحق العبادة، هكذا قال بعض المفسّرين.

**إن قلت** الأصنام و الأوثان بل وكلّ ما يعبد من دون اللّه و إن لا ينفع إلاّ أنّه يضُّر لأنّه يوجب العذاب في الأخرة و يضيع العمر في الدنيّا و أيَّ ضرّرٍ أعظم من خسران الدنيّا و الأخرة و اذا كان كذلك فما معنى قوله تعالى: **لٰا يَضُرُّهُمْ**.

**قلت** أنّ عابد الوثن مثلاً أنّما يستّضر بعبادته من جهة العبادة و بعبارةٍ أخرى الإستضرار من جهة عبادته إيّاه لا من جهة الوثن لأنّه جماد و لا يعقل النّفع و الضّر من ناحيته و أمّا قوله: **وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا** معناه أنّا نعبُد الأصنام لتشفع لنا عند اللّه و لم يعلموا أنّ الجماد لا يشفع فأنّ الشّفيع لا يكون إلاّ عاقلاً و هو ظاهر و كيف يشفع ما لا يضُّر و لا ينفع.

**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**

أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم أتنبّئون أى أتخبرون اللّه بما لا يعلم من حسن عبادة الأوثان و كونها شافعة لأنّ ذلك لو كان صحيحاً لكان اللّه به عالماً و لمّا نفى العلم بذلك نفى المعلوم سبحانه و تعالى عمّا يشركون تنزّيهٌ منه تعالى لنفسه و تنزّيهٌ من أن يُعبَد مَعه إله أو يتّخذ من دونه معبود و زبعبارةٍ أخرى أتخبرون اللّه أنّ له شريكاً في ملكه أو شفيعاً بغير إذنه و اللّه تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً في السّموات و الأرض لأنّه لا شريك له فلذلك لا يعلمه لأنّ نفي المعلوم يستلزم نفي العلم كما يقال أنّ اللّه تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً معناه أنّه لا شريك له و فيه دلالة على أنّ العلم لا يتّعلق بالمعدوم.

**وَ مَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.**

الأمّة الجماعة التّي على معنى واحد في خلق أو ما يستمّر على عبادته بالظّاهر فعلى هذا النّاس أمّة و الطّير أمّة قيل و المراد هاهنا أنّها كانت على دينٍ واحدٍ ثمّ أنّهم إختلفوا في الدّين الّذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الإختلاف بينهم على أقوالٍ.

**فقيل** أنّهم كانوا على الشّرك لقوله تعالىٰ: **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ**[1] و قيل أراد بذلك العرب الّذين كانوا قبل مَبعث النبي صلى الله عليه وآله فأنّهم كانوا مشركين فلّما بعث النّبي آمن به قومٌ و كفر به آخرون، و قيل أنّهم كانوا على الإسلام في عهد آدم و ولده و أختلفوا عند قتل أحد بنيه الإبن الثّاني.

١- البقرة =٢١٣

**وقيل** أنّهم كانوا على الكفر و أنكره قومٌ بدليل قوله تعالىٰ: **فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هٰؤُلاءِ شَهِيدًا**[1] فلو كانوا على الكفر لما كان فيهم شهيد أصلاً هذه الأقوال نقله الشّيخ في التّبيان.

**وقال صاحب الكشّاف** و ما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدة، أي حنفاء متفقين على ملّةٍ واحدة من غير أن يختلفوا بينهم و ذلك في عهد آدم الى أن قتل قابيل هابيل.

**و قيل** بعد الطّوفان حين لم يذر اللّه من الكافرين ديّاراً.

**و قيل** كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام الى أن غيّره عمرو بن لحى و على هذا القول فالمراد بقوله: **وَ ما كانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** العرب خّاصة.

**أقول** الأقوال المذكورة و غيرها ممّا هو مسطور في التّفاسير على نمطٍ واحدٍ و هو أنّهم كانوا على الإيمان فأختلفوا أو على الكفر فأختلفوا فآمن بعضٌ و كفر بعض و هذا هو حاصل الأقوال المذكورة لكن لا يساعده العقل و النّقل.

**أمّا العقل** فلأنّ المقصود من الأمّة أعني بها الجماعة هو جماعة النّاس ممّا لا خلاف فيه بينهم و لا يعقل أن تكون الأمّة جميعاً على الكفر بعد ما ثبت وتحقّق أنّ الأمّة في كلّ عصرٍ و زمانٍ لا تخلوا من حجّةٍ لقوله عليه السلام **لولا الحُجّة لَساقت الأرض بأهلها**، و لا على الإيمان لأنّ الشّيطان كان موجوداً في جميع الأزمنة بعد خلق البشر و كان له أتباعاً و أعواناً لا محالة قّل أو كثر فالحّق أنّ الأمّة من بدو الخلق الى زماننا هذا كان بعضهم كافر أو بعضهم مؤمناً فحمل الآية أعني قوله: **وَ ما كانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** على أحد الشّقين من الكفر و الإيمان دون الآخر ترجيح من غير مرجّح و هو خلاف العقل.

---

١- النّساء =٤١

**و أمّا النّقل** فلأنّ الآثار و الأخبار و التّواريخ حاكية عن أنّ النّاس في كلّ عصر كانوا بين مؤمنٍ و كافر ولم نر فيها ما يدلّ على أنّهم كانوا في برهةٍ من الزّمان علىٰ الكُفر فقط أو على محض الإيمان و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلابّد لنا من حمل الكلام على معنى آخر غير ما ذكروه و الّذي يختلج بالبال هو أن يكون المراد و ما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدة بحسب الفطرة الأوليّة و هى التّوحيد فأختلفوا، أي فأختلفوا في الدنيّا بعد ماكانوا مخلوقين عليها بسبب الشّيطان و النّفس الأمّارة بالسُّوء و يؤيّد هذا الإحتمال قوله ﷺ كلّ مولودٍ يولد على الفطرة و إنّما أبواه يهودانه و ينصرانه و يمجّسانه، و نعبّر عن الكفر بالفطرة الثّانوية و هذا الّذي ذكرناه و أحتملناه يؤيدّه العقل السليم و ذلك لأنّ اللّه تعالى بمقتضى عدله لا يخلق مخلوقاً على الكفر ثمّ يعاقبه على كفره في القيامة ضرورة أنّ المخلوق على الكفر لا يصلح للإيمان و هذا ظلمٌ قبيح و لأجل ذلك لا نقول بالجبر و نحكم بكفر من يقول به و اذا لم يخلق على الكفر فلا محالة يخلق على ضّده لعدم الواسطة بين الكفر و الإيمان و اذا كان كذلك فمنشأ الإختلاف في العقائد هو الأسباب الخارجيّة الّتي كانت ما ناحية الخلق لا من ناحية الخالق فقوله: **فَاخْتَلَفُوا** حيث أنّه تعالى نسب الإختلاف اليهم دليل على كونه منهم لا منه تعالى.

و أمّا قوله: **وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** فالمراد بها المشيّئة أي لولا أنّ مشيّئة الحّق سبقت من ربّك قبل إيجادهم بإختيارهم في دار الدنيّا و أنّها دار عملٍ و لا حساب لقضي بينهم فيما فيه يختلفون، أي لجعلهم مثل الملائكة، و يتحمل أن يكون المعنى لقضي بينهم في دار الدنيّا بتعجيل الحساب العقاب، و قيل أنّ المراد بالكلمة في الآية هو التكليف الّذي كلّفهم اللّه به في دار الدنيّا و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه و محّصل الكلام هو أنّ المصلحة أوجبت الإختيار و تأخير العذاب و هذا ما

فهمناه من الآية و لا ندّعي أنّه حقّ فأنّ كلام الخالق لا يفهمه إلاّ من خوطب به و هو النّبي صلى الله عليه و آله و عترته و الحمد للّه ربّ العالمين.

**وَ يَقُولُونَ لَوْلاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا اَلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ.**

أي يقولون هؤلاء الكفّار هلاّ أنزل عليه أي على محمّدٍ صلى الله عليه و آله آية قيل أراد بها ما يضطّرهم الى المعرفة بحيث لا يحتاجون معها الى النّظر و الإستدلال و لم يطلبوا معجزة يستدلّ بها على صدقه و ذلك لأنّه قد كان أتاهم بالمعجزات الّتي تدلّ على صدقه و بعبارةٍ أخرى كانوا يقولون هلاّ أنزل عليه آية أي معجزة غير ما أتى به فيجعل لنا الجبال ذهباً و يحيي لنا من مات من آبائنا و قال الضّحاك عصا كعصا موسىٰ و امثال ذلك.

قال الزّمخشري في الكشّاف أرادوا آية من الآيات الّتي كانوا يقترحونها و كانوا لا يعتّدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة الّتي لم ينزّل على أحدٍ من الأنبياء مثلها و كفى بالقرآن وحده آية باقيةٍ على وجه الدّهر بديعةً غريبةً في الآيات الى آخر ما قال.

**أقول** و الّذي يظهر من كلماتهم حول الآية هو أنّ الكفار أرادوا بذلك نزول آية خاصة من قبل اللّه تعالى دالّة على نبّوته سوى ما أنزل عليه من المعجزات و الكرامات أن قلنا أنّ المراد بها الأيات التّكوينية و سوى ما أنزل عليه من الأيات القرآنيّة إن قلنا بأنّ المراد بهما الأيات التشريعيّة.

و أمّا قوله: **فَقُلْ إِنَّمَا اَلْغَيْبُ لِلّٰهِ** أي هو المختّص بعلم الغيب المستأثر به و لا علم لي و لا لأحدٍ به يعني أنّ الصّارف عن إنزال الأيات المقترحة أمرٌ مغيب لا يعلمه إلاّ هو.

**أن قلت** لم لم ينزل اللّه تعالى عليهم أيةً و هم طلبوها.

**قلتُ** لأنّه تعالى كان عالماً بعنادهم و كذبهم و أنّهم لا يقبلونها كما لم يقبلوا الأيات النّازلة قبل ذلك فقوله: **فَانْتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ** أي فإنتظروا نزول ما إقترحتموه أنّي معكم من المنتظرين، لما يفعل اللّه بكم لعنادكم و جحودكم الأيات قيل سلّط اللّه القحط على أهل مكّة سبع سنين حتّى كادوا يهكلون ثمّ رحمهم فلمّا رحمهم طفقوا يطعنون في أيات اللّه و يعادون رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

■

وَ إِذٰآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ
إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ
فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ حَتّٰىٓ إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَ
جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَ جَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوٓا
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾
فَلَمَّآ أَنْجٰيهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلٰىٓ أَنْفُسِكُمْ
مَتٰاعَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَ ٱلْأَنْعٰامُ حَتّٰىٓ إِذَآ
أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ٱزَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ
أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتٰيهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنٰاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْأٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَ ٱللَّهُ
يَدْعُوٓا إِلٰى دٰارِ ٱلسَّلٰامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلٰى
صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنٰى وَ
زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولٰٓئِكَ
أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خٰالِدُونَ ﴿٢٦﴾

## ◄ اللّغة

أَذَقْنَا، الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل.

ضَرّآءَ بفتح الضّاد يقابل بالسّراء و النَّعماء.

مَكْرٌ، المَكر بفتح الميم مصدر و هو صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ.

ٱلْفُلْكِ بضّم الفاء و سكون اللاّم السَّفينة و يستعمل للواحد و الجمع.

رِيحٌ عَاصِفٌ أي كاسر.

يَبْغُونَ البغي التَّعدي و الخروج عن الحدّ.

زُخْرُفَهَا، الزُّخرف بضّم الزّاء الزّينة المزَّوقة و منه قيل للذّهب زخرف.

حَصِيدًا أصل الحصد قطع الزّرع.

يَرْهَقُ يقال رهقه الأمر أي غشيه بقهرٍ.

قَتَرٌ، القَتَر تقليل النَّفقة و هو بإزاء الإسراف.

## ◄ الإعراب

وَ إِذَآ أَذَقْنَا جواب، إذا، الأولى (إذا الثانيّة) الثانيّة للمفاجأة والعامل في الثّانية الإستقرار الّذي في لَهُمْ و قيل اذا الثّانية زمانيّة و هى و ما بعدها جواب الأولى إِذَا هُمْ جواب لما و هى للمفاجأة بَغْيُكُمْ مبتدأ و فى الخبر وجهان:

أحدهما: عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ و على متّعلقة بمحذوف أي كائن لا بالمصدر لأنّ الخبر لا يتعلّق بالمبتدأ مَّتَاعَ خبر مبتدأ محذوف أي هو متاع، أو خبر بعد خبر و قيل أنّ الخبر متاع، و على أنفسكم متعلّق بالمصدر و يقرأ متاع بالنَّصب فعلى هذا، على أنفسكم خبر المبتدأ و متاع منصوب على المصدر أي يمتّعكم بذلك متاع.

و قيل هو مفعول به و العامل فيه، بغيكم و يكون البغي بمعنى الطَّلب أي طلبكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيّا فعلى هذا على أنفسكم ليس بخبر لأنّ

المصدر لا يعمل فميا بعد خبره بل على أنفسكم متعلق بالمصدر و الخبر محذوف تقديره طلبكم متاع الحياة الدنيّا ضلالٌ و يقرأ متاع، بالجرّ على أنّه نعتٌ للأنفس و التّقدير ذوات متاع فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ الباء للسَّبب أي إختلط النّبات بسبب إتّصال الماء به مِمَّا يَأْكُلُ حال من النَّبات وَ ازَّيَّنَتْ أصله تزَّينت كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ المسّ يراد به هنا الماضي لا حقيقة أمس الّذي قبل يومك و اذا أريد به ذلك كان معرباً و كان بلا ألف و لام و إضافة نكرة وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ الجملة مستأنفة و يجوز أن يكون حالاً و العامل فيه الإستقرار فى الّذين و لا يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ الحسنى لأنّ الفعل اذا عطف على المصدر إحتاج الى أن، ذكراً أو تقديراً و هو غير مقدرة لأنّ الفعل مرفوع.

## ◄التّفسير

**وَ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا**

قلنا في شرح اللّغات أنّ الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ لفظ الذَّوق قد يستعمل في العذاب و هو الأكثر و قد يستعمل في الرّحمة و هو الأقل كلّ ذلك على سبيل المجاز و الإستعارة.

**فَمِن الأوّل:**

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ ٱلْأٰخِرَةِ أَكْبَرُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**(٣).

---

١- الأنفال =١٤ ٢- الزّمر =٢٦

٣- الحجّ =٢٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذابًا كَبِيرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَنُذِيقَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَذابًا شَدِيدًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ اَلسَّعِيرِ**[٣] من الأيات الكثيرة.

**من الثّانى**: أعني به إستعماله في الرّحمة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا أَذَقْنَا اَلنّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّا إِذا أَذَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ اَلرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**[٧].

و غيرها من الأيات ثمّ أنّه تعالىٰ أخبر في هذه الآية بأنّه اذا أذاق النّاس يعني الكافرين رحمةً من بعد ضرّاء أي بعد شدّةٍ كانوا فيها من جدبٍ و ضيقٍ نالتهم مكروا في أياتنا و قوله: **مَسَّتْهُمْ** إشارة الى الأذى لأنّ المَس يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا**[٨].

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِذا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فِي اَلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّا إِيّاهُ**[٩].

و كيف كان ففي الآية إشارة الى أنّ الإنسان كفورٌ بنعمة ربّه فاذا كان في الشّدة يدعو ربّه و يتّضرع اليه و اذا خلص منها و صار مشمولاً لرحمة ربّه نسي ما كان فيه فلا يحمده و لا يشكره و هذا لا يختّص بالكافر فتخصيص الآية

١- الفرقان =١٩
٢- فُصلّت =٢٧
٣- سبأ =١٢
٤- الرّوم =٣٦
٥- الشّورىٰ =٤٨
٦- هُود =١٠
٧- سورة الرّوم أية ٤٦
٨- الأنبياء =٤٦
٩- الإسراء =٦٧

بالكفّار لا وجه له بل الآية شاملة للكافر و المسلم و من إستدّل في تخصيصها بالكافر بقوله: **إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ اٰيٰاتِنٰا** و المسلم لا يمكر في أيات اللّه فقد أخطأ و ذلك لأنّ الأيات في الباب كثيرة و لا يمكن لنا حملها على الكفّار ظاهر و لتوضيح ذلك نقول:

المكر على ما قاله في المفردات هو صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ ضربان مكرٌ محمود و ذلك يتّحرى بذلك فعل جميل، و مذموم و هو أن يتّحرى به فعل قبيح انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و عليه فالمكر المذموم من العبد لا يختّص بالكفّار فأنّ أكثر المسلمين متّصفون به فقوله تعالى إذا لهم مكرٌ في أياتنا معناه إذاً للنّاس مكرٌ في أياتنا فأنّ الضّمير في لهم، يرجع الى النّاس في صدر الآية و العجب أنّ اللّه تعالى قال: **وَ إِذٰآ أَذَقْنَا ٱلنّٰاسَ** ولم يقل و إذا أذقنا الكفّار و مع ذلك قال المفسّرون أنّ الآية ناظرة الى الكفّار و لعلّ نظرهم الى أنّها نزلت فيهم لا أنّ المعنى يختّص بهم قلنا مراراً أنّ خصوص المورد في النّزول لا ينافي عمومه بحسب المعنى.

**قُلِ ٱللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْرًا** المكر من اللّه تعالى إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدّنيا و الى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **من وُسِّع عَليه دُنياه ولَم يَعلم أنّه مُكِرَ به فهو مخذُوعٌ عن عقله**، و يتحمل أن يكون المراد بمكر اللّه في الآية هو القسم الممدوح منه و بمكر النّاس المذموم منه فالمعنى في قوله: **إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ اٰيٰاتِنٰا** أنّهم بعد خروجهم عن الشّدة التّي كانوا فيها يتّشبثون بأقسام الحيل المذمومة لدفع أيات اللّه و إنكارها.

و قيل مكرهم إستهزاء هم و تكذيبهم لها، و أمّا قوله: **قُلِ ٱللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْرًا** أي أسرع إمهالاً أو أسرع أن يفعل بهم ما يليق بمكرهم و قوله: **إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ** معناه أنّا نعلم ما تمكرون و فيه دلالة على أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ و المراد بالرُّسل هاهنا هو الملائكة المعبّر عنهم بالكرام الكاتبين.

قال بعض المفسّرين أنّما سمّي جزاء المكر مكراً لأنّهم اذا نالهم العذاب على مكرهم لا يحتسبونه و لا يتوقعونه فكأنّه مكر بهم هذا تفسير الآية على ما يقتضيه الظّاهر و اللّه أعلم بمراده.

**هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ** البحر في الأصل يقال لكلّ مكانٍ واسع جامعٍ للماء الكثير ثمّ أنّهم سمّوا كلّ متّوسعٍ في شيءٍ بحراً حتّى قالوا فرسٌ بحر بإعتبار سعة جريه و يقال للمتّوسع في علمه بحرٌ و التّبحر في العلم التّوسع و المراد منه في الآية هو معناه الأصلي أعني به الماء الكثير بدليل مقابلته للبّر، و السّير بفتح السّين و سكون الياء المضّي في الأرض و مرجع الضّمير في، هو، اللّه تعالى و المعنى أنّ اللّه تعالى هو الّذي يسيّركم في البّر و البحر، أي أقدركم على السّير فيهما.

**حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**

**حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ** و هو السّفينة و يستعمل للواحد و الجمع و المراد به هاهنا الجمع بدليل قوله: **وَ جَرَيْنَ بِهِمْ** فأنّ الضّمير في جرين للفلك لأنّه جمع فلك كالأسد و أسد و في قوله: **وَ جَرَيْنَ بِهِمْ** ألخ عدول عن الخطاب الى الغيبة تصّرفاً في الكلام مع أنّه خطاب لمن كان في تلك الحال و العدول عن الخطاب الى الغيبة و بالعكس من محسّنات فنّ البلاغة، و المعنى اذا ركبتم السّفينة و هى تجري على الماء و جرين بهم أي بمن ركب السّفينة ريحاً طيّبة معتدلة ثمّ جاءتها ريحٌ عاصفٌ شديد و جاءهم الموج من كلّ مكانٍ و ظنّوا أي أيقنوا أنّه أي الموج أحيط بهم.

و قيل أي ظنّوا أنّهم هالكون لما أحاط بهم الأمواج ففي هذه الحالة دعوا اللّه مخلصين له الدّين أي يدعوهم على وجه الإخلاص و لم يذكروا الأوثان و

الأصنام لعلمهم بأنّها لا تنفع هاهنا شيئاً و قالوا **لئن أنجيتنا** من هذه الورطة لنكونّن من الشّاكرين لك فلمّا أنجاهم اللّه منها كفروا بربّهم و لم يشكروا له.

ومحصّل الكلام في الآية هو أنّ كفران النّعمة من أقبح الظّلم و لا يليق بمن يدّعي العقل أن يكون كذلك لأنّه قسمٌ من العناد و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله **فَلَمَّآ أَنْجٰيهُمْ إِذٰا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** أي فلمّا أنجاهم اللّه عمّا كانوا فيه من الشّدة و المحنة أعرضوا عن شكره تعالى بل سلكوا مسلك الطّغيان و الخلاف و عادوا الى البغي و هو الإستعلاء بالظّلم بغير الحقّ.

قيل أي بالتّكذيب و الأولى أن يقال أي بالباطل و ذلك لعدم الواسطة بين الحقّ و الباطل فما ليس بحقٍّ فهو باطل و البغي في الأصل الطّلب أي يطلبون الإستعلا بالفساد بغير الحقّ.

قال بعض المفسّرين، إن قيل فما معنى قوله: **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** و البغي لا يكون بحقٍّ أبداً.

قلنا البغي قد يكون بالحقّ و هو إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة و هدم دورهم و إحرق زورعهم و قطع أشجارهم كما فعل رسول اللّه صلى الله عليه وآله ببني قريظة إنتهى كلامه و أنا أقول في كلامه نظر.

**أمّا أوّلاً**: فلأنّ إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّىٰ من البغي بل هو من الغلبة على العدّو و كلّ غلبةٍ لا يسمّى بغياً لأنّ البغي على ما عرَّ فوه طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتّحرى تجاوزه يقال بغيت الشَّئ إذا طلبت أكثر ما يجب و بعبارةٍ أخرى البغي هو أن يطلب الباغي ما ليس من حقّه فأن طلب الحقّ و وصل إليه بسبب الإستيلاء على الظّالم، لا يكون باغياً لأنّه إستولى على الظّالم أو غيره و أخذ حقّه منه فظهر أنّ مجّرد إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّى بغياً.

**ثانياً**: هدم دورهم و إحراق زروعهم و قطع أشجارهم لم يثبت في الأخبار المعتبرة و أنّما نقله المؤرّخون في بعض التّواريخ و نحن لا نعتمد عليه و على فرض ثبوته فهو ليس من البغي بل هو من الظُّلم و الظُّلم لا يكون بحقٍّ أبداً و أيّ ذنبٍ للدُّور و الزّروع و الأشجار حتّى يحكم بإفنائها و إحراقها و شخريها.

و إن شئت قلت الجماد و النّبات لا ذنب لهما و أنّما الذّنب لصاحب الجماد و النّبات و لا تزر وازرةٌ وزر أخرى و قد قال رسول اللّه ﷺ **أطلُب النّصر بالجَور و عليه** فكيف حكم بهدم دورهم و إحراق زروعهم و قطع أشجارهم لأجل الوصول إلى المقصد و الهدف و هو الغلبة على العدُّو و محصّل الكلام هو أنّ قبح البغي و الظُّلم و الكذب و الخيانة و أمثالها عقلّيٌ و أحكام العقل غير قابلةٍ للتّخصيص و التّقييد هذا مضافاً الى أنّ الإسلام دين الرّأفة و الرّحمة و العطوفة و رسول الإسلام نبّي الرّحمة و هذه المنقولات لا يعتمد عليها بل لا يبعد أن تكون من الإسرائيليات لتضعيف الإسلام و أنّه دين الخشونة و الغلظة و إذا كان كذلك فقول الرّازي أنّه من البغي بالحّق لا معنى له لأنّ البغي لا يكون بحّقٍ أصلاً.

**قلت** فما معنىٰ قوله يبغون في الأرض بغير الحّق.

**قلت** معناه إنّهم بعد النّجاة عن الشّدة الّتي كانوا فيها كانت و ظيفتهم الشُّكر بمقتضى العقل فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً، و الخلاص من الشّدة و المحنة من أعظم النّعم إلاّ أنّهم بدّلوا الشّكر بالبغي فبغوا في الأرض و هذا العمل منهم كان باطلاً عاطلاً يحكم بفساده العقل و النّقل فقوله بغير الحقّ معناه بطلان البغي كأنّه قيل البغي في الأرض يكون بغير الحقّ و لا يكون بحقّ أصلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقْتُلُونَ اَلنَّبِيّٖنَ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ**[1] معناه أنّ قتل النّبي لايكون بحقٍّ و قد يكون بغير الحقّ، و أنّما وقعوا في هذا الإشتباه لأنّهم زعموا أنّ

١- البقرة =٦١

مفهوم قوله: **يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** أنّه قد يكون البغي بالحقّ ولم يعلموا أنّ هذا الكلام لا مفهوم له ألا ترى أنّ قوله تعالىٰ: **فَلاٰ تَقُلْ لَهُمآ أُفٍّ**[1] لا مفهوم له فلا يقال نهّي اللّه عن الأف و أمّا غيره من الضّرب و الشّتم لا إشكال فيه هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

**يٰٓ أَيُّهَا ٱلنّاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰٓ أَنْفُسِكُمْ مَتٰاعَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**

لمّا أخبر اللّه تعالى عن بغيهم بعد النّجاة من الشّدة (فإذا بغىٰ) هذا الكلام أنّ البغي يرجع إليهم لا إلى غيرهم فقال أنّما بغيكم على أنفسكم و تصدير الكلام بكلمة، أنّما، التّي تفيد الحصر يدلّ على ما ذكره بطريق الإنحصار و المقصود من البغي تبعاته و ما يترتب عليه من خسران الدنيّا و الأخرة.

و أمّا قوله: **مَتٰاعَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا** فقد قرأه حفص بنصب العين في، متاع، على المصدر و قرأ الباقون برفع العين بأنّه خبر المبتدأ أعني به قوله: **بَغْيُكُمْ** أي بغيكم متاع الحياة الدنيّا، و يمكن أن يكون البغي مبتدأ، و قوله على خبره و رفع متاع على الحياة الدنيّا و الرّفع هو الأشهر و عليه المصاحف و عليه فالمعنى و أنّما بغيكم على أنفسكم هو متاع الحياة الدنيّا أو ذلك متاع الحياة الدنيّا أي حبّكم للدنيّا صار سبباً للبغي أو متاع الحياة الدنيّا صار سبباً له أو أنّ البغي عبارة عن متاع الحياة الدنيّا و كيف كان فالكلام يدلّ على أنّ الباغي لا يريد إلاّ الدنيّا و متاعها و هو كذلك لأنّ الباغي لا يريد ببغيه الأخرة و الوصول إلى درجاتها بل يريد الدنيّا و زخارفها و البقاء فيها و محصّل الكلام هو أنّ الوزر و الوبال في كلّ عملٍ فاسدٍ يرجع إلى صاحبه كما أنّ الثّواب في كلّ عملٍ صالح يرجع إليه فأنّ الجزاء يترتب على نفس العمل إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً.



---

١- الاسرا = ٢٣

و هذا الحكم لا يختّص بالبغي بل هو حكمٌ كلّي عامّ يشمل جميع الأعمال.

قال اللّه تعالىٰ: **مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ**[٥] والأيات كثيرة.

ولأجل ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[٧].

و هذا ممّا لا كلام فيه و الذّي ينبغي التّوجه إليه هو أنّ منشأ جميع المعاصي هو حبّ الدنيّا و الرّكون إليها و الإعتماد عليها إذ لم يعص اللّه أحدٌ و لن يعصيه أحدٌ إلى أخر الدنيّا لأجل الأخرة و لذلك قال متاع الحياة الدنيّا.

قال رسول اللّه ﷺ **حُبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة**.

و أمّا قوله: **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ** الخ ففيه إشارة إلى أنّ الدنيّا فانية و الحياة فيها غير دائمة و التّنعم بمتاعها زائلة داثرة و الموت ممّا لابّد منه لكلّ مخلوق و

١- الإسراء =١٥
٢- القمان=١٢
٣- الفاطر= ١٨
٤- الأنعام = ١٠٤
٥- النّساء =١١١
٦- فصّلت = ٤٦
٧- الأنفال =٥١،آل عمران =١٨٢

الرّجوع إلى اللّه الّذي خلقنا و أوجدنا قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ولا مَفَرَّ لأحدٍ من ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ**[٢].

و الحاصل أنّكم تطلبون بالبغي التّمتع في الحياة الدنيّا ثمّ بعد ذلك ترجعون إلىٰ اللّه بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ما عملتموه و ما استحققتم به من أنواع العقاب كلّ ذلك بما كسبت أيديكم في دار الدنيّا فإعتبروا يا أولي الأبصار.

## إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَ ٱلْأَنْعَامُ

**إعلم** أنّه تعالى شبّه الحياة الدُّنيا بماءٍ أنزله من السّماء و وجه الشّبه في التّشبيه هاهنا هو المصير إلى الزّوال في النبّات و الدُّنيا فكما أنّ مصير النّبات المختلط بالماء إلى الزّوال لأنّه ممّا يأكله النّاس و الأنعام فكذلك الدنيّا مصيرها إلى الزّوال، و قيل شبّه الحياة الدنيّا بالماء فيما يكون به الإنتفاع ثمّ الإنقطاع.

**ثالث الأقوال**: أنّه شبّه الحياة الدنيّا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف و قال صاحب الكشّاف شبّهت حال الدنيّا في سرعة تقضيّها و إنقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه و ذهابه حطاماً بعد ما إلتّف و تكاثف و زيّن الأرض بخضرته و رفيفه، فإختلط به، أي فإشتبك بسببه حتّى خالط بعضه بعضاً **أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ٱزَّيَّنَتْ** كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التّمثيل بالعروس إذا أخذت الثّياب الفاخرة من كلّ لونٍ فإكتستها و تزّينت بغيرها من ألوان الزّين و أصل، إزيّنت، تزيّنت فأدغم و بالأصل قرأ

١- الجمعة =٨ ٢- الأحزاب =١٦

عبد اللّه **وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ** أي و ظنّ أهل الدنيا أنّهم متمكّنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لعلّتها **أَتيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا** شبيهاً بما يحصد من الزّرع في قطعه و إستئصاله **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** أي كأن لم يغن زرعها أي لم ينبت إنتهىٰ كلام صاحب الكشّاف.

**و أنا أقول** لاشكّ أنّ في الكلام تشبيهاً بدليل قوله: **كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ** فأنّ الكاف من أداة التشبيه يقال زيد كالأسد و هو معلوم، و لا شكّ أيضاً أنّ الدُّنيا و الحياة فيها مشّبه و الماء المختلط به نبات الأرض الخ مشّبه به و هذا ممّا لا خلاف فيه بين المفسّرين و أنّما الخلاف في وجه الشُّبه و قد ذكروا فيه وجوهاً كثيرة منها ما ذكرناه.

و منها، ما ذكره بعضهم و هو أنّ عاقبة الدنيا كعاقبة هذا النّبات في تحقّق اليأس بعد الرّجاء.

و منها، أنّ الزّرع عاقبته غير محمودة فكذلك الدنيا.

و منها، كما أنّ السّعي في هذا الزّراع باطل بسبب حدوث الأسباب المهلكة فكذلك سعي المغترّ بالدنيا.

و منها، أنّ مالك الزّرع بعد فنائه يعرض له العناء الشّديد في حصول الزّرع فلمّا صار الزّرع في معرض الزّوال يحصل في قلبه حسرات فكذلك طالب الدنيا حال موته يحصل في قلبه حسرات.

**أقول** ما ذكروه في وجه الشبه يرجع إلى أصلٍ واحدٍ و هو عدم البقاء و الدّوام و ما لا بقاء له لا يعتمد عليه العاقل و إن شئت قلت كما أنّ نضارة الزّرع و لطافته و حسن منظره لا بقاء له كذلك الدنيا و ما فيها من المال و الأولاد و الجاه و غيرها و هذا أمرٌ محسوس لا يشكّ فيه أحد.

قال بعضهم إيّاك و الإغترار بالدنيا و الرّكون إليها فأنّ أمانتها كاذبة و آمالها خائبة و عيشها نكد وصفوها كدر و أنت على حظرٍ، إمّا بليّةٍ نازلة و إمّا مصيبةٍ موجعة و إمّا منيّةٍ مفجعة و ما كان كذلك كيف يعتمد عليه و لنعم ما قيل.

تنافس في الدنيّا و نحن نعيبها وقد حذّرتناها لعمري خطوبها
وما نحسب السّاعات نقطع مدّة علىٰ أنّها فينا سريع ربيبها
كأنّي برهطي يحملون جنازتي إلى حفرةٍ يحشى عليَّ كثيبها
و باكيةٍ حرّى تنوح و إنّني على غفلةٍ من صوتها لا أجيبها
أيا هادم اللّذات مامنك مهربٌ يحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفسٍ ونفسي سيأتي بعد ذاك نصيبها

فقوله تعالىٰ: **حَتّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** أي حسنها و زيّنتها و الزّخرف كمال حسن الشّيء و منه قيل للذّهب زخرف **وَ ٱزَّيَّنَتْ** أي و إزيّنت الأرض بالحبوب و الثّمار و الأزهار **وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ** أي يظنّ أهل الدنيّا **أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ** أي على حصادها و الإنتفاع بها **أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا** أي أمرنا بهلاك الزّرع **لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا** أي محصودة مقطوعة و لذلك لم يؤنّث لأنّه فعيل بمعنى مفعول **كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ** أي كأن لم تكن عامرة **كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** أي كذلك نبّين الأيات لقومٍ يتّفكرون و يعتبرون بها فهذا تفسير ألفاظ الأية.

**وَ ٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ حياة الدنيّا محفوفة بالأفات و البليّات و مع ذلك لا دوام لها و لا بقاء، ذكر في هذه الآية وصف الأخرة و الحياة فيها و بيّن أنّها دار السّلام لسلامتها عن الأفات و الحوادث و البلّيات و المصائب فقال تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** أي يفعل الألطاف التّي تدعوهم إلى طريق الحقّ.

و قيل معناه الأخذ بهم في الأخرة إلى طريق الجنّة و قال أبو علّي يريد به نصب الأدلّة لجميع المكلّفين دون الأطفال و المجانين و أمّا الإستقامة فهي المرور في جهةٍ تؤدّي إلى البغية.

**و إعلم** أنّ الدّعوة هي طلب الفعل بما يقع لأجله و الدّاعي إلى الفعل خلاف الصّارف عنه و الفرق بين الأمر و الدُّعاء أنّ في الأمر ترغيباً في الفعل و زجراً عن تركه و له صيغة تنبئ عنه و الدّعاء وليس كذلك وكلاهما طلب و أيضاً الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة و الدّعاء يقتضي أن يكون فوقه.

قال في المفردات السَّلم و السّلامة التَّعري من الأفات الظّاهرة و الباطنة و لذلك أنّ السّلامة بمعناها الواقعي لا توجد في الدنيّا و هى في الحقيقة ليست إلاّ في الجنَّة إذ فيها بقاء بلا فناء و غنى بلا فقر و عزٌّ بلا ذلّ و صحّةٌ بلا سقم، و هذه الأمور كلّها من مختّصات الدّنيا إذ فيها بقاء مع الفناء و غنى مع الفقر و عزّ مع الذلّ و صحّة مع السُّقم و ماكان كذلك فهو دار الأفات لا دار السّلام و من المعلوم أنّ اللّه تعالى لا يدعوا الى دار الأفات و الشُّرور بل يدعوا الى دار السّلام.

و قال بعضهم السَّلام هو اللّه تعالى فقوله: **دارِ ٱلسَّلاٰمِ** أي دار اللّه ليست إلاّ الجنّة و أمّا قوله: **وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فالهداية منه تعالى ليست إلاّ الألطاف الّتي تدعوهم الى طريق الحقّ.

و قيل هي نصب الأدلّة لجميع المكلّفين دون الأطفال و المجانين.

**و أعلم** أنّ الهداية في الأصل دلالة بلطفٍ ومنه الهدية و هو ادي الوحش أي متّقدماتها الهادية لغيرها و أمّا هداية اللّه تعالى للإنسان على ما قيل على أربعة أوجه:

**الأوّل**: الهداية الّتي عمَّ بجنسها كلّ مكلّفٍ من العقل و الفطنة و المعارف الضرورية الّتي أعمَّ منها كلّ شئ بقدرٍ فيه حسب إحتماله.

قال اللّه تعالىٰ: **ربّنا الّذى أَعْطىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ**[1].

١- طٰه=٥٠

**الثّاني**: الهداية الّتي جعل للنّاس بدعاءه أيّاهم على ألسنة الأنبياء و إنزال القرآن و نحو ذلك و هو المقصود:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا**[١].

**الثّالث**: التّوفيق الّذي يختّص به من إهتدىٰ و هو المعنّى.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى وَ آتيهُمْ تَقْويهُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَه**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ يَهْديهِمْ رَبُّهُمْ بِإيمانِهِمْ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**[٥].

**الرّابع**: الهداية في الأخرة الى الجنّة:

قال اللّه تعالىٰ: **سَيَهْديهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذي هَدينا لِهذا**[٧].

إذا عرفت معنى الهداية و أقسامها فقد علمت أنّ قوله: **يَهْدي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ** من القسم الثّالث أعني به التّوفيق الشّامل للعبد من قبل اللّه تعالى يوفّق من يشاء الى صراطٍ مستقيم و الصّراط المستقيم ليست إلاّ صراط أهل البيت وطريقهم في الدّين و الدنيّا.

روي الحافظ الحسكاني و هو من أعيان علماء العّامة في كتابه المسّمىٰ بشواهد التّنزيل بأسناده عن عبد اللّه بن عبّاس في تفسير قوله تعالىٰ: **وَ اللّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ** يعني به الجنّة، و يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم يعني به ولاية علّي بن أبي طالب عليه السلام.

---

١- الأنبياء=٧٣
٢- محمّد=١٧
٣- التّغابن=١١
٤- يُونس=٩
٥- العنكبوت=٦٩
٦- محمّد=٥
٧- الأعراف=٤٣

و أيضاً بأسناده عن فضيل بن الزُّبير قال قال زيد بن علّي في هذه الآية: **وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ إِلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ** قال الى ولاية علّى بن أبى طالب عليه السلام.

و في المناقب عن تفسير وكيع بن الجرّاح عن سفيان الثّوري عن السُّدي عن أسباط عن مجاهد عن عبد اللّه بن عبّاس في قوله: **اَهْدِنَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ**.

قال قولوا معاشر العباد أرشدنا الى حبّ النّبي و أهل بيته انتهى

و عن تفسير الثّعلبي و كتاب إبن شاهين عن رجاله عن مسلم بن حيّان عن بريدة في قوله: **اَهْدِنَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ** قال صراط محمّدٍ و آله و الأحاديث كثيرة.

و أمّا عندنا فهو من المسلّمات و لا نحتاج الى نقل الأخبار الواردة في الباب لوضوح المطلب و لنعم ما قال الحميري:

و أنت صراطه الهادي اليه  و غيرك ما ينجّي الماسكينا

و قال آخر:

إما في صراط اللّه منهاج قصده  إذا ضلّ من أخطأ الصواب عن السُّبل

و قال:

علّيُ ذا صراط هدى  فطوبى لمن اليه هدى

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: **وَ اَبْتَغُوٓا إِلَيْهِ اَلْوَسِيلَةَ**[1] أنا وسيلته.

و قال الحميري:

سمّاه جبّار السّماء  صراط حقٍّ فسما
فقال في الذّكر وما  كان حديثاً يفترى
هذا صراطي فأتبعوا  وعنهم لا تخدعوا

١- المائدة = ٣٥

فـــخالفوا مـــا ســمعوا والخـــلف مـــمّن شـــرعوا
و إجـــتمعوا و إتّـــفقوا و عـــاهدوا ثـــمّ إلتـــقوا
إن مـــات عـــنهم و بـــقوا أن يـــهدموا مـــا قـــد بـــنوا

**قال النّبي صلى الله عليه وآله مَن أحبَّ أن يتمسّك بالعروة الوثقى فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب، اللّهم إجعلنا من المتمسّكين بحبّه و ولايته آمين.**

**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**

الإحسان يقال علىٰ وجهين:

**أحدهما**: الأنعام علىٰ الغير يقال أحسن الىٰ فلان أي أنعم عليه.

**الثّاني**: إحسان في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل حسناً و الىٰ هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **النّاس أبناء ما يُحسنون**، أي منسوبون الى ما يعملون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة و الإحسان أعمّ من الأنعام و هو فوق العدل و ذلك لأنّ العدل هو أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له، و الإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل فتّحري العدل واجب و تّحري الإحسان ندبٌ و تطّوع.

و أمّا **الحُسنىٰ** بضمّ الحاء فهي ضدّ السوأي يقال أحسن اليه كما يقال أساء اليه و قيل أنّها العاقبة الحسنة.

و قيل هي من أسماء اللّه كالكريم و الرّحيم و قيل هي الجنّة.

و قوله: **وَ لا يَرْهَقُ** يقال رهقه الأمر غشيه بقهرٍ، أي لا يغشى وجوههم قتر.

و قيل معناه يلحق و منه قيل غلامٌ مراهق إذا لحق بالرّجال.

و قيل معناه، يعلو و الكلّ متقارب، و قوله: **قَتَرٌ** بفتح القاف و التّاء أي غبار و معنىٰ الآية أنّ للّذين يفعلون الحسن من الطّاعات التّي أمرهم اللّه بها جزاء على ذلك الحسنى، و هى الجنّة و لذّاتها و قيل جامعة المحاسن من السُّرور و

اللّذات على أفضل ما يكون و هى تأنيث الأحسن، و زيادة، أي و لهم زيادة التّفضل على قدر المستّحق على طاعاتهم من الثّواب و هى المضاعفة المذكورة في قوله تعالىٰ: **فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**[1].

و عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال المراد بالزّيادة ما أعطاهم اللّه في الدنيّا لا يحاسبهم به في الأخرة.

و أمّا قوله: **وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ** قالوا معناه لا يلحق وجوهم غبارٌ و لا ذلّة و هى صغر النّفس بالإهانة و الذّلة نقيض العزّة **أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** أي هؤلاء الّذين أحسنوا الخ.

**أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ففيه إخبار بأنّ الّذين وصفهم اللّه أصحاب الجنّة على وجه الخلود فيها و لا زوال لذلك عنهم.

**و أعلم** أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى الحسنى، و زيادة فقال بعضهم الحسنى، الجنّة و قوله زيادة أي ما يزيد على المثوبة تفضّلاً لقوله تعالىٰ: **وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**[2] و قيل الزّيادة غرفة من لؤلؤة واحدة.

و قال الطّبري، الحسنى عامّ في كلّ حسن فهو يعمّ جميع ما قيل و وعد اللّه في جميعها بالزيّادة و يؤّيد ذلك قوله: **أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ولو كان معنى الحسنى الجنّة لكان في القول تكرير في المعنى.

و قال مجاهد الزيّادة مغفرة من اللّه و رضوان، و قالت المجبّرة و المشبّهة أنّ الزّيادة النّظر الى وجه اللّه و الحقّ ما ذكرناه.

■



١- الأنعام=١٦٠ ٢- النساء = ١٧٣

وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ
أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ
أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَ يَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ
شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ
بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ
لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَآ أَسْلَفَتْ وَ
رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَيٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
وَ ٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ مَنْ
يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ
ٱلْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ
ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ
يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ
يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيٓ

إِلَّآ أَنْ يُهْدٰى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

## ◄ اللّغة

**تَرْهَقُهُمْ** أي تلحقهم و قد مرّ أنّ الرَّهق لحاق الأمر.

**عٰاصِمٍ** أي حافظٍ أو مانعٍ.

**قِطَعًا** بفتح الطّاء و سكونها و هما لغتان هو بعض الليل تقول أتيته لقطعٍ من اللّيل أي ساعةٍ منه.

**فَزَيَّلْنٰا** هو من قولهم زلت الشّئ عن مكانه أزيله و زيّلنا للكثرة من هذا اذا نحيّته عن مكانه و زايلت فلاناً اذا فارقته و قيل هو مأخوذ من زال يزول غلط.

**تَبْلُوا** من البلاء أي تختبر و قد قرأ بالتّاء من التّلاوة.

**تُؤْفَكُونَ** أي تصرفون عن الحقّ و الإفك الكذب

## ◄ الإعراب

**وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا** مبتدأ و فى الخبر وجهان:

أحدهما: هو قوله: **مٰا لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ** أو قوله: **كَأَنَّمٰآ أُغْشِيَتْ** أو قوله **أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ** الخ و يكون جزاء سيّئة بمثلها، معترضاً بين المبتدأ و خبره.

**ثانيهما:** أنّ الخبر حزاء سيّئةٍ و جزاء مبتدأ و الخبر بمثلها والباء زائدة و قيل الباء متّعلقة بجزاء و الخبر محذوف أي و جزاء سيّئةٍ بمثلها واقعٌ و **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** هو معطوف على كسبوا، و هو ضعيف لأنّ المستقبل لا يعطف على الماضى.

و قيل الجملة حال قطعاً بكسر القاف و فتح الطّاء جمع قطعة و هو مفعول ثان لأغشيت وَمِنَ ٱللَّيْلِ صفة لقطع وَمُظْلِمًا حال من اللّيل، و أمّا على قول من قرأ بسكون الطّاء فيكون مظلماً صفة لقطع أو حالاً منه أو حالاً من الضمير في، من، أو حالاً من اللّيل مَكَانَكُمْ هو ظرف مبنّي لوقوعه موقع الأمر أي ألزموا و فيه ضمير فاعل و أنتم، توكيد له والكاف والميم في موضع الجرّ عند قوم و للخطاب عند أخرين و شركاءكم، عطف على الفاعل لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا في موضع المصدر أي إغناء و يجوز أن يكون مفعولاً، ليغني و من الحقّ حال منه.

## التّفسير

لمّا ذكر اللّه تعالى فيما مضى ما أعدَّه للّذين أحسنوا و حالهم يوم القيامة و أنّ مألهم الى الجنّة ذكر في هذه الآية ما أعدَّه للعصاة و بيَّن حالهم و مآلهم في القيامة فقال تعالىٰ: وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا السّيئات جمع سيّئة و هى الفعلة القبيحة كما أنّ الحسنة هي الفعلة الممدوحة عقلاً و شرعاً.

و قيل أنّ الحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسُّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السّيئة تضّادها.

قال الرّاغب في المفردات الحسنة و السَّيئة ضربان:

**أحدهما**: بحسب إعتبار العقل و الشّرع:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**[2].

**ثانيهما**: بحسب إعتبار الطّبع و ذلك ما يستَّخفه الطّبع و ما يستثقله.

---

١- الانعام = ١٦٠

٢- الانعام = ١٦٠

قال اللّٰه تعالىٰ: **فَإِذا جٰآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ**[١].

قال اللّٰه تعالىٰ: **ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ**[٢].

قال اللّٰه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكٰافِرِينَ**[٣] انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

**و إعلم** أنّ الكسب فعل يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر و قد يكتسب الإنسان الحسنة و قد يكتسب السّيئة ولهذا لا يوصف اللّه تعالى بالكسب و ذلك لأنّ جلب المنفعة أو دفع المضّرة لا يعقل في حقّه تعالى لأنّه لا ينتفع بشئ كما لا يستّضر به و أمّا الإنسان فليس كذلك لفقره و ضعفه فقوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئٰاتِ** إشارة الىٰ أنّ الإنسان قد يكسب السّيئات بإختياره و إرادته فأنّ الكسب لا يكون إلاّ كذلك و لازم ذلك أنّه يقدر على تركه أيضاً اذ لو لم يقدر على تركه لا يقدر على فعله أيضاً و المفروض أنّه قادر عليه فهو قادر على تركه و ليس هذا إلاّ لكونه مختاراً في الفعل وتركه فثبت و تحقق أنّ كسب السّيئات و الحسنات تحت قدرة العبد و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **جَزٰآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها** يعني قدر ما يستحقّ عليها من غير زيادةٍ كما هو مقتضي العدل فأنّ الزّيادة على قدر المستحقّ من العقاب ظلمٌ و ليس كذلك الزيّادة على قدر المستحقّ من الثّواب لأنّ ذلك تفضُّل يحسن فعله إبتلاءً و على هذا فالمثل في الآية المراد به هو مقدار المستحقّ من غير زيادةٍنقصانٍ لأنّ الزيّادة على قدر الإستحقاق في السّيئات توجب الظّلم القبيح عليه تعالى مضافاً الى أنّه تعالى لو فعله ليطل الوعد والوعيد و التّرهيب و التّحذير لأنّ الثّقة بذلك أنّما تحصل اذا ثبت حكمته تعالى و لو فعل الظّلم

١- الاعراف = ١٣١ ٢- الاعراف = ٩٥
٣- النحل = ٢٧

لبطلت حكمته تعالى عن ذلك علّوا كبيراً و الىٰ هذه الدقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **جَزٰٓاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهٰا**.

قال في الحسنات فله عشر أمثالها **وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** أي يلحقهم هوانٌ في أنفسهم **مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ** أي ليس لهم مانعٌ من عقاب اللّه فهو الّذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و فيه إشارة الى عموم قدرته تعالى و ضعف ما سواه كائناً ما كان فلو كان هناك مانعٌ من عذاب الله يمنعه منه فهو أقدر منه تعالى و هو خلاف الفرض و أنّه على كلّ شئ قدير.

**كَأَنَّمٰآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** شبّه اللّه تعالىٰ سواد وجوههم بقطع من اللّيل المظلم و ذلك لمّا ألبست وجوههم السّواد و قال كأنّما أغشيت وجوههم ولمّا كانت ظلمة اللّيل نهاية في السّواد شبّه سواد وجوههم بقطع من اللّيل حال إشتّداد ظلمته فالمشبّه به في الحسّ أقوى من المشبّه فثبت التّشبيه.

قال الرّازي و اعلم أنّ حكماء الإسلام قالوا المراد من هذا السّواد المذكور هاهنا سواد الجهل و ظلمة الضّلالة فأنّ العلم طبعه طبع النُّور والجهل طبعه طبع الظُّلمة فقوله: **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضٰاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**[1] المراد منه نُور العلم و روحه و بشره و بشارته و قوله: **وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهٰا غَبَرَةٌ،تَرْهَقُهٰا قَتَرَةٌ**[2] المراد منه ظلمة الجهل و كدورة الضّلالة انتهى كلامه.

**أقول** ليت شعري ما الذّي دعاه الى حمل كلام اللّه على هذه التّأويلات السّخيفة في هذا المقام و غيره من الموارد في تفسيره و أي ربطٍ بين ما ذكره نقلاً عن الفلاسفة و بين الآية الشريفة و ليس في الآية ذكر من السّواد أصلاً.

و أنّما قال تعالى كأنّما أغشيت وجوههم الظلمة هذا أوّلاً و أمّا ثانياً فقوله فأنّ العلم طبعه طبع النُّور و الجهل طبعه طبع الظلمة فكأنّه أراد به أنّ الآية

١- عبس = ٣٨/٣٩ ٢- عبس = ٤٠/٤١

نزلت في الجهّال و المراد بالظّلمة ظلمة الجهل أي أنّ الّذين أغشيت وجوههم معناه أغشيت وجوههم بظلمة الجهل و هذا كلامٌ فاسد فأنّ الآية الشّريفة بصدد بيان حال العصاة لقوله تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ كَسَبُوا اَلسَّيِّئٰاتِ** و لا فرق في هذا الحكم بين العالم و الجاهل بل هو في حقّ العالم أشدّ منه في حقّ الجاهل كما تظافرت به الرّوايات من العامّة و الخاصّة و محصّل الكلام هو أنّ حمل الظلمة على ظلمة الجهل لا دليل عليه و لا يساعده سياق الآية و قد ظهر بذلك أنّ الآية تشمل جميع العصاة ممّن يكسب السيئة و لا إختصاص لها بالكفار كما قال بعضهم و إحتجّ على مدعاه بأنّ سواد الوجه من علامات الكفر و ذلك لأنّ سواد الوجه من علائم المعصية من أيّ شخصٍ صدرت كافراً كان أو مسلماً و إختصاصه بالكفر لا دليل عليه بل نقول أنّ المنافق المسلم أسود وجهاً من الكافر.

**وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ**

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يوم يحشر الخلائق أجمعين و الحشر هو الجمع من كلّ أوب الى الموقف و أنّما يقومون من قبورهم الى أرض الموقف هكذا قيل و هو كذلك فأنّ قوله جميعاً يدلّ على أنّ الحشر للجميع من المسلم و المؤمن و الكافر و المنافق و غيرهم حتّى الوحوش:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا اَلْوُحُوشُ حُشِرَتْ**[1].

والطّيور:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ**[2].

قال الرّاغب في المفردات الحشر إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها و يقال ذلك في الإنسان و فى غيره و لا يقال الحشر إلاّ في الجماعة انتهى كلامه.

---

١- التّكوير =٥ ٢- ص =١٩

قال الرّازي المسألة الأولى، إعلم أنّ هذا نوعٌ أخر من شرح فضائح أولئك الكفّار فالضمير في قوله: **وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ** عائد الى المذكور السّابق و ذلك هو قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** فلمّا وصف اللّه هؤلاء الذّين يحشرهم بالشّرك و الكفر دلّ على أنّ المراد من قوله و ٱلَّذين كسبوا ٱلسَّيئات الكفّار.

و حاصل الكلام أنّه تعالى يحشر العابد و المعبود ثمّ أنّ المعبود يتّبرأ من العابد الخ.

**و أنا أقول** الحقّ أنّ الضّمير في قوله: **نَحْشُرُهُمْ** يرجع الى الجميع من الّذين أحسنوا الحسنى و الّذين كسبوا السّيئات و ذلك لأنّ اللّه تعالى قد أشار فيما مضيو الى الفريقين فقال للّذين أحسنوا الحسنى الخ.

ثمّ قال والين كسبوا السّيئات عليهم كذا و كذا ثمّ قال بعد ذلك نحشرهم جميعاً فقوله: **جَمِيعًا** معناه جميع المحسنين و جميع العصاة و هذا هو الّذي يقتضيه سياق الآية و نظم الكلام و هو ظاهر على المتأمل فيها و عليه فتّخصيص الضمير بأحدى الفريقين دون الأخر لا دليل عليه هذا مضافاً الى أنّ الحشر ثابت لجميع النّاس و قد وافقنا على ذلك الطّبري و الألوسى.

فقال الطّبري يقول تعالى ذكره و يوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً ثمّ نقول حينئذٍ للّذين أشركوا باللّه الخ.

و قال الألوسي في روح المعاني في قوله: **نَحْشُرُهُمْ** و ضمير نحشرهم لكلا الفريقين من الّذين أحسنوا الحسنى و الّذين كسبوا السيئات لأنّه المتبادر من قوله تعالىٰ: **جَمِيعًا** ثمّ قال بعد سطرٍ ما لفظه:

و الإخبار بحشر الكلّ في تهويل اليوم أدخل و الى هذا ذهب القاضي البيضاوي و غيره فكون مراده بالفريقين فريقي الكفّار و المشركين خلاف الظّاهر جدّاً انتهى.

**أقول** قول البيضاوي، **وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا** يعني الفريقين جميعاً إنتهىٰ.

و لم يبيّن مراده من الفريقين هل هو الكفّار و المشركين أو الّذين أحسنوا

الحسنى، و الّذين كسبوا السيئات و لأجل ذلك إختلفوا في معنى كلامه فمنهم من فهم منه المعنى الأوّل و منهم من حمله على المعنى الثّاني و حيث أنّ الألوسي فهم منه المعنى الثّاني فقال و كون مراده أي مراد البيضاوي بالفريقين الكفّار و المشركين خلاف الظّاهر.

و قال الشّيخ قدس سره في التّبيان أخبر تعالى في هذه الآية أنّه يوم يحشر الخلائق أجمعين و به قال الطّبرسي قدس سره و غيره و محصّل الكلام هو أنّ مرجع الضّمير عامّ و ما ذكره الرّازي لا يعتدّ به لأنّه متّفرد به فيما نعلم.

**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ**

أي بعد الحشر نقول للّذين أشركوا باللّه الألهة و الأنداد مكانكم أي أمكثوا مكانكم وقفوا في موضعكم أنتم أيّها المشركون و شركاءكم الّذين كنت تعبدونهم من دون اللّه من الألهة و الأوثان **فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** أي ففرّقنا بين المشركين باللّه و ما أشركوه به قاله الطّبري.

و قال الزّمخشري في معناه ألزموا مكانكم أي لا تبرحوا حتّى تنظروا ما يفعل بكم، و قال في قوله فزيّلنا بينهم، ففرّقنا بينهم و قطعنا أقرانهم و الوصل التّي كانت بينهم في الدّنيا أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف.

و قال في التّبيان مكانكم، نصب على الأمر كأنّه قال إنتظروا مكانكم حتّى نفصل بينكم و يقول المتّوحد لغيره مكانك فإنتظر و يستعمل ذلك في الوعيد و قوله: **فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** مأخوذ من قولهم زلت الشّئ عن مكانه أزيله و ساق الكلام الى أن قال و المعنى فرّقنا بين المشركين باللّه و ما أشركوا به.

**وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** قيل في معناه ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون و ما أمرناكم بعبادتنا، و قيل أنّ ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين و قال الطّبري **وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** و ذلك حين تبرّأ الّذين إتّبعوا من الّذين إتّبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب لما

قيل للمشركين إتّبعوا ما كنتم تعبدون من دون اللّه و نصبت لهم آلهتهم قالوا كنّا نعبد هؤلاء فقالت الآلهة لهم ما كنتم إيّانا تعبدون إنتهى.

ثمّ أنّهم اختلفوا في المراد بهؤلاء الشُّركاء فقال بعضهم هم الملائكة بعضهم بل هي الأصنام و الدّليل عليه أنّ الخطاب مشتمل على التّهديد و الوعيد لا يليق بالملائكة المقربين و أمّا أنّ هذه الأصنام كيف نطقت و ذكرت هذا الكلام فلا إستبعاد فيه لأنّ اللّه تعالى أنطقها و هو على كلّ شيءٍ قدير.

و قيل المراد بهؤلاء الشُّركاء كلّ من عبد من دون اللّه من صنمٍ و شمسٍ و قمرٍ و إنسّي و جنّي و ملك.

**أن قلت** كيف قالوا: **مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ** و هم كانوا قد عبدوهم فكان هذا كذباً و ذهب كثير من العلماء الى أنّ أهل القيامة لا يكذبون.

**قُلت** ما ذهبوا اليه لا دليل عليه و على فرض ثبوته معنى الكلام أنّكم ما عبدتمونا بأمرنا و إرادتنا و الدّليل عليه هو قوله:

**فَكَفٰى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ** فأنّ هذا أخبارنا من اللّه تعالى عن هؤلاء المشركين من الآلهة و الأوثان يوم القيامة حين قالوا إنّا إيّاكم كنّا نعبد و أنّهم يجحدون ذلك و يقولن حسبنا اللّه شاهدٌ بيننا و بينكم أيّها المشركون بأنّه تعالى عالم إنّا ما علمنا ما تقولون و إنّا كُنّا عن عبادتكم إيّانا غافلين لا نشعر به و لا نعلمه و إذا كان كذلك فلا كذب هناك و لا عقاب على المعبود لأنّه لم يكن راضياً بما فعلوه و لا مشعراً به و إنّما العقاب ثابت على العابد فقط و فى تفسير القُمي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: **فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ** قال عليه السلام يبعث اللّه ناراً تزيل بين الكفّار و المؤمنين إنتهى.

**أقول** و هو دليل على أنّ الحشر للجميع و لا يختص بالكفّار فقط كما زعم الرّازي و أمثاله في الآية و أمّا الكلام في كيفية الحشر و ما يتعلق به فموكولٌ الىٰ محله إنشاء اللّه تعالى.

**هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَآ أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلٰيهُمُ ٱلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**

قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً، تتلوا، بالتّاء من التّلاوة و الباقون بالباء من الإختبار و عليه المصاحف و أن كان المآل واحداً هنالك في موضع النّصب على الظّرف و معناه في ذلك المكان و هو الحشر يوم القيامة و هو يستعمل للبعيد كما أنّ، هنا، للقريب و هناك للمتوسط **تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَآ أَسْلَفَتْ** أي تختبر كلّ نفسٍ ما أسلفت في الدنيا من الأعمال أن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشّراً فأن قدم خيراً و شراً جرى عليه كما قال تعالىٰ:

**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**[١].

و أمّا على قراءة التّاء فهو من التّلاوة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأُولٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتٰبَهُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِقْرَأْ كِتٰبَكَ**[٣].

و قيل قد يكون، تتلوا، بمعنىٰ تتبع و يكون المعنى هنالك تتّبع كلّ نفسٍ ما أسلفت من حسنةٍ و سيّئةٍ فمن احسن جوزى بالحسنات و من اساء جوزى به فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء و هذا هو المراد من قولنا و أن كان المال واحداً.

و أمّا قوله: **وَ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلٰيهُمُ ٱلْحَقِّ** معناه هؤلاء ذهبوا عن أمر اللّه فأعيدوا اليه، فأنّ الرّد هو الرُّجوع و قيل أنّ الرّد هنا بمعنى النّشأة الثّانية و عليه فالمعنى ردّوا الى الآخرة للحساب و الجزاء و لا شكّ أنّ هذا أليق بالمقام و قوله مولاهم الحّق بمنزلة التّفسير لقوله الى اللّه كأنّه قيل و من اللّه الّذي ردّوا اليه فقال هو مولاهم الحّق أي مولاهم حقّاًلأنّ اللّه تعالى خالق العبيد فهو

١- الزّلزال = ٧ - ٨
٢- الأسرىٰ =٧١
٣- الأسرىٰ =١٤

مالكهم لا محالة أي يملك أمرهم بل هو أملك بهم من أنفسهم و من كان كذلك فهو مولاهم حقّاً وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ أي ماكانوا يدعونهم بإفترائم من الشُّركاء مع اللّه يضلّون عنهم يوم القيامة و يبطلون و على ما ذكرناه فقوله مولاهم الحق في محلّ الخفض على العدل و الصِّفة و أمّا نصب الحق فعلى المدح و التقدير أعني الحّق أو ردّوا حقّاً ثمّ جيء بالألف واللاّم و يجوز فيه الرّفع على الإبتداء و الخبر و القطع ممّا قبل.

قال إبن عبّاس مولاهم الحّق أي الّذي يجازيهم بالحّق.

أن قيل كيف قال و ردّوا الى مولاهم الحقّ و قد أخبر اللّه تعالى بأنّ الكافرين لا مولى لهم، يقال في الجواب أنّه تعالى ليس بمولاهم في النّصرة و المعونة و هذا هو المنّفي في الأية، بل هو مولاهم في الخلق و الرزق و إدرار و النِّعم و أن كان الكافر لا يتوجّه اليه.

**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللّٰهُ فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ**

**ٱللّٰهُ فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ** لمّا بيَّن اللّه تعالى فيما مضى فضائح عبدة الأوثان و غيرهم من العصاة الطُّغاة أشار في هذه الآية أصول النِّعم التّي لا سبيل لأحدٍ من العقلاء إنكارها و أنّما قال ذلك تقريراً للحجّة عليهم لو كانوا يعقلون فأمر نبيّه أن يقول لهم ولغيرهم من خلقه **مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ** بإنزال المطر و الغيث **وَ ٱلْأَرْضِ** بإخراج النّبات و أنواع الثّمار و التعبير بالرزق لأجل أنّه العطاء الجاري على المرزوق على سبيل الجود و لذلك نقول لا رازق في الوجود إلاّ هو تعالى حقيقة فإطلاقه على غيره تعالى كما يقال رزق السُّلطان الجند أنّما هو على سبيل المجاز لأنّه لو لم يطلقه على يد الإنسان لم يجئ منه شئ فالواحد منّا يرزق غيره مجازاً لا حقيقة فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و

ذلك كما لا يطلق الرّب بالإطلاق إلاّ في حقّه تعالى و أمّا في غيره فيقيّد فيقال ربّ الدّار و ربّ الفرس.

قال الرّاغب في المفردات الرّزق يقال للعطاء الجاري تارةً دنيوياً كان أم أخرويّاً و للنصيّب تارة و لمّا يصل الى الجوف و يتّغذى به تارةً يقال أعطى السُّلطان رزق الجند و يقال رزقت علماً انتهىٰ.

**أقول** يظهر من كلامه أنّ الرّزق كما يطلق على المأكولات و المشروبات كذلك يطلق على المعقولات و المعنويّات و هو كذلك لأنّ الرزق هو العطاء الجاري و العطاء يطلق على الجميع يقال أعطاه المال و الغذاء و اللّباس كما يقال أعطاه العلم و الجاه و لا شكّ أنّ المعطي لجميع النِّعم ظاهراً أو باطناً ماديّاً أو معنويّاً في الحقيقة ليس إلاّ اللّه تعالى فهو الرازق المعطي بلا كلام إذا عرفت هذا فنقول الرّزق قسمان:

مادّيّ و معنويّ فالأوّل مختّص بالجسم و الثّاني بالرُّوح.

فقوله تعالىٰ: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ** إشارة الىٰ الأوّل و قوله: **أَم مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ** الخ ناظر الىٰ المعنىٰ أعني بها النِّعم المعنويّة العقليّة.

**أمّا القسم الأوّل**: و هو المشار اليه بقوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ**.

قال بعض المفسّرين أمّا من السّماء فبنزول الأمطار الموافقة و أمّا من الأرض فلأنّ الغذاء أمّا أن يكون نباتاً أو حيواناً أمّا النبّات فلا ينبت إلاّ من الأرض معلوم.

و أمّا الحيوان فهو محتاج أيضاً الى الغذاء و لا يمكن أن يكون غذاء كلّ حيوانٍ حيواناً آخر و إلاّ لزم الذّهاب الى ما لا نهاية له و ذلك محالٌ فثبت أنّ أغذية الحيوانات يجب إنتهاؤها الى النبات و ثبت أنّ تولد النبات من الأرض فلزم القطع بأنّ الأرزاق لا تحصل إلاّ من السّماء و الأرض و معلوم أنّ مدبّر

السَّموات و الأرضين ليس إلاّ اللّه سبحانه و تعالى فثبت أنّ الرّزق ليس إلاّ منه انتهى كلامه.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** أي يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهةٍ واحدة ليفيض عليكم نعمته و يوسّع رحمته انتهى.

**أقول** ما ذكراه في تفسير الآية لا بأس به و تبعهما عليه أكثر مفسّريهم أمثال الألوسي و البيضاوي و السّيوطي و غيرهم و هو الظّاهر من الآية الشّريفة إذ لاشكّ أنّ إحياء الأرض بسبب الأمطار فأنّ السّماء بمنزلة الفاعل و الأرض بمنزلة القابل و الإنسان يعيش في الأرض و يتّغذى من النبّاتات المتوّلدة منها و لولا تغذيته منها لم يقدر على إدامة حياته و هذا ظاهر لا خفاء فيه و أنّما الكلام في أنّ الرّزق من هو، و لا شكّ أنّ السّماء والأرض سببان لإيصال الرّزق الى الخلق لا أنّهما فاعلان و الدّليل على ذلك هو إنّا نرى في بعض السّنين قلة نزول البركات من السّماء أو عدمها و فى بعض السّنين بالعكس و هو يدلّ على أنّ المدّبر غيرهما.

**ثانياً**: نرى النظّم الخاّص من جهة الكميّة و الكيفيّة فيـنزول الأمطار دليل على أنّ الأمر بيد الرّازق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦمِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**[3].

---

١- البقرة=٣٢ ٢- الجاثية=٥

٣- إبراهيم=٣٧

و أمثال ذلك من الأيات الدالة على أنّ الرّزاق هو اللّه تعالى و عليه فالجواب.

عن قوله تعالىٰ: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** أنّ الرّازق هو اللّه المطلوب فهذا هو الحجّة الأولىٰ منه تعالىٰ على الخلق حيث أنّهم قد أقرّوا بعقولهم أنّ الرّازق هو اللّه تعالى.

الحجّة الثّانى: قوله **أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ** قيل، أم، منقطعة بمعنى بل و الأضراب إنتقالي لا إبطّالي و فيه تنبيه على كفاية هذا الإستفهام فيما هو المقصود أي من يستطيع خلقهما و تسويتهما على هذه الفطرة العجيبة و من وقف على تشريحهما وقف على ما يبهر العقول، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها و سرعة إنفعالهما عن أدنى شئٍ يصيبهما، أو من يتّصرف بهما إذهاباً و إبقاءً و الملك على كلّ مجازٍ انتهى.

**أقول** أنّما خصّ السّمع و الأبصار بالذّكر من الحّواس لأنّهما أشرف و أفضل من سائر الحواس و الظّاهر أنّ المراد بالملك في الآية هو المالكيّة بسبب الخلق و التّدبير أي أنّه تعالى و هو المدّبر لهما و هو المالك لهما ولغيرهما فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه وكيف كان فالجواب عنه فثبت أيضاً أي هو اللّه تعالى و هذا هو الحجّة الثّالثة.

الحجّة الرّابعة: قوله: **وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ** كلمة، مَن أيضاً للإستفهام.

قال بعض المفسّرين في معناه، أنّه يخرج الإنسان و الطّائر من النُّطفة و البيضة و يخرج الميّت من الحيّ أي يخرج النّطفة و البيضة من الإنسان و الطّائر.

**الوجه الثّانى**: أنّ المراد منه أنّه تعالى يخرج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن و الأكثرون على الأوّل و هو الى الحقيقة أقرب انتهى كلامه.

و قال الأخرون في قوله: **وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ** معناه من الّذي يخلق الحيوان و يخرجه من أمّه حيّاً سوّياً إذا ماتت أمّه **وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** يعني من يخرجه به غير تّامٍ و لا بالغ حدّ الكمال انتهى.

و الحقّ أنّ الموت بحسب أنواع الحياة.

**فالأوّل**: ما هو بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الإنسان و الحيوان و النّبات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَانْظُرْ إِلىٰ ءَاثٰرِ رَحْمَتِ ٱللّٰهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ**[٣].

**الثّاني**: زوال القوّة الحّاسة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقُولُ ٱلْإِنْسٰانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**[٤].

**الثّالث**: زوال القّوة العاقلة و هى الجهالة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنٰاهُ**[٥] وإيّاه قَصَد.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعٰآءَ**[٦].

**الرّابع**: الحزن المكّدر للحياة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ**[٧].

**نالخامس**: المنام و لذلك قيل النَّوم موتٌ خفيفٌ و الموت نومٌ ثقيل و على هذا النّحو سمّاهما اللّه توّفياً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفّٰيكُمْ بِاللَّيْلِ**[٨].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا**[٩].

---

١- الرّوم=١٩
٢- سورة الرّوم آية ٥٠
٣- ق = ١١
٤- مريم=٦٦
٥- الأنعام =١٢٢
٦- النّمل =٨٠
٧- إبراهيم =١٧
٨- الأنعام =٦٠
٩- الزّمر =٤٢

إذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ** إشارة الى جميع الأقسام المذكورة و ذلك لعدم المخصص فحمل الآية على العموم أولى و الجواب عنه أيضاً مثبت و هو أنّ المخرج هو اللّه تعالىٰ.

الحُجّة الخامسة: قوله: **وَ مَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** و فيه إشارة الى أنّ هذه المذكورات في الآية يحتاج الى مدّبر حكيم الّذي ينّزل الأمر على طبق مصلحةٍ رآها وليس هو إلاّ اللّه تعالى كما قال: **فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ** إذا سئلت هؤلاء عن الفاعل الخالق الرّازق المحيّي المدّبر، فسيقولون اللّه: **فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ** أي فقل لهؤلاء المقّرين أفلا تتّقون أي فهلاّ تتّقون خلافه و تحذرون معاصيه و الآية تدلّ على التّوحيد لأنّها دلّت على وحدة المدّبر لهذا العالم يجوز أن يكون ذلك بحسب الإتّفاق لإحالة العقل ذلك و لا بالطبيعة لأنّها في حكم الموات فلم يبق بعد ذلك إلاّ أنّ الفاعل لذلك قادرٌ عالمٌ يدّبر الأمر على ما يشاء و يفعل و يحكم ما يريد و هو المطلوب.

**تنبيهٌ**

أنّما دخلت، أم، على، من، في قوله أممَّن لأنّ، من، ليست أصل الإستفهام بل أصله الألف فلذلك جاز الجمع بينهما هذا.

**فَذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذاٰ بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلاٰلُ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ**

**الفاء**

للتّفريع و ذلك إشارة الى إسم اللّه والكاف والميم للمخاطبين و أنّما جمع لأنّه أراد جميع الخلق.

قال الزّمخشري في الكشّاف، ذلكم، إشارة الى من هذه قدرته و أفعاله **رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ** الثّابت ربوبيّته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقّق النّظر **فَمَاذاٰ بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلاٰلُ** يعني أنّ الحقّ و الضّلال لا واسطة بينهما فمن تخطّى الحقّ وقع

في الضّلال **فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ** عن الحقّ الى الضّلال و عن التّوحيد الى الشّرك و عن السّعادة الى الشّقاء انتهى كلامه.

**أقول** معنى الآية أنّكم اذا إعترفتم بأنّ الرّزق و الإحياء و الإماتة و التّدبير كلّها بيد اللّه تعالى فذلكم اللّه ربّكم الحقّ، لأنّ الخيرات في الدّنيا و الأخرة أنّما تحصل من رحمة اللّه و إحسانه و أنّ هذه الأوثان لا تنفع و لا تضُّر البتَّة و اذا كان الأمر على هذا المنوال أي عرفتم الحقّ و الباطل فماذا بعد الحقّ إلاّ الباطل أنّهما نقيضان و هما لا يجتمعان و لا يرتفعان فلا يكونان حقّين و لا باطلين فاذا كان أحدهما حقّاً و الأخر باطلاً فالإعراض عن الحقّ هو الدُّخول في الباطل بعينه فأنّى تصرفون أي كيف تعدلون عن الحقّ الى الباطل.

**كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**

قالوا الكاف في كذلك، للتّشبيه و هو في موضع نصب و الإشارة بذلك الى المصدر المفهوم من تصرفون مثل صرفهم عن الحقّ بعد الإقرار به في قوله: **فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ** حقّ العذاب عليهم أي جازاهم مثل أفعالهم إشارة الى الحقّ.

قال صاحب الكشّاف كذلك مثل ذلك الحقّ حقَّت كلمة ربّك و قال في التّبيان و الكاف في قوله: **كَذٰلِكَ** في موضع نصب و التّقدير مثل أفعالهم جازاهم ربّك و قيل في الشّبه به وجهان:

**أحدهما**: المعنى أنّه ليس بعد الحقّ إلاّ الضّلالة فشبَّه به كلمة الحقّ بأنّهم لا يؤمنون في الصّحية.

**الثّانى**: ما تقدّم من العصيان شبّه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدار و أنّما أطلق في الّذين فسقوا أنّهم لا يؤمنون لأنّه أريد به الّذين تمَّردوا في كفرهم و **أَنَّهُمْ** في موضع نصب على قول الفّراء و التّقدير بأنّهم أو لأنهم لا يؤمنون فقوله: **أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** بدل من كلمة، ربّك انتهى.

قال الرّازي إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ الكفر بقضاء اللّه و إرادته و تقريره أنّه تعالى أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون فلو أمنوا لكان أمّا أن يبقى ذلك الخبر صدقاً أو لا يبقى و الأوّل باطل لأنّ الخبر بأنّه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقاً حال ما يوجد الإيمان منه.

الثّاني: أيضاً باطل لأنّ إنقلاب خبر اللّه تعالى كذباً محال فثبت أنّ صدور الإيمان منهم محال و المحال لا يكون مراداً فثبت أنّه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر و أنّه أراد الكفر منه ثمّ نقول أن كان قوله: **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** يدّل على صحّة مذهب القدريّة فهذه الآية الموضوعة بجنبه تدلّ على فساده انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** لا تدلّ الآية على أنّ الكفر بقضاء اللّه و إرادته أصلاً و الرّازي قد أتعب نفسه في إثبات ذلك و إستدلّ على مدعاه بما هو أوهن من بيت العنكبوت و ذلك لأنّه تعالى قد أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون بإختيارهم و سوء سريرتهم لا بقضاء اللّه و قدره بمعنى أنّه تعالى لم يقض عليم بالكفر بل علمهم بكفرهم لأنّه علاّم الغيوب و العلم لا يكون علّة لفعل المكلّف قطعاً و ذلك مثل علم الطّبيب بموت من شرب السّم بإختياره.

و ما نحن فيه من هذا القبيل مع أنّ الخطأ في علم الطّبيب محتملٌ و هو في حقّه تعالى محال ثمّ قال الرّازي.

**المسألة الخامسة**: المراد من كلمة اللّه إمّا إخباره عن ذلك و خبره صدق لا يقبل التّغير و الزّوال أو علمه بذلك و علمه حقّ لا يقبل التغيّر و الجهل.

ثمّ قال و قال بعض المحققين علم اللّه تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و خبره تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و قدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و إرادته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و أثبت ذلك في اللّوح المحفوظ و أشهد عليه ملائكته و أنزله على أنبياءه و أشهدهم عليه فلو حصل

الإيمان لبطلت هذه الأشياء فينقلب علمه جهلاً و خبره الصّدق كذباً و قدرته عجزاً و إرادته كرهاً و إشهاده باطلاً و إخبار الملائكة و الأنبياء كذباً و كلّ ذلك محال انتهى كلامه.

**و أنا أقول** أمّا قوله علم اللّه بأنّه لا يؤمن و خبره بأنّه لا يؤمن فهو صدق لا كلام لنا فيه و أمّا قوله: و قدرته لم تتعلّق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر و هكذا إرادته فيقال له هذا أوّل الكلام و من أين علم الرّازي أنّ قدرته و إرادته لم تتعلّق بخلق الإيمان بل تتعلّق بخلق الإيمان بل تتعلّق بخلق الكفر فيه.

و نحن نقول أنّ قدرته و إرادته لم تتعلّق بخلقهما جميعاً.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإيمان و الكفر لا يصلحان لتعلّق القدرة بهما لأنّهما من الأمور الكسبيّة و لا معنى لأن يكون الإيمان مخلوقاً و هكذا الكفر الّذي هو عدم الإيمان هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول علىٰ فرض التّسليم و إمكان تعلّق القدرة بهما، من أين ثبت للمستدلّ أنّ القدرة تعلّقت بالكفر دون الإيمان.

و على فرض التسليم نقول لم تعلّقت القدرة بالكفر و لم تتّعلق بالإيمان مع أنّ المفروض إمكان تعلّقها بهما أليس هذا من الظّلم القبيح أو التّرجيح بلا مرّجح و محصّل الكلام أنّ نسبة القبائح الى اللّه تعالى إلحادٌ و زندقة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَآءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**[2].

و الحاصل أنّا لا ننكر قدرة اللّه و أنّه تعالى على كلّ شيءٍ قديرٍ فلو شاء أن يجبر العبد على شيءٍ من أفعاله لفعل إلاّ أنّا نقول أنّه تعالىٰ لا يفعل القبيح و إجبار العبد على الفعل ثمّ عقابه عليه ظلمٌ قبيح و صدوره منه محال لمنافاته

١- الكَهف =٢٩ ٢- التّكوير =٢٧/٢٨

العدل الّذي وصف اللّه به نفسه حيث قال: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمَا بِالْقِسْطِ**[١].

**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**

البدء و الإبداء تقديم الشّئ على غيره ضرباً من التّقديم و مبدأ الشّئ هو الّذي منه يتّركب أو منه يكون فالحروف مبدأ الكلام و الخشب مبدأ الباب و السّرير و النّواة مبدأ النّخل اذا عرفت هذا فإعلم أنّ اللّه تعالى هو المبدء المعيد أي هو السّبب في المبدأ و النهاية و منه يقال رجع عوده على بدأه.

أمّا أنّه تعالى هو المبدء فلاكلام فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ**[٣].

و أمّا أنّه تعالى هو المعيد:

قال اللّه تعالىٰ: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٧].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**[٨].

و الأيات كثيرة هذا بالنّظر الى النّقل و هو ممّا لا كلام فيه لكلّ مسلم.

---

١- آل عمران = ١٨
٢- السّجدة = ٧
٣- العنكبوت = ٢٠
٤- الأعراف = ٢٩
٥- الأنبياء = ١٠٤
٦- يونس = ٤
٧- الرّوم = ١١
٨- الرّوم = ٢٧

و أمّا بالنّظر الى العقل فقد يتّوهم أنّ الموجود بعد موته لا يعاد و ذلك لأنّ إعادة المعدوم ممتنعة و قد برهنوا على إستحالتها بما لا مزيد عليه.

و قد مرَّ منّا مراراً أنّ الموجود لا ينعدم بموته و أنّ المادّة الأصلية باقية فالإعادة أهون و أسهل من الإبداء و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالىٰ: **وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء اللّه.

ثمّ أنّه تعالى أمر نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار المنكرين هل من شركاءكم من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، و الإستفهام للإنكار أي لا يكون، **قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** أي تصرفون و فى هذه الآية إشارة الى أنّ المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد هو الّذي خلقكم أوّلاً و يعيدكم ثانياً و حيث أنّ شركاءكم من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يقدرون على الخلق و الإعادة لكونها داخلين في سلسلة المحدثات و المخلوقات فكيف تقولون أنّها كذا وكذا.

ثمّ قال تعالى لنبيّه:

**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۗ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ**

و هذا الإستفهام أيضاً إنكارّي أي ليس كذلك لأنّ الجماد الّذي لا شعور له كيف يهدي الى الحقّ قل، لهم، أنّ اللّه تعالى يهدي للحقّ

و من المعلوم أنّ من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتّبع و يعبد ممّن لا يهدي اليه و الى هذا المعنى أشير بقوله **أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** وقوله: **أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ** بفتح الياء و كسر الهاء و الدّال المشددة، أصله، يهتدي فقلّب حركة التّاء الى الهاء و أدغمت التّاء في الدّال هذا على قراءة من فتح الهاء في **لا يَهِدِّي** و أمّا من كسرها كما هو المشهور بين القرّاء و عليه المصاحف، فأنّهم كسروا الهاء لمّا أضطر الى الحركة حرّك بالكسر قالوا أنّ، أحقّ، ليست أفعل تفضيلٍ بل المعنى، حقيقٌ بأن يتّبع.

و محصّل الكلام في الآية الشّريفة هو أنّ الحقّ حقيقٌ بالإتّباع دون الباطل الّذي لا حقيقة له و لمّا كان الوصول اليه يحتاج الى الهادي و المرشد فلا محالة يكون الهادي اليه أيضاً أحقّ بالإتباع لما فيه من الإيصال الى المطلوب حكم اللّه تعالى بما حكم و قال ما قال و أنّما قال في أخر الآية فمالكم كيف تحكمون، للإشارة إلى أنّ هذا الّذي قلناه و هو متابعة الحقّ ممّا تحكم به العقول السليمة و لذلك أتى بكلمة، كيف، التّي تفيد الإستفهام و المعنى كيف تحكمون أيّها العقلاء.

و من المعلوم أنّ العقل السليم يحكم بأنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع من الباطل فالهادي اليه أيضاً كذلك.

قال بعض المفسّرين أنّ اللّه إستدلّ بالخلق و الهداية على وجود الصانع و هما حالان للجسد و الروح و لمّا كان العقول يلحقها الإضطراب و الغلط بيَّن تعالى أنّه لا يهديهما إلاّ هو بخلاف أصنامهم و معبوداتهم فأنّه ما كان منها لا روح فيه جماداً لا تأثير له و ما فيه روح فليس قادراً على الهداية بل اللّه تعالى هو الّذي يهديه، و هدى تتّعدى بنفسها الى أثنين.

و الى الثّاني بالى وباللاّم، و يهدي الى الحقّ حذف مفعوله الأوّل و لا يصحّ أن يكون لازماً بمعنى يهتدي لأنّ مقابله أنّما هو متّعدٍ و هو قوله: **قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** أي يهدي من يشاء الى الحقّ و لمّا كانوا معتقدين بأنّ شركاءهم تهدي الى الحقّ و لا يسلمون حصر الهداية باللّه تعالى أمر اللّه نبيّه ﷺ بأن يبادر الى الجواب فقال.

**قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** ثمّ عاد في السّؤال بالهَمزة و أم بين من هو حقيق بالإتباع و من هو غير حقيق و جاء على الأفصح الأكثر من فصل، أم، ممّا عطفت عليه بالخبر كقوله: **أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ** [1] بخلاف قوله: **أَقَرِيبٌ أَمْ**

١- الفرقان = ١٥

**بَعِيدٌ مٰا تُوعَدُونَ**[١] و سيأتي القول في ترجيح الوصل هنا في موضعه إن شاء اللّه تعالى انتهى كلامه.

و قال الرّازي في المقام، إعلم أنّ هذا هو الحجّة الثالثة و أعلم أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أوّلاً ثمّ بالهداية ثانياً عادةً مطرّدة في القرآن فحكى اللّه تعالى عن الخليل عليه السلام أنّ ذكر ذلك فقال:

**اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**[٢].

و عن موسىٰ عليه السلام أنّه ذكر ذلك فقال:

**رَبُّنَا اَلَّذِيٓ أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ**[٣].

و أمر محمّداً صلى الله عليه وآله بذلك فقال:

**سَبِّحِ اَسْمَ رَبِّكَ اَلْأَعْلَى، اَلَّذِي خَلَقَ فَسَوّىٰ،وَ اَلَّذِي قَدَّرَ فَهَدىٰ**[٤].

و هو في الحقيقة دليل شريف لأنّ الإنسان له جسد و روحٌ فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و الإستدلال بأحوال الرّوح هو الهداية.

فهنا هنا أيضاً لمّا ذكر دليل الخلق في الآية الأولى و هو قوله: **مَنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** إتّبعه دليل الهداية في هذه الآية الى آخر ما قال انتهىٰ

**أقول** أمّا قوله أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أوّلاً، فهو حقّ لا مرية فيه إلاّ أنّ البحث فيه قد مضى في الآية السّابقة حيث قال: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** و لا كلام لنا فيه فعلاً.

و أمّا قوله ثم بالهداية ثانياً، فلا نعلم مقصوده بل لا نفهم معناه و أيُّ إستدلالٍ بالهداية على وجود الصّانع و المفروض أنّ الهداية لا تكون إلاّ بعد الوجود فلو كان الوجود أيضاً بالهداية لزم الدَّور و توضيحه أنّ الهادي معناه

١- الانبياء = ١٠٩ ٢- الشعراء = ٧٨
٣- طه= ٥٠ ٤- الاعلى = ١/٢/٣

ذاتٌ ثبت له الهداية و حيث أنّها صفة للّذات فلا محالة توجد بعد وجوده، مثلاً نقول أنّ اللّه يهدي للحقّ، فثبت الهداية له تعالى و لا شكّ أنّه موجود قبل الهداية لا بها للزوم الدَّور.

فقول الرّازي ثمّ بالهداية ثانياً لا معنى فأنّ الهداية لا تثبت بها وجود الصّانع.

و أن شئت قلت الهداية لا تكون بعد الوجود فلو كان الوجود ثبت بها يلزم الدَّور و عليه فالآية المبحوثة عنها ليست بصدد إثبات الصّانع أصلاً و أنّما هي بصدد إثبات أنّ الموصول الى الحقّ لا يمكن إلاّ بالهداية اليه من قبله تعالى و اليه الأشارة بقوله: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ** و الفرق بين إثبات وجود الصّانع و بين الوصول الى الحقّ واضح.

و أمّا قول الرّازي لأنّ الإنسان له جسد و روح فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و بأحوال الرّوح هو الهداية كلام بلا محصّل.

نعم لو قال تعالى في الرّوح ما قاله في خلق الجسد لتَّم ما ذكره و لم يقل ذلك إذ ليس في الآية بحث في الرّوح بل البحث في الهداية و أعجب من ذلك قوله بعد ما نقلناه عنه و أعلم أنّ المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للرّوح الى آخر ما قال و لم يعلم أنّ حصول الهداية للرّوح لا ربط له بإثبات الصّانع بالهداية إذا عرفت هذا.

فنقول أنّ اللّه تعالى إستدلّ على بطلان مذهب المشركين بأمرين:

**أحدهما**: أنّ المعبود الحقيقي هو الّذي يبدأ الخلق ثم يعيده و هو منحصرٌ باللّه تعالى و ما سواه مخلوق له كائناً ما كان و حيث أنّ الأصنام و الأوثان و الشَّمس و القمر و النُّجوم كلّها في سلسلة المخلوق و المخلوق لا يكون خالقاً فلا يكون معبوداً.

**ثانيهما**: مسألة الهداية و توضيحها أنّ الهداية الى الحقّ لا يتحقق إلاّ ممّن كان مع الحقّ و أمّا من كان باطلاً فكيف يهدي الى الحقّ و عليه فكلّ ما إتّخذوه

شركاء للحقّ فهو في حدّ نفسه باطل، إلاّ كلّ شيءٍ ما خلا اللّه باطل، و الباطل لا يهدي الى الحقّ و ما لا يهدي اليه لا يتّبع فالباطل لا يتّبع و هو المطلوب.

فهذه الآية ليست بصدد إثبات الصّانع بل هي بصدد إثبات أنّ الوصول الى الحقّ لا يمكن إلاّ بسبب الهداية اليه و اللّه تعالى هو الهادي اليه لا الأصنام و الأوثان، فكأنّ اللّه تعالى قال لنبيّه قل لهؤلاء المشركين إتّخذوا من يهديكم الى الحقّ و هو اللّه تعالى و أتركوا ما لا يهديكم اليه و هو جميع الأوثان و الأصنام و غيرها بعنوان المعبوديّة و هذا هو المستفاد من الآية الشريفة.

**أن قلت** ما معنى هداية اللّه و كيف يهدي الى الحقّ.

**قلت** معنى الهداية في حقّه تعالى هو إرشاده العباد الى الحقّ بسبب أنبياءه و أولياءه فأنّ هدى الرّسول هو هدى اللّه بعينه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ اٰتيٰكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[1] و هذا في حقّ الرّسول ممّا لا كلام فيه.

و أمّا بعد الرّسول فهل اللّه يهدي للحقّ أم لا.

و الجواب مثبت حقّاً و عليه نقول هداية اللّه و إرشاده الخلق بعد الرّسول بسبب خليفة الرّسول فالخليفة قائم مقام الرّسول في هداية الخلق بأمرٍ من اللّه تعالى و من كان هادياً الى الحقّ يكون مع الحقّ قطعاً لأنّ معطي الشّيء لا يكون فاقداً له فخليفة الرّسول لابدّ من أن يكون مع الحقّ و هادياً اليه فالخلافة بعد الرّسول تحت عنوان الهداية تنحصر بأمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السّلام لأنّه كان مع الحقّ بشهادة الرّسول لقوله ﷺ فيه علّيٌ مع الحقّ و الحقّ معه يدور معه حيثما دار، و قد نقله جميع أرباب الحديث من العامّة و الخاصّة فهو من المتواتر بل فوق التواتر و إذا كان مع الحقّ و الحقّ معه فهو لا يهدي إلاّ الى الحقّ و من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتّبع ممّن لا يهدى إلاّ أن يهدى بصريح الآية.

---

١- الحشر=٧

فمالكم كيف تحكمون فالآية دالّة على أنّ الإمام و الهادي بعد الرّسول هو علّي بن أبي طالب عليه السلام و يثبت هذا الحكم لغيره من الأئمّة المعصومين أيضاً لوجود الملاك فيهم و لعدم القول بالفصل هذا ما إستفدناه من الآية الشريفة و هو يكفي:

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى اَلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اَللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**[٢].

ثمّ أنّهم ذكروا في الآية مسائل لابدّ من التنبيه عليها:

**الأُولىٰ**: قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً **يَهدي** بفتح الياء و سكون الهاء و تخفيف الدّال و قرأ أهل المدينة، إلاّ و رشاً بفتح الياء و سكون الهاء و تشديد الدّال وقَرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمر و وورش بفتح الياء والهاء و تشديد الدّال و قرأ يعقوب و حفص و الأعشىٰ و البرجمي بكسر الياء و كسر الهاء و تشديد الدّال و لكلٍّ وجهٌ وجيه.

**الثّانية**: هذه التّي إتّخذوها ألهة لا تهتدي و إن هديت لأنّها موات من حجارةٍ و أوثانٍ ونحو ذلك فكيف قال تعالىٰ: **أَمْ مَنْ لاٰ يَهِدِّيٓ إِلآّٰ أَنْ يُهْدىٰ**.

قيل في الجواب تقدير الكلام علىٰ أنّها إن هديت إهتدت و أن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنّهم لمّا إتّخذوها ألهة عبّر عنها كما يعبّر عن الّذي يجب له العبادة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ شَيْئاً وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اَسْتَجٰابُوا لَكُمْ**[٤].

---

١- ق =٣٧
٢- النّور =٤٠
٣- النّحل =٧٣
٤- سورة فاطر أية ١٤

فأجري عليه اللّفظ كما يجري على من يعلم كأنّه قال أم من لا يهدي إلاّ أن يهدى أي أم من لا يعلم حتّىٰ يعلم قالوا و أراد اللّه بذلك تعجيبهم من أنفسهم و تبيين جهلهم قلّة تمييزهم في تسويتهم من لا يعلم و لا يقدر باللّه القادر العالم كما أنّ الأمّة بعد رسول اللّه فعلت ذلك فلا فرق بين من فعل أو يفعل ذلك و بين المشركين الّذين أشركوا و سوّوا بين الخالق الهادي الى الحقّ و غيره ممّن لا يوصف به.

**الثّالثة**: قوله: **أَمْ مَنْ لٰا يَهِدِّيٓ إِلّٰآ أَنْ يُهْدٰى** بفتح الياء و كسر الهاء و تشديد الدّال أصله يهتدي فأدغم التّاء في الدّال و هو واضح.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى منشأ هذا الإنحراف و الخطأ الّذي صدر منهم فقال:

**وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلّٰا ظَنًّا إِنَّ اَلظَّنَّ لٰا يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ**

يَتَّبِع بفتح الياء والتّاء المشدّدة من الإتّباع و الظّن إسم لما يحصل عن إمارةٍ و متى قويت أدّت الى العلم و متى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التّوهم و الفرق بين الظّن و الشكّ هو أنّ الشكّ إعتدال النّقيضين عند الإنسان و تساويهما و ذلك قد يكون لوجود إمارتين متساويتين عند النّقيضين أو لعدم الإمارة فيهما.

و أمّا الظّن فهو رجحان أحد النّقيضين عند الإنسان و عدم تساويهما و كلمة، ما، في قوله: **وَ مٰا يَتَّبِعُ** للنّفي بمعنى ليس أي ليس يتّبع أكثر هؤلاء الكفّار إلاّ الظّن و أنّما قال: **أَكْثَرُهُمْ** ولم يقل جميعهم أو كلّهم مثلاً قيل لأنّ منهم من تبّصر و رفضها كما قال:

أرَبُّ يَبُول الثّعلبان برأسه لقد هانَ مَن بالَت عليه الثّعالب

و قيل المراد بأكثرهم جميعهم و المعنى ما يتّبع أكثيرهم في إعتقادهم في اللّه و فى صفاته إلاّ ظنّاً ليسوا متبّصرين و لا مستندين الى برهان أنّما ذلك شئ تلّقفوه من أباءهم.

و قيل المعنى و ما يتّبع أكثرهم في جعلهم الأصنام ألهة و إعتقادهم أنّها تشفع عند اللّه و تقرّب اليه و بالجملة تضّمنت الآية التهديد و الوعيد على إتّباع الظّن و تقليد الأباء ففي الآية دلالة على عدم كفاية الظّن في العقائد هكذا قيل و قال الرّازى.

**المسألة الأولى**: تمّسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا العمل بالقياس عملٌ بالظّن فوجب أن لا يجوز لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا** أجاب فثبتوا القياس فقالوا الدليل الّذي دلّ على وجوب العمل بالقياس دليلٌ قاطعٌ فكان لوجوبٍ معلوماً فلم يكن العمل به مظنوناً بل كان معلوماً أجاب المستدلّ عنه فقال لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً للّه تعالى لكان ترك العمل به كفراً لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ**[1] ولمّا لم يكن كذلك بطل العمل به و قد يعبّرون عن هذه الحجّة بأن قالوا الحكم المستفاد من القياس إمّا أن يعلم كونه حكماً للّه تعالى أو يظّن أو لا يعلم و لا يظّن.

الأوّل: باطل و إلاّ لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ**[2] و بالإتّفاق ليس كذلك.

الثّانى: باطل لأنّ العمل بالظّن لا يجوز لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا**.

الثّالث: باطل لأنّه اذا لم يكن معلوماً أو مظنّوناً كان مجرّد التّشهي و هو باطل لقوله تعالىٰ: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ**[3] و أجاب فثبتوا القياس بأنّ حاصل هذا الدليل يرجع الى التّمسك بالعمومات و التّمسك بها لا يفيد إلاّ الظّن فلمّا كانت هذه العمومات دالّة على

١- المائدة= ٤٤
٢- المائدة= ٤٤
٣- مريم = ٥٩

المنع من التّمسك بالظّن لزم كونها دالّة على المنع من التّمسك بها و ما أفضى بثوبته الى نفيه كان متروكاً انتهىٰ.

**أقول** بطلان العمل بالقياس لا يحتاج الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ العقل السّليم يدلّ على بطلانه فأنّ الدين لا يصاب بالعقول ولقوله تعالىٰ: : **وَ مٰآ اٰتيٰكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** و القياس ممّا لم يأت به الرّسول.

**ثالثاً**: أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعية فلا يقاس حكمٌ منها بحكم أخر.

**رابعاً**: أنّ أوّل من قاس هو إبليس حيث قال: **خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**[1] فقاس النّار بالطّين و حكم بأنّها أفضل و أشرف منه فكيف أمره اللّه بالسّجود لادم و قد ورد في الحديث أنّه ليس من أمر اللّه أن يأخذ دينه بهوى و لا رأي و لا مقاييس.

قيل ذكر المقاييس بعد الرّأي من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لشّدة الإهتمام و محصّل الكلام هو أنّ اللّه قد ذمّهم على متابعة الظّن في الإعتقادات إيماءٌ الى أنّ الإعتقاد بالتوحيد و النّبوة و القيامة و الإمامة لابدّ من أن يكون على سبيل القطع و اليقين لا على سبيل الظّن و التّخمين و هذا ممّا أطبق عليه الكلّ من العامّة و الخاصّة و أمّا القياس فأنّه يؤخذ به في الفروع لا في الأصول فما ذكره الرّازي لا وجه له إلاّ على القول بأنّ الظّن في الآية لا يختّص بالأصول بل هو عامّ يشمل الأصول و الفروع و للبحث فيه مقام أخر و لنرجع الى تفسير الآية و نقول.

قوله: **وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلّٰا ظَنًّا** أي أكثر الكفّار و الملحدين و أنّما قال أكثرهم و لم يقل جميعهم أو كلّهم لأنّ بعضهم رجع عن الكفر و الإنكار و أنّما قال ظنّاً على سبيل التّنكير ولم يقل إلاّ الظّن لإفادة النّوع أي و ما يتّبع أكثرهم

١- الاعراف =١٢

إلاّ نوعاً من الظّن بمعنى أنّه نوع خاصّ و ليس من الظّنون المعتبرة التّي تقوم مقام القطع في بعض الموارد وقوله: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا** ليس علىٰ إطلاقه لأنّه يقوم مقام العلم مع عدم إمكان وجوده.

نعم أنّه لا يقوم مقام العلم مع وجوده أو إمكان وجوده فالمعنى أنّ الظّن لا يغني من الحقّ شيئاً في أكثر الموارد و أمّا في بعضها فهو يقوم مقام العلم فيجب العمل به.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ففيه ضربٌ من التّهديد و التّخويف لأنّه تعالى أخبر في هذا الكلام أنّه يعلم ما يفعلونه و لا يخفى عليه منه شئ فيجازيهم على جميعه على الطّاعة بالثّواب و على المعصية بالعقاب هذا تمام الكلام في تفسير الآية و للبحث في الظّن و أقسامه و ما هو حجّة منه و ما هو ليس بحجّة محلّ أخر يأتي في موضعه.

■

وَ مٰا كٰانَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنُ أَنْ يُفْتَرٰى مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ لٰا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمٰا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لٰا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لٰا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَ لَوْ كٰانُوا لٰا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَظْلِمُ ٱلنّٰاسَ شَيْئًا وَ لٰكِنَّ ٱلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾



**اللّغة**

يُفْتَرٰى، الإفتراء الإخبار على القطع بالكذب و هو مأخوذ من فري لأديم وهو قطعه بعد تقديره.

بَرِيءٌ البراءة قطع العلقة التّي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدّين و البراءة من العيب في البيع.

تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ الأصم المفسد السَّمع بما يمنع من إدراك الصَّوت و قد صمّ يصمّ صمماً، والسَّمع إدراك الشّئ بما به يكون مسموعاً و الباقي واضح.

## ◄ الأعراب

وَ مَا كَانَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنُ هذا إسم كان و القرأن نعتٌ له أو عطف بيان و أَنْ يُفْتَرٰى فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه خبر كان أي و ما كان القرآن إفتراءً و المصدر هنا بمعنى المفعول أي مفترى.

الثّانى: التّقدير ما كان القرآن ذا إفتراء.

الثّالث: أنّ، أن، خبر كان محذوف و التّقدير ما كان هذا القرآن ممكناً أن يفترى و قيل التّقدير، لأن يفترى، و(تصديق) مفعول له أي و لكن أنزل للتّصديق.

تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ مثل التصديق لَا رَيْبَ فِيهِ حال من الكتاب و الكتاب مفعول في المعنى و يجوز أن يكون مستأنفاً مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ يجوز أن يكون حالاً أخرى، و أن يكون متعلّقاً بالمحذوف أي و لكن أنزل من ربّ العالمين كَيْفَ كَانَ كيف خبر كان و عٰاقِبَةُ إسمها مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ الجمع محمول على المعنى أي على معنى، من، و الأفراد في قوله تعالى مَنْ يَنْظُرُ محمول على لفظها.

## ◄ التّفسير

وَ مَا كَانَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنُ أَنْ يُفْتَرٰى مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ نفى اللّه تعالى في هذه الآية أن يكون القرأن و هو مجموع ما بين الدَّفتين الّذي أنزل اللّه على نبيّه صلى الله عليه وآله مفترى من دون اللّه و لا يبعد أن يكون هذا الكلام في جواب قولهم، إئت بقرأنٍ غير هذا أو بدّله و قد تقدّم الكلام فيه و كان من قوله أنّه إفتراء إفتراه

الرّسول على اللّه فقال تعالى في الجواب و ما كان هذا القرأن أن يفترى أي ما صحَّ و لا إستقام أن يكون هذا القرأن المعجز مفترى و فى الإشارة بهذا تفخيم المشار اليه وتعظيمه وكونه جامعاً للأوصاف التيّ يستحيل وجودها فيه أن يكون مفترى.

**وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ اَلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ اَلْكِتٰابِ لٰا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ**

وقعت، لكن، هنا أحسن موقع اذا كانت بين نقيضين و هما الكذب و التّصديق المتّضمن الصّدق و الذّي بين يديه، الكتب الإلهية المتقدّمة من التوراة و الإنجيل و الصُّحف و غيرها فأنّ القرأن مصدّق لها.

و قيل و الذّي بين يديه هو أشراط الساعة و هو ضعيف لأنّ البرهان على قريش لا يقوم إلاّ بتصديق القرأن ما في التوراة و الإنجيل مع أنّهم كانوا يقطعون بأنّ الآتي به لم يطالع تلك الكتب و لا غيرها و لا هي في بلده و لا قومه لا بتصديق الأشراط لأنّهم لم يشاهدوا شيئاً منها.

و قوله: **وَ تَفْصِيلَ اَلْكِتٰابِ** قيل هو تبيين ما فرض وكتب فيه من الأحكام و الشّرائع و ذلك لأنّ التّفصيل التّبيين أي يبيّن القرأن ما في كتب المتقدمة و الكتاب إسم للجنس و قوله: **لٰا رَيْبَ فِيهِ** الهاء عائدة للقرأن أي لا شكّ في نزوله من قبل اللّه تعالى فهذا تفسير ألفاظ الآية.

**و إعلم** أنّه تعالى نفى في هذه الآية أن يكون هذا القرأن مفترى من دون اللّه و توضيح ذلك هو أنّ المفترى هو الذّي يأتي به البشر و القرأن معجز لا يقدر على الإتيان به بشر.

فلا محالة هو كلام اللّه و هو المطلوب.

فحاصل هذا الكلام أنّ هذا القرأن لا يقدر على الإتيان به أحدٌ من قبل نفسه إلاّ اللّه تعالى كما قال: **قُلْ لَئِنِ اَجْتَمَعَتِ اَلْإِنْسُ وَ اَلْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا**

**اَلْقُرْاٰنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[1].

و ما كان كذلك لا يكون مفترى و إن شئت قلت لا شكّ في وجود القرأن و أنّه مرّكب من الحروف و الكلمات و كلّ كلام لابدّ له من متكلّم لأنّ التكلّم صفة و هي محتاجة الى الموصوف و المتكلّم بهذا الكلام أعنى به القرأن لا يخلو إمّا أن يكون الخالق و أمّا أن يكون المخلوق لا سبيل الى الثّاني فالأوّل ثابت المطلوب فلا معنى للإفتراء أصلاً.

**أَمْ يَقُولُونَ اَفْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ اَدْعُوا مَنِ اَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**

قيل أم، هنا تقرير على موضع الحجّة بعد مضّي حجّةٍ أخرى و تقديره بل أتقولون إفتراه فالزموا على هذا الأصل الفاسد إمكان أ يأتوا بمثله فالهمزة تقرير لإلتزام الحجّة عليهم أو إنكار لقولهم و استبعاد و قالت فرقة أم هذه بمنزلة همزة الإستفهام.

و قال أبو عبيدة أم، بمعنى الواو أي و يقولون إفتراه و قيل الميم، صلة و التّقدير أيقولون، و قيل أم، هي المعادلة لِلهَمزة و حذفت الجملة قبلها و التّقدير أيقرّون به أم يقولون إفتراه.

و أمّا قوله: **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** فقال الزّمخشري، فأتوا جملة شرط محذوفة فقال أن كان الأمر كما تزعمون فأتوا أنتم على وجه الإفتراء بسورةٍ مثله فأنتم مثله في العربية والفصاحة.

**أقول** معنى الكلام واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنّهم إدّعوا الإفتراء و معنى الإفتراء الإخبار على القطع بالكذب أي أنّ إنتسابه الى اللّه كذبٌ و ليس من كلام اللّه و اذا كان كذلك فهو كلام المخلوق و أنتم أيضاً منهم و حكم الأمثال واحد فأتوا بسورةٍ مثله و حيث لا تقدرون عليه فيعلم أنّه ليس كلام المخلوق

١- الإسراء =٨٨

فإذن هو كلام اللّه و هو المطلوب و بعبارةٍ أخرى مجرّد الإنكار لا يكفي في مقام البرهان بل هو ناشٍ عن الضّعف و العناد.

ثمّ أكمل الحجّة عليهم بقوله: **وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي أن كنتم أيّها المكذّبون لا تقدرون على الإتيان بمثله فأدعوا من إستطعتم من العلماء و الفصحاء و البلغاء من دون اللّه إن كنتم صادقين في دعواكم و اذ ليس فليس و حيث إنجرّ الكلام الى هنا لا بأس بالإشارة الى ما لابدّ من ذكره في إعجاز القرأن فنقول:

روي المجلسي قدس سره في البحار في باب إعجاز القرأن ما أورده القطب الرّاوندي قدس سره في الباب و نحن نذكره في المقام فأنّه كافٍ شافٍ قال رحمه الله.

**إعلم** أنّ كتاب اللّه المجيد ليس مصّدقا لنّبي الرّحمة خاتم النبيين فقط بل هو مصدّق لسائر الأنبياء و الاوصياء قبله و سائر الأوصياء بعده جملة و تفصيلاً و ليس جملة الكتاب معجزة واحدة بل هو معجزات لا تحصى و فيه إعلام عدد الرّمل و الحصى لأنّ أقصر سورةٍ أنّما هو الكوثر و فيه الإعجاز من وجهين:

**أحدهما**: أنّه قد تضّمن خبراً عن الغيب قطعاً قبل وقوعه فوقع كما أخبر عنه من غير خلفٍ فيه و هو قوله: **إِنَّ شٰانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ** لمّا قال قائلهم أنّ مُحمّداً اذا مات إنقطع ذكره و لا خلف له يبقى به ذكره فعكس ذلك على قائله و كان كذلك.

**الثّاني**: من طريق نظمه لأنّه على قلّة حدد حروفه وقِصر أياته يجمع نظماً بديعاً و أمراً عجيباً و بشارةً للرّسول و تعبّداً للعبادات بأقرب لفظٍ و أوجز بيانٍ.

ثمّ أنّ السُّور الطُّوال متضمّنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظماً و جزالةً و خبراً عن الغيوب و لذلك لا يجوز أن يقال أنّ القرأن معجزاً واحد و لا ألف معجز أضعافه الى أن قال ثمّ الإستدلال بأنّ القرأن معجز لا يتّم إلاّ بعد بيان خمسة أشياء:

**أحدها**: ظهور محمّد ﷺ بمكّة و إدّعاءه أنّه مبعوث الى الخلق و رسولٌ اليهم.

**ثانيها**: تحديّه العرب بهذا القرأن الذّي ظهر على يديه و إدّعاءه أنّ اللّه أنزله عليه و خصّه به.

**ثالثها**: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

**رابعها**: أنّهم لم يعارضوه للتّعذر و العجز.

**خامسها**: أنّ هذا التّعذر خارق للعادة فاذا ثبت ذلك فإمّا أن يكون القرأن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته و لذلك لم يعارضوه أو لأنّ اللّه صرفهم عن معارضتهم و لولا الصّرف لعارضوه و ساق الكلام الى أن قال.

و أمّا وجه إعجاز القرأن فإعلم أنّ المسلمين إتّفقوا على ثبوت دلالة القرأن على النّبوة و صدق الدّعوة و إختلف المتكلّمون في وجه إعجاز القرأن على سبعة أوجه فقد ذهب قوم الى أنّه معجزٌ من حيث كان قديماً أو لأنّه حكاية للكلام القديم و عبارة عنه فقولهم أظهر فساداً من أن يختلط بالمذاهب المذكورة في إعجاز القرأن فأوّل ما ذكر من تلك الوجوه ما إختار المرتضى أنّ وجه الإعجاز في القرأن أنّ اللّه صرف العرب عن معارضته و سلبهم العلم بكيفيّة نظمه و فصاحته وقد كانوا لولا هذا الصّرف قادرين على المعارضة متّمكنين منها.

**الثّانى**: ما ذهب اليه المفيد رحمه الله و هو أنّه أنّما كان معجزاً من حيث إختّص برتبةٍ في الفصاحة خارقة للعادة قال لأنّ مراتب الفصاحة أنّما تتفاوت بحسب العلوم التّي يفعلها اللّه في العباد فلا يمتنع أن يجري اللّه العادة بقدرٍ من المعلوم فيقع التّمكين بها من مراتب الفصاحة محصورة متناهية و يكون مازاد على ذلك زيادة غير معتادة معجزاً و خارقاً للعادة.

**الثّالث**: ما قال قوم و هو أنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرّة على النّظر و موافقة للعقل.

**الرّابع**: أنّ جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الإختلال و التّناقض على وجهٍ لم يجر العادة بمثله.

**الخامس**: ما ذهب اليه أقوام و هو أنّ جهة إعجازه أنّه يتّضمن الإخبار عن الغيوب.

**السّادس**: ما قاله الأخرون و هو أنّ القرأن أنّما كان معجزاً لإختصاصه بنظمٍ مخصوص مخالفاً للمعهود.

**السّابع**: ما ذكره أكثر المعتزلة و هو أنّ تأليف القرأن و نظمه معجزات لأنّ اللّه أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد و قد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه لكن محال و قوعه منهم كإستحالة إحداث الأجسام و الألوان و إبراء الأكمه و الأبرص من غير دواء انتهى ما أردنا ذكره من كلامه و أن شئت الإطّلاع على تفصيل كلامه فعليك بالبحار باب وجوه إعجاز القرأن أو بكتابه الموسوم بالخرائج فأنّه قد حقّق البحث فيه بما لا مزيد عليه و اذا عرفت الوجوه السّبعة التّي ذكرها المتكلّمون فنقول:

ما ذكروه لا بأس به و الحقّ أنّ إعجاز القرأن لا يختصّ بوجه دون وجهٍ بل هو معجز من جميع الوجوه المذكورة و غيرها.

## بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

أي أنّ الكفّار كذّبوا النبي في قولهم أنّ محمّداً إفترى هذا القرأن و لم ينزله اللّه عليه، بما لم يعلموه من كلّ وجوهه و فيه إشارة الى أنّ تكذيب القول أو تصديقه أنّما هو بعد إستماعه و معرفة مراد المتكلّم و أمّا قبل المعرفة فلا معنى للتكذيب أو التّصديق و هذا ممّا يحكم به العقل السليم و أمّا هؤلاء الكفّار فقد كذّبوا النّبي بما لم يحيطوا بعلمه أى لم يعلموا ما المراد منه و الجاهل بالمراد كيف يكذّب المتكلم.

و بعبارةٍ أخرى فهم المراد من القرأن يحتاج الى الفكر و الذّوق و خلُوا

الذِّهن عن العناد و النّفاق و الرّجوع الى الرّسول في معرفة مراد المتكلّم و ذلك مثل المتشابه و الكفّار لمّا لم يعرفوا المراد بظاهره كذّبوا به و قالوا أنّه إفترى على اللّه كذباً و منشأ هذا التّكذيب ليس إلاّ الجهل المقرون بالعناد و هو خارج عن سيرة العقلاء في محاوراتهم و مباحثاتهم و مناظراتهم و الى هذه الدقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** أي أنّهم أخذوا بظواهر الألفاظ قبل الوقوف على تفسيرها و تأويلها ولم يعلموا أنّ كثيراً من الأيات من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و ليس هذا التّكذيب مختصّاً بهم بل هو دأب أكثر الجهّال المعاندين في كلّ عصرٍ و زمانٍ و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** من الأمم السّالفة كاليهود و النّصارى و المجوس و غيرهم ممّن كذّبوا الأنبياء و لم يؤمنوا بهم **فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عٰاقِبَةُ ٱلظّٰالِمِينَ** عبّر اللّه تعالى عن التّكذيب بالظّلم و هو كذلك و أيّ ظلمٍ أكبر من تكذيب الرّسل الّذي يوجب خسران الدّنيا و الأخرة.

قال بعض المفسّرين معناه أنّهم طلبوا الدّنيا و تركوا الأخرة فلمّا ماتوا فاتتهم الدّنيا.

و الأخرة و قال الآخر المراد منه عذاب الإستئصال و هو الّذي نزل بالأمم الّذين كذّبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيا، و المعنى واضح.

**تَنبيهٌ**

نقل الرّازي عن بعض أهل التحقيق أنّه قال، قوله: **وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** يدلّ على أنّ من كان غير عارفٍ بالتأويلات وقع في الكفر و البدعة لأنّ ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الإنسان وجه التّأويل فيها وقع في قلبه أنّ هذا الكتاب ليس بحقٍّ أمّا إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نوراً على نورٍ يهدي اللّه لنوره من يشاء انتهى كلامه.

**و أنا أقول** ما ذكره من أنّ غير العارف بالتأويل يقع في الكفر و البدعة ممّا لا كلام فيه بل هو متينٌ جدّاً و أنّما الكلام في العارف بالتأويل و أنّه من هو، بعد رسول اللّه و هل يجوز لأحدٍ من علماء الأمة تأويل الأيات من عند نفسه أو لا يجوز بعد قوله تعالىٰ: **وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اَللّٰهُ وَ اَلرّٰاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ**[1] و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قد خصّ علم التأويل بالراسخين في العلم.

و من المعلوم المسلم عند المنصف الّذي له فطرة مستقيمة أنّ الرّاسخين في العلم هم الذين قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في حقهم علىٰ ما نقله الموافق و المخالف، **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتُم بها لَن تضلّوا أبداً لَن يَفترقا حتّىٰ يَردا علَيَّ الحَوض**، جعل الرّسول في هذا الحديث التّمسك بالكتاب و العترة موجباً لعدم الضّلالة فهو يدلّ مفهوماً على أنّ ترك التّمسك بهما يوجب الضّلالة و الغواية و لا شكّ أنّ العترة وهم أهل بيته صلى الله عليه و آله أعرف بالقرآن تفسيراً و تأويلاً و تنزيلاً من غيرهم كائناً من كان فقوله تعالىٰ: **وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** أي لمّا يأتهم تأويله من عند الرّسول أو من عترته و أهل بيته المعصومين فأن كان مراد الرّازي من نقله هذا المعنى فهو حقّ و أن كان مراده غيرهم فهو باطل مردود اليه فقوله من كان غير عارف بالتّأويلات وقع في الكفر و البدعة حقّ و لازم ذلك أنّ التّأويلات الّتي ذكرها غير أهل البيت كائناً من كان بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله تكون باطلة و صاحبها وقع في الكفر و البدعة من حيث لا يحتسب و جميع المفسرين من العامة من هذا القبيل لأنّهم لم يتبعوا أهل البيت في تفسير القرآن و تأويله.

و الرّازي منهم و سيأتي لهذا البحث زيادة توضيح في موضعه إن شاء اللّه.

**وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**

١- آل عمران = ٧

كلمة، مِن، في الموضعين للتّبعيض أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ هؤلاء الكفّار الّذين كذّبوا بالقرآن و نسبوه الى الإفتراء بعضهم سيؤمن به في المستقبل وبعضهم لا يؤمن به بل يموت على كفره و الضّمير في قوله: **بِهِ** راجع الى القرآن لأنّه المكذّب على ألسنتهم واقعاً و قيل يرجع الى الرّسول و الأوّل أظهر مع أنّ المآل واحد فأنّ تكذيب أحدهما تكذيب الآخر و تصديق أحدهما تصديق الآخر.

و أمّا قوله: **وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** فالمراد بهم من يدوم على الكفر الّذي هو من أعظم الفساد في الأرض.

قال بعض المفسرين و أنّما جاز أن يقول، أعلم، و أن لم يكن هناك كثرة علوم لأحد أمرين:

**أحدهما**: أنّ الذّات تغني عن كلّ علمٍ.

**الثّاني**: أنّه يراد كثرة العلوم انتهى.

**أقول** لا نحتاج الى هذا الكلام أصلاً لأنّ معنى قوله: **أَعْلَمُ** أي أنّه تعالى أعلم بحال الطّائفتين في المستقبل منّك و من غيرك لأنّه تعالى قد أحاط بكلّ شئٍ علماً و لا يعلم الغيب إلاّ هو و لا يطّلع على الضّمائر إلاّ هو و هذا واضح لا خفاء فيه فهو من قبيل قوله: **إِنّيَ أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**.

قال القرطبي في قوله: **وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** قيل المراد أهل مكّةقوله: **وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ** و المعنى و منهم من يصّر على كفره حتّى يموت كأبي طالب و أبي لهب و نحوهما، و قيل المراد أهل الكتاب و قيل هو عامّ في جميع الكفّار انتهى.

**أقول** أنظر الى هذا المعاند الخبيث حيث مثّل فيمن يصّر على كفره حتى يموت بأبي طالب و أبي لهب، فجعل أبا طالب كأبي لهب الّذي كان من أعداء اللّه و أعداء رسوله و قال تعالى في حقّه **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ** الخ... و ليت شعري أيّ ذنبٍ كان لأبي طالب عند هؤلاء القوم المطرودين المبعدّين عن

جوار رحمة ربّ العالمين حيث يمثّلون بأبي طالب مع أنّ الكفّار الّذين بقوا على كفرهم و ماتوا عليه كانوا كثيرين جدّاً و من أين ثبت لهم كفره و البقاء عليه حتّى مات.

نعم له ذنبان لا محيص له عنهما بزعمهم.

**أحدهما**: أنّه تكفّل النّبي صلى الله عليه وآله في بيته و ساعده على دعوته و ذبّ عنه أعداءه.

**ثانيهما**: أنّه والد أمير المؤمنين علّي بن أبى طالب عليه السلام الذّي كان أوّل من آمن باللّه و رسوله و جاهد في سبيل اللّه حقّ جهاده و قتل الكفّار و المشركين حتّى إنتشر الإسلام في جزيرة العرب و غيرها و لعمري هذا من أعظم الذُّنوب عند مخالف الإسلام و معانده و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

**وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيؤُنَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيٓءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**

خاطب اللّه تعالى نبيّه فقال له و أن كذّبوك هؤلاء الكفّار بعد تماميّة الحجّة عليهم كما هو شأن المعاند فأتركهم و قل لهم، لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل أي لا تقبلون عملي و لا تحكمون بصحته و أنا بريٌ ممّا تعملون و فائدة ذلك الأخبار هي أنّه لا يجازي أحد إلاّ على عمله و لا يؤخذ أحدٌ بجرم غيره:

كما قال تعالىٰ: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**[1].

و أمّا البراءة فهي قطع العلقة الّتي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدِّين و البراءة من العيب في البيع و هذا آخر الكلام في حقّ من لا يقبل النُّصح و الموعظة.

---

١- الأنعام=١٦٤

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واٰحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنِ اَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيٓءٌ مِمّا تُجْرِمُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اَللّٰهَ وَ اَشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ**[٤].

**وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ**

كلمة، مِن، في منهم أيضاً للتّبعيض أي و من جملة هؤلاء الكفّار من يستمع اليك قيل التّاء في يستمعون للطلب أي منهم من يطلب الإستماع منك لكن لا للفهم بل للرّد فلذلك لزمهم الذّم فهم إذا سمعوه على هذا الوجه كأنّهم صمٌّ لم يسمعوه حيث لم ينتفعوا به فأنّ الإستماع الّذي لا إنتفاع فيه فهو كالعدم لأنّ ثمرة الإستماع الإنتفاع ونع عدم الإنتفاع فهو كالشّجر بلا ثمر.

ثمّ خاطب نبّيه فقال له أفأنت تسمع الصمّ، أي أنّك لا تقدر عليه و الهمزة للإنكار و أنّما عبَّر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفّار بالصمّ و الصُّم في الأصل فقدان حاسّة السّمع و به يوصف من لا يصغى الى الحقّ و لا يقبله على سبيل المجاز و قد ورد في هذا اللّفظ في كثير من الموارد في القرآن.

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي اَلظُّلُماتِ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ شَرَّ اَلدَّوٓابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلصُّمُّ اَلْبُكْمُ اَلَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**[٧].

---

١- الأنعام=١٩
٢- هود=٣٥
٣- هود=٥٤
٤- الشّعراء=٢١٦
٥- البقرة=١٧١
٦- الأنعام=٣٩
٧- الأنفال=٢٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَسْمَعُ اَلصُّمُّ اَلدُّعٰآءَ إِذٰا مٰا يُنْذَرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰآءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى اَلْعُمْىَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ**[٣].

**أقول** ما ذكره اللّه تعالى في هذه الآية و غيرها حقّ لا مرية فيه: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّٰهِ قِيلًا**[٤] فأنّ المكذّبين المعاندين لا يستمعون للفهم و التّدبر و الخروج من الجهل و العناد الى العلم و الرّشاد في كلّ عصر و زمانٍ و من لا يؤثّر فيه كلام اللّه وكلام رسوله كيف يؤثّر فيه كلام العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء و نحن نرى في زماننا هذا كثيراً من النّاس بهذه الصّفة مع إدّعائهم الإسلام و أنت تعلم أنّ الكفر لا خصوصيّة فيه من هذه الجهة و إنّما الذّم تعلّق بالصّفة مسلماً كان الموصوف أو كافراً فإذا كان المسلم متصفاً بها فهو من مصاديق الآية قطعاً ألا ترى أنّ أبا سفيان و معاوية و غيرهما ممّن كان مدّعياً للإسلام كانوا بهذه الصّفة أشدّ من الكفّار فلم يؤثّر فيهم كلام اللّه و لا كلام رسوله مع أنّهم كانوا مستمعين للرّسول كغيرهم من المؤمنين فما الفرق بينهم و بين الكفّار في عدم قبولهم قول اللّه و قول رسوله فقوله تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ** يشمل الجميع بل المسلم إذا كان متصّفاً بهذه الصّفة فهو أخبث و أضّل من الكافر لكونه من المنافقين و قد ثبت أنّهم أضّر على الإسلام من الكافر و الإنصاف أنّ أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا ممّن يستمعون الى الرّسول لا للفهم بل للرّد و الإستهزاء و الإنكار و قليل من عبادي الشّكور و لتوضيح ذلك نقول أيّ فرقٍ بين من أنكر دعوة الرّسول رأساً ولم يؤمن به ظاهراً و باطناً و من قبل دعوته

١- الأنبياء=٤٥ ٢- الرّوم=٥٢
٣- الزّخرف=٤٠ ٤- النساء= ١٢٢

ظاهراً و أنكرها قلباً و باطناً أليس الكُل ممّن يستمع و لم ينتفع به و بعبارةٍ أخرى ما الفرق بين أبي جهل و أبي لهب و أمثالهما و أبو سفيان و معاوية و أمثالهما من جهة الإستماع و عدم الإنتفاع به حتّى يقال أنّ الآية مختصّة بالكفّار نعم موردها خاصّ بهم و أمّا معناها فعامٌ بلا كلام و نحن نشاهد مصاديقها في زماننا هذا أكثر من أن تحصى.

**وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ**

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ بعضهم ينظر اليك قيل أي ينظر الى أدلّتك و قيل ينظر الى وجهك و النَّظر يكون بمعنى الإعتبار و الفكرالموازنة بين الأمور حتّى يظهر الرّجحان أو المساواة.

قال، إبن عبّاس نزلت الآية و سابقتها في النّضر بن الحرث و غيره من المستهزئين و قال، إبن الأنباري في قومٍ من اليهود و هذه الآية فيها تقسيم من لا يؤمن من الكفّار الى هذين القسمين بعد تقسيم المكذّبين الى من يؤمن لا يؤمن و الضّمير في يستمعون عائد على معنى، من، و في قوله: **يَنْظُرُ إِلَيْكَ** الىٰ لفظ، من، و لذلك لم يخبر بلفظ الجمع لأنّه حمله على اللّفظ و اللّفظ لفظ الواحد و هو الأكثر في لسان العرب و المعنى أنّهم عمي فلا تقدر على هدايتهم لأنّ السّبب الّذي يهتدي به الى رؤية الدّلائل قد فقدوه و هذا قد جمع بين فقدان البصر و البصيرة و هذه مبالغة عظيمة في إنتفاء قبول ما يلقي الى هؤلاء إذ جمعوا بين الصُّم و إنتفاء العقل و بين العمى و فقد البصيرة.

**أقول** و العمري هذا أيضاً كثير في النّاس و لا يختصّ بالكفّار كما قلنا في الآية السّابقة حذو النّعل بالنّعل فأنّ النّظر إذا لم يكن على وجه الإستفادة فهو بمنزلة نظر الأعمى الّذي لا يبصر فكما لا يقدر الإنسان على أن يهدي الأعمى فكذلك هؤلاء لا ينتفعون بنظرهم فكأنّهم لا يبصرون فأنّ العمي آفة تمتنع من الرّؤية و هو على وجهين:

عمي القلب و عمي العين وكلاهما يصلح له هذا الحَّد.

قال القرطبي: في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه أخبر تعالى أنّ أحداً لا يؤمن إلاّ بتوفيقه و هدايته و هذا و ما كان مثله يردّ على القدرية قولهم كما تقدّم في غير موضع و قال يستمعون على معنى، من، و ينظر على اللّفظ و المراد تسلية النّبي صلى الله عليه وآله أي كما لا تقدر أن تسمع من سلب السَّمع و لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان و قد حكم اللّه عليهم أن لا يؤمنوا إنتهى كلامه.

**أقول** قوله و قد حكم اللّه عليهم أن لا يؤمنوا، كفرٌ محّض و مع ذلك غير معقول لأنّ الحكم عليهم بأن لا يؤمنوا، ظلمٌ عليهم قطعاً إذ لقائلٍ أن يقول لم حكم اللّه عليهم بأن لا يؤمنوا و حكم على غيرهم بأن يؤمنوا أليس هذا من الظُّلم الفاحش القبيح على اللّه تعالى و قد وصف نفسه في كثير من الأيات بالعدل:

قال اللّه تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**[٥].

و الآيات كثيرة و لا شكّ أنّ الحكم على أحدٍ بالإيمان و على الآخر بالكفّر ثمّ بعد ذلك ثبوت العقاب للكافر المحكوم بالكفر من أقبح أنواع الظُّلم فكيف ينسب اليه تعالى حكم عليهم بأن لا يؤمنوا، و أمّا أنّه غير معقول فلوجهين:

---

١- آل عُمران =١٨
٢- الأعراف =٢٩
٣- يُونس =٥٤
٤- آل عُمران =١٨٢ و الأنفال ٥١ و الحّج ١٠
٥- فصّلت =٤٦

**أحدهما**: أنّ العقل يحكم بخلافه في حقّه تعالى و أنّه منّزه عنه و عن كلّ قبيح كما ثبت في محله.

**ثانيهما**: أنّ اللّه تعالى أرسل اليهم الرُّسل فلو حكم عليهم بعدم الإيمان فلم أرسل الرّسول اليهم و المفروض أنّهم محكومون بالكفر الى أن يموتوا ثمّ يسئل عنهم يوم القيامة عن كفرهم الّذي حكم عليهم و لا أظنّ أنّ العاقل يرضى به و العجب من هؤلاء الجُّهال كيف حملوا كلام اللّه على هذه المحامل الرّديئة الباطلة أليس هذا منافياً للإسلام الّذي أسّسه اللّه على العدل، أليس هذا من التّفسير بالرّأي الّذي قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في حّق مفسّره، من فسّر القرآن برأيه فليتّبوأ مقعده من النّار و لأجل ما ذكرناه من نفي الجبر و ثبوت الإختيار عقلاً و شرعاً قال تعالى بعد ذلك الكلام:

**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**

فهذه الآية و أمثالها بمنزلة الرَّد على المجّبرة الّذين قالوا حكم اللّه بكفرهم، و ذلك لأنّ اللّه تعالى قد نفى الظُّلم عن نفسه و قال أنّ اللّه لا يظلم النّاس شيئاً فالحكم على الكفر بأنّهم لا يؤمنون، منفيّ بقوله، هذا و ذلك لما ثبت أنّ هذا الحكم ظلمٌ على العبد فيرجع المعنى الى أنّ اللّه لا يحكم على أحدٍ بعدم الإيمان و أمّا قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** يدلّ على أنّ عدم قبول الإيمان و بقاءهم على الكفر أنّما هو بسوء سريرتهم و إختيار هم الكفر على الإيمان إذ لولا ذلك يلزم أن يكون قوله هذا كذباً إذ للعبد أن يقول لخالقه ما ظلمت نفسي لأنّ الكفر لم يكن بإرادتي و إختياري و أنّما أنت ظلمتني حيث حكمت علَّي بالكفر فسلبت عنّي القدرة على الإيمان و إذا كان كذلك فما معنى قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**.

قال الشّيخ في التّبيان أخبر اللّه في هذه الآية على وجه التّمدح به بأنّه لا يظلم أحداً شيئاً و أنّما النّاس هُو الّذين يظلمون أنفسهم بإرتكاب ما نهى اللّه

عنه من القبائح فيستَّحقون بها عقاباً فكأنّهم الّذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم و المعنىٰ هاهنا أنّ اللّه لا يمنع أحداً الإنتفاع بما كلفّهم الإنتفاع به من القرآن و أدّلته و لكنّهم يظلمون أنفسهم بترك النظّر فيه و الإستدلال به و تفويتهم أنفسهم الثّواب و إدخالهم عليها العقاب ففي الآية دلالة على أنّه لا يفعل الظّلم لأنّ فاعل الظُّلم ظالم كما أنّ فاعل الكسب كاسب و ليس لهم أن يقولوا يفعل الظّلم و لا يكون ظالماً به كما يفعل العلم و لا يكون به عالماً و ذلك أنّ معنى قولنا، ظالم أنّه فعل الظُّلم كقولنا ضارب أنّه يفيد أنّه فعل الضّرب و كذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظُّلم في غيره.

و أمّا ما قاله القرطبي من أنّ تقدير الشّقاء عليهم و سلب سمع القلب و بصره ليس ظلماً منه لأنّه تصَّرف في ملكه بما شاء و هو في جميع أفعاله عادلٌ، فهو يدلّ على قلّة علمه و سوء فهمه و أنّه لم تعلم معنى الظُّلم واقعاً و ذلك لأنّ الظُّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في موضعه و محلّه و العقل السّليم يحكم بقبحه حكماً قطعيّاً و لذلك يقال أنّ قبحه من المستقلات العقليّة كما أنّ حسن العدل أيضاً من المستّقلات العقليّة الحكم من العقل ثابت قبل حكم الشّرع و لذلك نقول أنّ حكم الشّرع بقبح الظُّلم تأييدٌ للعقل لا تأسيسٌ للقبح و إذا كان كذلك فلا فرق بين صدورٌ من العبد أو من الخالق لأنّ القبيح قبيح من أيّ فاعلٍ صدر كما أنّ الحسن حسنٌ كذلك.

و أمّا قوله لأنّه تصَّرف في ملكه بما شاء، فأنّه كلام باطل لا ربط له بالمقام إذ ليس البحث في القدرة و الإختيار بل البحث في جواز صدور القبيح منه و عدم جوازه و حيث قد ثبت قبح الظُّلم عقلاً و شرعاً فيرجع البحث الى أنّه تعالى هل شاء صدور القبيح أو لا وعلىٰ ما ذكره هذا القائل فيجوز عليه تعالى الكذب و الخيانة و عدم الوفاء بالعهد و أمثال ذلك من القبائح لأنّ اللّه تصَّرف في ملكه بما شاء، و لا يقول العاقل به فضلاً عمّن يدَّعي الإسلام.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى قالوا الآية دالّة على أنّ قلوب أولئك الكفّار بالنسبة الىٰ الإيمان كالأصمّ بالنسبة الى إستماع الكلام و كالأعمى بالنسبة الى إبصار الأشياء و كما أنّه هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه قالوا و الّذي يقوّي ذلك أنّ حصول العداوة الشديدة و كذلك حصول المحبّة الشّديدة في القلب ليس بإختيار الإنسان لأنّ عند حصول العداوة الشّديدة يجد وجداناً ضرورياً أنّ القلب يصير كالأصمّ و الأعمى في إستماع كلام العدّو و فى مطالعة أفعاله الحسنة و إذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب و أيضاً لمّا حكم اللّه تعالى عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان فحنئذٍ يلزم من حصول الإيمان إنقلاب علمه جهلاً و خبره الصّدق كذباً و ذلك محال انتهىٰ كلامه.

**و أنا أقول** ما ذكره أيضاً لا يرجع الى محصّلٍ و ذلك لأنّ حصول العداوة و المحبّة في القلب معلولٌ لحصول الأسباب الموجبة لهما فإذا رأى الإنسان من غيره إحساناً أو حسن خلقٍ أو تواضع فيحُبه قهراً لوجود أسباب المحبّة و إذا رأى منه التّكبر و سوء الخلق و أمثالهما من القبائح فيبغضه لوجود أسباب البغض و العدواة.

و من المعلوم أنّ وجود العلّة يقتضي وجود المعلول و وجود السّبب يقتضي وجود المسّبب فالمحبّة و العداوة معلولان للأسباب الخارجية و لا ربط لهما بالقضاء و القدر فأن أراد بقوله أنّهما ليسا بإختيار الإنسان هذا المعنىٰ فهو صحيح و إن أراد بعدم الإختيار أنّهما بقضاء و قدره فعليه بالإثبات.

و أمّا قوله و أيضاً لمّا حكم اللّه حكماً جازماً بعدم الإيمان يلزم من حصول الإيمان إنقلاب علمه جهلاً فهو طريف منه مع إدّعاءه التّوغل في العلوم العقليّة و ذلك لأنّ من علم اللّه تعالىٰ أنّه لا يؤمن فهو لا يُؤمن قطعاً فلا يلزم الإنقلاب.

و أمّا أنّ عدم إيمانه معلول لعلمه تعالى بأنّه لا يؤمن فهو ليس كذلك لأنّ العلم الأزلي ليس علّة للفعل الخارجي الّذي صدر من المكلّف لأنّ العلم كاشف عن أنواع الواقع لا علّة للفعل فمعنى كونه تعالى عالماً هو أنّه يعلم أنّ العبد بسوء سريرته و خبث طينته و إختياره و ارادته لا يؤمن و أمّا أنّه تعالى حكم عليه بعدم الإيمان بمعنى سلب القدرة عنه فهو غير معقول و لا مشروع بل تفوح منه رائحة الكفر فقوله لمّا حكم اللّه عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان، من الإفتراء على اللّه و كذبٌ عليه.

إذ يقال لقائله، أين حكم اللّه به جازماً بعدم الإيمان.

نعم أنّه تعالى أخبر بعدم إيمانه و الإخبار بشئ غير الحكم به و العجب من هؤلاء المجبّرة حيث أنّهم يقولون في تفسير كلام اللّه ما يوافق مذهبهم و أن كان مخالفاً للعقل و الشّرع هذا ما فهمناه من الآية الشّريفة و اللّه تعالى يحكم بين العباد يوم القيامة.

■

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

والباقون بالنُّون و فى قوله: **كَأَنْ** لم يلبثوا ثلاثة أوجه:

**أحدها**: أن يكون صفة اليوم.

**الثّانى**: أن يكون للمقدّر المحذوف.

**الثّالث**: أن يكون حالاً من الضّمير في يحشرهم فإذا جعلته صفة لليوم إحتمل أن يكون التّقدير كأن لم يلبثوا قبله إلاّ ساعة كما قال: **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**[1] أي أمسكوهنّ قبله و أن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التّقدير الّذي وصفناه و أن جعلته حالا من الضّمير المنصوب في يحشرهم، لم يحتج الى حذف شئ في اللّفظ لأنّ الذّكر من الحال قد عاد الى ذي الحال و المعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث إلاّ ساعة و معنى يتعارفون، يحتمل أمرين:

**أحدهما**: أنّ المعنى يتعارفون مدّة إماتتهم الّتي وقع حشرهم بعدها و حذف للدّلالة عليه.

**الثّانى**: أن يكون يوم يحشرهم معمول ما دلّ عليه قوله: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا** لأنّ المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث فعمل في الظّرف هذا المعنى اذا عرفت هذا فنقول أنّ اللّه تعالى أخبر في هذه الآية عن المحشر و الموقف يوم يشحرهم اللّه الى المحشر **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً** بزعمهم و ذلك لقلّة بقاءهم فيها و سرعة تصرّمها مع أنّ الأمر ليس كذلك واقعاً لأنّ وقوفهم يطول يوم القيامة و علمهم بدوام بقاءهم في الأخرة.

---

١- البقرة=٢٣١

قيل شبّه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النّهار لأنّ كلّ ماهو أت قريب واقعاً قال تعالىٰ: **اَقْتَرَبَتِ اَلسّاعَةُ وَ اَنْشَقَّ اَلْقَمَرُ**[1] و فيه إيماء الى أنّ الإنسان ينبغي أن لا يغتّر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيّا و ذلك لأنّ عاقبة ذلك الى الزّوال و كلّ ما يزول فهو قريب واقعاً لا ينبغي الرّكون اليه و الّذي يختلج بالبال في معنى الآية هو أنّ قوله: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلّا سٰاعَةً**، إشارة الى عالم البرزخ لا الى الموقف كما زعموه و ذلك لأنّ الحشر بعد عالم البرزخ و عليه فالمعنى يوم يحشرهم بعد البعث و الخروج من البرزخ الى الموقف: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلّا سٰاعَةً** من النّهار بسرعة تصّرمها أي كأن لم يلبثوا في الدنيّا أو في القبور و هو كناية عن قلّة لبثهم و ذلك لهول ما يعاينون من شدائد القيامة أو لطول يوم القيامة و وقوفهم للحساب.

قال إبن عبّاس رأوا أنّ طول أعمارهم في مقابلة الخلود لساعة و أمّا قوله يتعارفون فقيل معناه يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيّا اذا خرجوا من قبورهم و هو تعارف توبيخ و إفتضاح يقول بعضهم لبعضٍ أنت أضللتني و أغويتني و ليس تعارف شفقة ثمّ تنقطع المعرفة اذا عاينوا أهوال يوم القيامة.

و قيل يعرف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ و الكفر.

و قال الضّحاك تعارف تعاطف المؤمنين و أمّا الكافرون فلا أنساب بينهم و قيل للقيامة مواطن ففي موطنٍ يتعارفون و فى موطنٍ لا يتعارفون.

و أمّا قوله: **قَدْ خَسِرَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا**[2] الى أخره فقيل أنّه جملة مستأنفة أخبر اللّه تعالى فيها بخسران المكذّبين بلقاءه.

و قال الزّمخشري هو إستئناف فيه معنى التّعجب كأنّه قيل ما أخسرهم.

---

١- القَمر =١

٢- النعام = ٣١

**أقول** الحقّ أنّ فيه إخبار بخسران المكذّبين بالبعث و النّشور و لقاء ثواب اللّه و عقابه في دار الدنيّا فأولئك الذين يخسرون أنفسهم بسبب تكذيبهم الرّسول و الخسران ذهاب رأس المال و أيّ مالٍ أكبر و أشرف من النّفس و قوله: وَ **مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ** أي الى طريق الجنّة لكونهم مستحقين للعقاب.

■

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا
يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٤٧﴾ وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا
يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيٰكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَآلْـَٰٔنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾
ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَ يَسْتَنْبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّيٓ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَآ أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي
ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
ٱلْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ
ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

## ◄اللّغة

بَيَاتًا، البَيات هو إتيان الشّئ ليلاً يقال بَيَّته تَبييتاً و بياتاً و بَيتوتةً.

يَسْتَنْبِؤُنَكَ، الإستنباء الإستخبار أي يطلبون النَّبأ.

لَافْتَدَتْ به، الإفتداء إيقاع الشّئ بدل غيره لدفع المكروه.

أَسَرُّوا أي أخفوا.

## ◄الإعراب

مَاذَا مبتدأ و يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الخبر آلْآنَ منصوب بفعلٍ مقدّر تقديره أمنتم الأن أَحَقٌّ هُوَ مبتدأ و هو مرفوع به و يجوز أن يكون هو، مبتدأ و أحقّ الخبر و موضع الجملة نصب يستنبونّك و اي بمعنى نعم وَ أَسَرُّوا آلنَّدَامَةَ مستأنف.

## ◄التّفسير

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ آلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قالوا نرينّك من رؤية العين لا من رؤية الإعلام اذ لو كان من رؤية الإعلام لتَّعدى الى مفعولين و نون التّأكيد في الجزاء لا تجوز الاّ مع ما، كما لا يجوز الجزاء (اذ وحيث) إلاّ مع ما، و البعض شئ يفصل من الكلّ و معنى الآية إن أريناك يا محمّد بعض ما نعد هؤلاء الكفّار من العذاب عاجلاً بأن ننزل عليهم ذلك في حياتك و إن أخّرنا ذلك عنهم الى بعد وفاتك و وفاتهم فأنّ ذلك لا يفوتهم فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ آللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ أي لأنّه إلينا مرجعهم و اللّه شاهد بأعمالهم و قوله: ثُمَّ بمعنى الواو أي و اللّه شهيد على ما يفعلون فأنّ التّرتيب و التّأخير لا معنى له في حقّه تعالى.

و قال في تفسير بحر المحيط قال إبن عطية إمّا هي إن الشرطيّة زيد عليها، ما، و لأجلها جاز دخول النّون الثقيلة ولو كانت إن، وحدها لم يجز يعني أنّ

دخول النّون للتّأكيد أنّما يكون مع زيادة ما، بعد، إن، و هذا الّذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه.

ثمّ نقل عن إبن خروف أنّه قال أجاز سيبويه الإتيان بما، و إن لا يؤتى بها، و الإتيان بالنّون مع، ما، و إن لا يؤتى بها ثمّ قال و الإراءة هنا بصريّة و لذلك تعدى الفعل الى أثنين و الكاف خطاب للرّسول ﷺ و بعض الّذي نعدهم، يعين من العذاب في الدنيّا و قد أراه اللّه تعالى أنواعاً من عذاب الكفّار في الدنيّا قتلاً و أسراً و نهباً للأموال و سبياً للذّراري و ضرب جزية و تشتيت شملٍ بالجلاء الى غير بلادهم و ما يحصل لهم في الأخرة أعظم لأنّه العذاب الدّائم الّذي لا ينقطع و الظّاهر أنّ جواب الشرط هو قوله: **فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ** كذا قاله الخوفي و إبن عطيّة انتهى كلامه.

و قيل معنى الآية الوعيد بالرّجوع الى اللّه تعالى أي إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كلّ حالٍ راجعون الينا للحساب والعذاب ثمّ مع ذلك، اللّه شهيدٌ على جميع أعمالهم فثمَّ هاهنا لترتيب الأخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

و قال صاحب الكشّاف، فإلينا مرجعهم، جواب نتَّوفينك و جواب نرينَّك محذوف كأنّه قيل، و أمّا نرينَّك بعض الّذي نعدهم فذاك أو نتَّوفينك فيل أن نريكه فنحن نريك في الأخرة انتهىٰ.

**أقول** حاصل ما يستفاد من الآية الشّريفة هو أنّه تعالى يري رسوله أنواعاً من ذلّ الكافرين و خزيهم في الدنيّا و سيزيد عليه بعد وفاته و هذا ممّا لا خفاء فيه.

**وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جٰآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**

الأمّة الجماعة التّي على دين واحدٍ و طريقةٍ واحدة كأمّة محمّد و أمّة موسى و عيسى أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ لكلّ أمّةٍ من الأمم رسولاً بعثه اللّه اليهم ليهتدوا به:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرّاءِ**[٢].

و أنّما جعل اللّه لكلّ أمّةٍ رسولاً لأنّ قاعدة اللُّطف تفتضي ذلك و لئلا يقول النّاس يوم القيامة:

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ**[٣].

و قوله: **فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** فقيل هو يوم القيامة

و قال الحسن في الدنيّا بما أذن اللّه من الدّعاء عليهم و قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** معناه فصّل بينهم الأمر على الحتّم فأنّ اللّه تعالى يقضي بين الخصوم يوم القيامة أي يفصل بينهم فصلاً لا يرّد بالقسط يعني بالعدل، و المقسط العادل، و القاسط الجائر و منه قوله: **وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**[٤] والأصل واحد فالمقسط العادل الى الحقّ و القاسط العادل عن الحقّ و قوله: **وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**.

**أن قلت** قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** يغني عن قوله: **وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ** اذ مع وجود الظُّلم كيف يقال: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**.

**قلت** أجابوا عنه بأنّه يمكن أن يكون العدل في أوّله و الظُّلم في أخره فنفى بذلك نفياً عامّاً ليخلص العدل في كلّ أحوالهم انتهى.

و الحقّ أنّ التّكرير لأجل التّأكيد و المبالغة في نفي الظُّلم و ذلك لأنّ قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** يدلّ على القضاء كذلك من الإبتداء الى الإنتهاء فلا يقال لمن حكم في أوّل الأمر بالعدل و فى أخره بالظُّلم أنّه قضى بالقسط بقولٍ مطلق و عليه فالحقّ ما ذكرناه.

---

١- فاطر =٢٤
٢- الأنعام =٤٢
٣- طه =١٣٤
٤- الجنّ =١٥

**وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**

المراد بالوعد في الآية ما وعدهم اللّه على لسان أنبياءه بالبعث و النّشور و الثّواى على الطّاعة و العقاب على المعصية و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار يقولون متى هذا الوعد الّذي تعدوننا به من البعث و ما يتّرتب عليه من الحساب أن كنتم صادقين في وعدكم إيّانا و قوله: **مَتىٰ** سؤال عن الزّمان كما أنّ أين، سؤال عن المكان.

**أن قلت** أنّ الوعد خبر ما يعطي من الخير، و الوعيد خبر ما يعطي من الشّر فقوله حكايةً عنهم، متى هذا الوعد، ينافي ذلك لأنّ ما و عدوه كان شرّاً لهم لا خيراً فالمناسب للمقام هو إستعمال الوعيد لا الوعد.

**قلت** ما ذكروه في الفرق بين الوعد و الوعيد صحيح اذا فصّل الكلام و أمّا في صورة الأعمال فالوعد يقع على الجميع و ما نحن فيه كذلك ثمّ أمر اللّه تعالى نبيّه بأن يجيب لهم فقال:

**قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعًا إِلّٰا مٰا شٰاءَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ**

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين إستبطئوا ما وعدهم اللّه بقولهم متىٰ هذا الوعد أنّي لا أملك لنفسي ضرّاً و لا نفعاً من الثّواب و العقاب و البعث و النّشور إلاّ ما ملّكني اللّه فكيف أملك لكم أو كيف أطلّعكم على ما لم يطلّعني عليه اللّه.

و الحاصل أنّ الأمر ليس بيدي و أنّما هو بيد اللّه و تحت قدرته و هو الّذي وعدكم بما وعدكم و لكن لكلّ أمّةٍ أجل إنفرد بعلمه تعالى لا يعلم وقته إلاّ هو **إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ** أي لا يكون فيه التّقديم و التّأخير أبداً و حاصل الكلام هو أنّ الأمور بيده تعالى و ما وعدتم به أنّما وعدتم عن اللّه لا عن قبل نفسي فالبعث و النّشور و الثّواب و العقاب قد

أخبر اللّه بها و هو أعلم بوقتها و أمّا أنا فلا أملك لنفسي نفعاً و لا ضرّاً إلاّ ما شاء اللّه فالإستثناء متصل و قالت الأشاعرة هو منفصل و التقدير و لكن ما شاء اللّه من ذلك كائن، فعلى القول بالإتصال معنى الكلام أنّ العبد لا يملك لنفسه ضرّاً و لا نفعاً إلاّ الطاعة و المعصية فهذا الإستثناء يدلّ على إستقلال العبد بهما.

و أمّا على القول بالإنفصال فمعنى الكلام أنّ العبد لا يقدر على شئ و لكن ما شاء اللّه فهو كائن و التّقدير خلاف الأصل و الجبر خلاف العقل فالإتّصال هو الحقّ و أمّا **الأجَل** بفتح الجيم فهو الوقت المضروب لوقوع أمرٍ كأجل الدّين و أجل البيع و غيرهما من الأجال و لا شك أنّ أجل الموت لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى.

**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتيٰكُمْ عَذابُهُ بَيٰاتًا أَوْ نَهٰارًا مٰاذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ اَلْمُجْرِمُونَ**

قال بعض المفسّرين أريتم، أي أعلمتم، لأنّها من رؤية القلب لأنّها دخلت على الجملة من الإستفهام.

و قال بعضهم أنّ العرب تضّمن، أرأيت معنى أخبرني و أنّها تتّعدى اذ ذاك الى مفعولين و أنّ المفعول الثّاني أكثر ما يكون جملة إستفهام ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ و خبر كقولهم أرأيت زيداً ما صنع، المعنى أخبرني عن زيد ما صنع و قبل دخول، أرأيت كان الكلام، زيد ما صنع و عليه، أفرأيتم هنا المفعول الأوّل لها محذوف و المسألة من باب الأعمال تنازع، أرأيت و أن أتاكم، على قوله، عذابه فأعمل الثّاني إذ هو المختار على مذهب البصريين و هو الّذي ورد به السّماع أكثر من إعمال الأوّل فلمّا أعمل الثّاني حذف من الأوّل ولم يضمر لأنّ إضماره مختص بالشّعر أو قليل في الكلام على إختلاف النحويين في ذلك وكيف فالمعنى قل لهؤلاء الكفار يا محمّد أخبروني من عذاب اللّه أن أتاكم أيّ شئٍ تستعجلون منه و ليس شئ من العذاب يستعجله عاقل إذ العذاب كلّه مرٌّ المذاق فوجب لنفار الطّبع منه فتكون جملة الإستفهام جاءت

على سبيل التّلطف بهم و التنبيه لهم أنّ العذاب لا ينبغي أن يستعجل و يجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب و التهويل للعذاب أي أيُّ شيءٍ شديدٍ تستعجلون منه أي ما أشدّ و أهول ما تستعجلون من العذاب

قال صاحب الكشّاف، فأن قلت، هلاّ قيل ليلاً أو نهاراً، بدل قوله: **بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا.**

**قلت** لأنّه أريد أن أتاكم عذابه وقت بيات فبيّتكم و أنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما بيّت العدّو المباغت، و البيات بمعنى التّبييت كالسّلام بمعنى التسليم و كذلك قوله: **نَهَارًا** معناه في وقتٍ أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش و الكسب و نحوه بياتاً و هم نائمون ضحىً و هم يلعبون انتهى.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي عن أبي الجارود و عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتيٰكُمْ عَذابُهُ بَيٰاتًا أَوْ نَهٰارًا** قال عليه السلام فهذا عذاب ينزل في آخر الزّمان على فسّقة أهل القبلة و هم يجحدون نزول العذاب عليهم انتهى.

**أَثُمَّ إِذا مٰا وَقَعَ اٰمَنْتُمْ بِهِ آلْاٰنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.**

دخلت ألف الإستفهام على، ثمّ، ليدلّ على أنّ الجملة الثانيّة بعد الأولى مع أنّ لِلألف صدر الكلام و كلمة **ثُمّ** للعطف خلافاً للطّبري حيث زعم أنّ معنى، ثمّ، هاهنا، هنالك، و لم يعلم أنّ ما يكون بمعنى، هنالك، هو، **ثمّ** بفتح الثّاء لا بضمها و هذه مضمومة فلا تكون إلاّ للعطف.

قال صاحب الكشّاف قوله: **أَثُمَّ إِذا مٰا وَقَعَ اٰمَنْتُمْ بِهِ** جواب الشّرط أعني به قوله: **إِنْ أَتيٰكُمْ عَذابُهُ** و قوله: **مٰاذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ آلْمُجْرِمُونَ** إعتراضاً و المعنى، إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان و دخول حرف الإستفهام على، ثمّ، كدخوله على **الواو** و **الفاء** في قوله: **أَفَأَمِنَ أَهْلُ آلْقُرىٰ**[1] أو أمن أهل القرى انتهى كلامه.

١- الاعراف = ٩٧

و قد ردَّ عليه بعض المفسّرين و قال أنّ جملة الإستفهام لا تقع جواباً للشرط إلاّ و معها فاء الجواب و ما نحن فيه ليس كذلك.

**ثانياً**: أنّ، ثمّ، هنا حرف عطفٍ تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها فالجملة الإستفهامية معطوفة و إذا كانت معطوفة لم يصحّ أن تقع جواب شرطٍ.

**ثالثاً**: قوله: **أَرَأَيْتُمْ** بمعنى أخبرني تحتاج الى مفعول و لا تقع جملة الشّرط موقعه انتهىٰ.

و كيف كان فالمعنى أتأمنون حلول العذاب بكم، ثمّ يقال لكم إذا وقع بكم العذاب و شاهدتموه الآن آمنتم به و كنتم به تستعجلون فمعنى الآية مرتبطة بما قبلها أي أنّ العذاب الّذي كنتم به تستعجلون إذا وقع عليكم آمنتم به الآن أي بعد وقوع العذاب و لا نفع فيه فلا ينتفع صاحبه بعد وقوع الحادثة كما لم ينتفع به فرعون بعد أن أدركه الغرق:

قال اللّه تعالىٰ: **اٰمَنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ اٰمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرٰٓئِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**[1].

فقال تعالىٰ في جوابه:

قال اللّه تعالىٰ: **آلْـٰٔنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ،فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ اٰيَاتِنَا لَغٰافِلُونَ**[2].

والفرق بين المقامين أنّ فرعون كان قبل وقوع العذاب من المفسدين و أنّ هؤلاء الكفّار كانوا قبله من المستعجلين.

و أمّا في عدم الإنتفاع بإيمانهم بعد وقوع العذاب فلا فرق بينهم و يستفاد من الآية الشّريفة أنّ العلاج لداء المعصية و الطغيان قبل الموت لا حينه فضلاً

١- يونس =٩٠ ٢- يونس = ٩١/٩٢

عن بعده و عليه فالتّوبة عن الذّنب أيضاً حكمه كذا كما صرّحت به الأيات و الأخبار.

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَنْفَعُ نَفْسًا ايمانُها لَمْ تَكُنْ اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَيْسَتِ اَلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّاٰتِ حَتّٰى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ اَلْاٰنَ وَ لَا اَلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاٰبًا أَلِيمًا**[2].

و الحاصل أنّه لا فرق في الحكم بين الإيمان و التّوبة لأنّها من الإيمان قطعاً.

**ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذاٰبَ اَلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلّٰا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**

ثمّ، عطف على الإيمان الّذي وقع في حال الإلجاء اليه و أنّما قيل لهم هذا القول على وجه التّوبيخ و التّقريع لأنّها ليست حال إستدراك لما فات.

و المعنى أنّه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم و قيل لهم الآن و قد إستعجلتم، ذوقوا عذاب الخلد، يعني الدّائم الّذي لا آخر له و يقال لهم، هل تجزون، بعذاب العقاب إلاّ بما كنتم تكسبون من المعاصي و الذّوق طلب الطّعم بالّفم في الإبتداء شبّهوا بالذّائق لأنّه أشدّ إحساساً.

و قيل لأنّهم يتجرّعون العذاب بدخوله في أجوافهم قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف، ثمّ قيل للّذين ظلموا، عطف على قيل المُضمر قبل الآن انتهى.

**أقول** و عليه فتقدير الكلام قيل: **آلْاٰنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** و قال بعض المفسّرين أي تقول لهم خزنة جهنّم هذا الكلام.

و الظّلم ظلم الكفر لا ظلم المعصية لأنّ من دخل النّار من عصاة المؤمنين لا يخلّد فيها.



---

١- الأنعام=١٥٨ ٢- النّساء=١٨

**أقول** ما ذكره من أنّ المراد بالظُّلم هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية لا دليل عليه بل الدليل من العقل و النّقل على خلافه.

**أمّا العقل** فلأنّ الظُّلم له مراتب كثيرة شدّة و ضعفاً فهو مقول على ما تحته من المصاديق على سبيل التّشكيك فهو يصدق على قاتل النّبي و الوصّي و الصلّحاء و المؤمنين كما يصدق على إيذاء المسلم باللّسان فمن سبَّ مؤمناً فهو ظالمٌ و من قتله بغير جرم فهو أيضاً ظالم و من خالف النّبي في حكم من أحكامه فهو ظالم و من أنكره أو قتله فهو أيضاً ظالم و العقل يحكم بالفرق قطعاً و لا فرق في حكم العقل بين الكافر و المسلم إذ لا تخصيص في العقليّات و لم يدلّ دليل من العقل على أنّ الظُّلم الذي يوجب الخلود في النّار هو ظلم الكفر لا غيره و على المدعي الإثبات بل العقل السليم يحكم بأنّ مناط الخلود في النّار هو بعض أقسام الظّلم و نعبّر عنه بالظُّلم الفاحش و لا فرق فيه بين الكافر و المسلم في الخلود و مجرّد الإسلام و الإيمان في ظاهر الأمر لا يكفي في المقام فهذا حكم العقل.

**وأمّا النّقل**:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزٰآؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِدًا فِيهٰا**[١].

فهذه الآية صَريحةٌ في أنّ قاتل المؤمن عَمداً، جزاءه جهنّم خالداً فيها مع أنّه ليس بكافر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰارًا خٰالِدًا فِيهٰا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحٰاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**[٣].

---

١- النّساء=٩٣

٢- النّساء=١٤

٣- البقرة=٨١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَدًا**[٢].

و الأيات كثيرة بل نقول أنّ بعض الظّالمين من المسلمين حتّى المؤمنين بزعم العامّة كان ذنبهم أشدَّ من ذنب الكفر فلا محالة يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الكفّار أمثال معاوية و يزيد و عبد الملك و إبن زياد و الحجّاج و الدّوانيقي و غيرهم من الظَّلمة و المنافقين الّذين في الدَّرك الأسفل من النّار فقوله تعالىٰ: **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ** يشمل المستّحقين للخلود فيها من الكفّار و غيرهم.

و أمّا قوله: **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلّٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** ففيه إشارة الىٰ أنّ العذاب كيف كان مترتبٌ على العمل و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد فالإستفهام إنكاريٌ أي لا تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون و الى هذا المعنى أشير في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلّٰا عَلَيْهٰا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ اَلْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى اَلدّٰارِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا يَكْسِبُونَ**[٧]

و الأيات كثيرة.

---

١- المؤمنون=١٠٣
٢- الجّن=٢٣
٣- الأنعام =١٦٤
٤- الرّعد =٤٢
٥- الزّمر =٢٤
٦- النّساء =١١١
٧- سورة البقرة أية ٧٩

**وَ يَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اِي وَ رَبِّيٓ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.**

الإنباء الإخبار و منه النّبي لأنّه يخبر عن اللّه و المعنى يستخبره و رنك أي يطلبون منك النَّبأ الّذي هو الخبر، أحقٌّ هو، يعني أحقٌّ هذا الوعيد الّذي أخبر اللّه به في هذه الآية و غيرها، قل لهم يا محمّد، إي و ربّي أي نعم و حقّ اللّه أنّه لحقٌّ و لا خلاف فيه فأنّ اللّه صادق في وعده و وعيده و من أصدق من اللّه قيلاً، و ما أنتم بمعجزين، أي لستم تقدرون على إعجاز اللّه عمّا يريده من إنزال العذاب بكم و الإستفهام في قوله، أحقٌّ هو، للإستهزاء و الإنكار من هؤلاء الكفّار.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** أي ما أنتم بفائتين العذاب و هو لاحق بكم لا محالة.

و قال الفّراء أي ما أنتم ممّن يعجز من يعذّبكم أي إذا أراد اللّه أن يعذّبكم لن تقدروا على دفعه و منعه.

**وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ.**

اللّه تعالى في هذه الآية عن شدّة العذاب الّذي أعدّه لهم بسبب أعمالهم فقال ولو كان للظّالم جميع ما في الأرض من الأموال، لإفتدت به من هول ما يلحقه و يشاهده من العذاب و قوله و أسرُّوا النّدامة أي أخفوها و قيل أي أخلصوها و النّدامة الحسرة على ما كان يتّمنى أنّه لم يكن و المقصود أنّهم يندمون على ما فعلوا بعد رؤية العذاب إلاّ أنّهم يسّرون بها في قلوبهم قوله: **وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** إشارة الى أنّ اللّه تعالى هو القاضي و الحاكم بين العباد و يوم القيامة و لمّا ثبت عقلاً و نقلاً أنّه قائم بالقسط والعدل فلا محالة لا يظلمون أبداً لأنّ الظُّلم قبيح و هو تعالى منّزه عن القبائح و أمّا الإفتداء فهو إيقاع الشّئ بدل يغره لدفع المكروه.

**تنبيهٌ**

قال أبو عبيدة، أسرُّوا، معناه أظهروا و قال الأزهري هذا غلط أنّما يكون بمعنى الإظهار ما كان بالشّين المنقطعة من فوق انتهى.

**أقول** ما ذكره أبو عبيدة حقٌّ و ذلك لأنّه أي، أسرَّ من الأضداد و هو يأتي بمعنى أظهر كما يأتي بمعنى أخفى و الى هذا المعنى أشار الفرزدق بقوله.

و لمّا رأىٰ الحجّاج جرَّد سيفه أسرَّ الحروري الّذي كان أظهر

و قال الأخر:

فأسررت النّدامة يوم نادى بردّ جمال غاضرة المنادى

نعم هو بمعنى أخفى أشهر و عليه يحمل ما في الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ**[٣].

و أمّا في المقام فيحتمل الوجهين و الإخفاء أشهر و عليه إجماع المفسّرين.

**أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ**

ألا، كلمة، تستعمل في التنبيه قيل أصلها لا، دخلت عليها حرف الإستفهام تقريراً و تأكيداً فصارت تنبيهاً قالوا و كسرت، إن، بعد ألا، لأنّ لا، يستأنف ما بعدها لينبّه بها على معنى الإبتداء و لذلك وقع بعدها الأمر و الدُّعاء نبَّه اللّه عباده في هذه الآية على أمرين:

**أحدهما**: أنّه مالك السّموات و الأرض فأنّ اللّام في، لِلّه لام الملك و قيل لام الإختصاص و المأل فيها واحد.

---

١- النّحل =٢٣

٢- النّحل =١٩

٣- الملك =١٣

**الثّاني**: أنّ وعد اللّه حقّ لا خلاف فيه و الدليل على أنّه مالك لها هو أنّه خلق السّموات و الأرض و كلّ خالقٍ فهو مالك لمخلوقه قهراً لأنّ المعلول رشحة من رشحات العلّة فلا يكون منفكاً عنها فالعلّة تتّصرف في معلولها كيف تشاء و لا نعني بالمالكيّة إلاّ هذا و اذا أثبت كونه مالكاً لهما ثبت كونه مالكاً لما فيهما من المخلوق كائناً من كان فثبت أنّه تعالى مالك لكلّ ما سواه و المالك يتّصرف في مملوكه بما يشاء و كيف يشاء و حيث ثبت عموم قدرته عقلاً و نقلاً فهو قادر على إيقاع ما توَّعد به و هو المطلوب و أمّا أنّ وعد اللّه حقّ فهو أيضاً مسلّمٌ لا شكّ فيه أمّا عقلاً فلأنّ عدم الوفاء به لا يخلو إمّا أن يكون منشأه عدم القدرة على الوفاء به و أمّا أن يكون الباعث عليه هو خبث الطينة و سوء السريرة كما هو كذلك في حقّ أكثر النّاكثين النّاقضين للعهد و كلاهما في حقّه تعالى محال.

**أمّا الأوّل**: فواضح اذ المفروض أنّه على كلّ شئٍ قدير فكيف لا يقدر عليه.

**أمّا الثّاني**: فلأنّه قبيح و هو تعالى منّزه عنه فثبت أنّ وعده حقّ أي ثابت لا يتّغير أو لا سبيل للبطلان عليه و هو المطلوب فالحاصل من الآية هو مالكيّته لما سواه لا خلاف في وعده و هو المطلوب.

و اذا كان كذلك فليحذر الّذين يخالفون أمره و نهيه فأنّه تعالى بالمرصاد.

و أمّا قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** معناه أنّ أكثر النّاس لا علم لهم بما ذكرناه فزعموا أنّ مالكيّته تعالى كمالكيّة غيره و وعده أيضاً كذلك.

**هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** أي كيف لا يوصف بما ذكرناه و الحياة و الموت بيده و من أحيا و أمات أوّلاً فهو قادر على الإحياء ثانياً فأنّ حكم الأمثال واحد و هذا هو المراد بالرّجوع اليه تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**[1].

١- البقرة =١٥٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راٰجِعُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ عَلىٰ رَجْعِهِ لَقادِرٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٣] والأيات كثيرة.

و من المعلوم فأنّ قوله: **وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فيه إشارة الى الثّواب و العقاب على الأعمال ضمناً إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً كما هو فلسفة الرّجوه اليه تعالى و تقديم المسند اليه أعين به كلمة هو، على الفعل لإفادة الحصر أي غيره تعالى لا يقدر على الإحياء و الإماتة واقعاً و مع ذلك فيها دلالة على كونه تعالى قادراً على الإعادة لأنّ من قد على النّشأة الأولى يقدر على النّشأة الثّانية أيضاً و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب عند البحث في المعاد إن شاء اللّه تعالى.

■



١- البقرة =٤٦
٢- الطّارق =٨
٣- فصّلت =٢١

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَ شِفَآءٌ لِمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ
فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلٰلًا قُلْ ٱللَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَ مَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ
ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَ مَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا
مِنْهُ مِنْ قُرْاٰنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَا
فِى ٱلسَّمَآءِ وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ
إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ
ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى
فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمٰاتِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَ لَا
يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

## ◄اللّغة

شِفٰآءٌ هو معنىً كالدّواء لإزالة الدّاء.

تَفْتَرُونَ الإفتراء الكذب.

شَأْنٍ،الشّأن و البال و الحال نظائر و جمعه شئون.

تُفِيضُونَ مأخوذ من فيض الإنّاء اذا إنصَّب من جوانبه و منه قوله: **أَفَضتُم مِن عَرفات** أي تفرَّقتم كتَّفرق الماء الَّذي ينصَّب من الإنّاء.

يَعْزُبُ، **العُزُوب** الذّهاب عن المعلوم و ضدّه حضور المعنى للنّفس يقال تعزَّب فلان إذا إنفرد عن أهله و قيل لا يعزب أي لا يغيب.

## ◄الإعراب

وَ شِفٰآءٌ هو مصدر في معنى الفاعل أي و شافٍ و قيل هو في معنى المفعول أي المشفي به فَبِذٰلِكَ: قيل الفاء الأوّل مرتبطة بما قبلها.

الثّانية: بفعلٍ محذوف تقديره فليعجبوا بذلك فليفرحوا و قيل الأولى زائدة و الجمهور على الياء بناءً على أنّه أمرٌ لغائب و هو رجوع من الخطاب الى الغيبة و يقرأ بالتّاء أيضاً فِي شَأْنٍ خبر كان مٰا تَتْلُوا ما نافية و مِنْ قُرْءَانٍ مفعول تتلوا إِذْ تُفِيضُونَ ظرف لشهود مِنْ مِثْقٰالِ في موضع رفع بيعزب بضّم الزّاي و كسرها وَ لَآ أَصْغَرَ وَ لَآ أَكْبَرَ بفتح الرّاء في موضع جرّ صفة لذرّة أو لمثقال على اللّفظ إِلّا فِي كِتٰابٍ الإستثناء منقطع اَلَّذِينَ اٰمَنُوا مبتدأ ولَهُمُ اَلْبُشْرٰى خبره فِي اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا يجوز أن تتعلق بالبشرى و أن يكون حالاً منها و العامل الإستقرار و لَا تَبْدِيلَ مستأنف.

## ◄التّفسير

**يٰآ أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰآءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفٰآءٌ لِمٰا فِي اَلصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**

الخطاب لجميع المكلّفين من النّاس أخبر اللّه تعالى فيه بأنّه أتاهم موعظة من اللّه تعالى اليهم و الموعظة ما يدعوا الى الصّلاح و يزجر من القبيح بما يتّضمنه من الرّغبة و الرّهبة و يدعو الى الخشوع و النُّسك و يصرف عن الفسوق و الإثم و المراد بها القرأن و ما جاء به النّبي من الأحكام في الشّريعة و قوله: **وَ شِفَآءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ** إشارة الى ما يتّرتب على الموعظة من الأثار فالشّفاء بمنزلة الدّواء لإزالة داء الجهل الّذي هو أضرّ من داء البدن و علاجه أعسر و أطباءه أقلّ و الصُّدور جمع صدر موضع القلب قالوا و هو أجلّ موضع في الحيّ لشرف القلب.

و قوله: **وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** قيل أنّه وصف للقرأن أي أنّ القرأن كذلك و التخصيص بالمؤمنين لأنّ غير المؤمن لا يتّعظ بالقرأن لكفره و عناده ومن المعلوم أنّ تأثير العلة في المعلول مشروط بقابليّته للتّأثر أعني بها عدم وجود المانع فيه و أمّا مع وجوده فيه فلا تؤثر العلّة فيه لا لنقصٍ في العلّة بل لوجود المانع في المعلول و حيث أنّ الكفر و الفسق يمنعان عن التّأثر فلا تأثير في المقام و لأجل ما ذكرناه قد خصّ اللّه تعالى الهداية و الرّحمة بالمؤمنين في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[٤].

١- البقرة =٢
٢- النّساء =١٦٢
٣- الأسرىٰ =٩
٤- الأعراف =٥٢

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذا بَصٰآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ اَلْكِتابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُنَزِّلُ مِنَ اَلْقُرْاٰنِ ما هُوَ شِفٰآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**[٣] و الأيات كثيرة.

محصّل الكلام في المقام هو أنّ المؤمنين ينتفعون بالقرأن لإيمانهم.

و أمّا الكفّار فلا ينتفعون به لكفرهم و هذا لا ينافي أن يكون القرأن هادياً للكلّ واقعاً فأن مقام القابليّة و الشّأنيّة غير مقام الفعليّة فالقرأن هاوٍ للكلّ لولا المانع و ليس كذلك مع وجوده.

**قُلْ بِفَضْلِ اَللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ**

أي قل يا محمّد صلى الله عليه و آله لهؤلاء المؤمنين بفضل اللّه و رحمته فبذلك.

قال الفرّاء هو بدل من قوله بفضل اللّه و برحمته و الفضل هو زيادة النّعمة و إضافته الى اللّه بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى أنّه مالك له فليفرحوا، قيل الفاء زائدة لأنّ المعنى فإفرحوا بذلك و الفرح لذّة في القلب بإدراك ما يحبّ و أن شئت قلت هو لذّة في القلب بنيل المشتهي و قوله: **هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ** أي هو خير ممّا يجمعه غيركم من أعراض الدنيا.

قال بعض المفسّرين فضل اللّه هو القرأن و رحمته هو الإسلام و خير ممّا يجمعون، هو الذّهب و الفضّة.

**و عن أبي جعفر عليه السلام فَضل اللّه هو الإقرار بالرّسالة وبرحمته الإئتمام لعلّيٍ عليه السلام وحَمل الآية علىٰ عمومها أولىٰ.**

١- الأعراف =٢٠٣ ٢- النّحل =٩٠

٣- الإسراء =٨٢

أقول رُوي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: شِفَآءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ أي من أمراض الخواطر ومُشتبهات الأُمور.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ[1]

و في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله تعالىٰ: قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ الفضل رسول اللّه صلى الله عليه وآله و رحمته أمير المؤمنين عليه السلام و بذلك فليفرحوا، قال فليفرح شيعتنا هو خير ممّا أعطوا أعداءنا من الذّهب و الفضّة انتهى.

و عن الرّضا عليه السلام في هذه الآية قال عليه السلام: بولاية محمّد وأل محمّد هو خير ممّا يجمع هؤلاء من دنياهم.

و عن أمالي الصَّدوق بأسناده الىٰ النّبي صلى الله عليه وآله والحديث طويل فيه يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله لعلّي عليه السلام و الّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ما أمن بي من أنكرك ولا أقرَّ بي من جحدك ولا أمن باللّه من كفر لك وأنّ فضلك لمن فضلي و أنّ فضلي لفضل اللّه و هو قول اللّه عزّ و جلّ، قل بفضل اللّه فبذلك فليفرحوا هو خير ممّا يجمعون، ففضل اللّه نبوّة نبيّكم و رحمته ولاية علّي بن أبي طالب (فبذلك) قال صلى الله عليه وآله: بالنّبوة والولاية فَلْيَفْرَحُوا يعني الشّيعة هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ يعني مخالفيهم من الأهل والمال و الولد في دار الدنيّا انتهى.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ

قيل نزلت الآية في المشركين و المراد بالرّزق هو إرزاق العباد من المطر الّذي ينزله اللّه فجعلوا منه حراماً و حلالاً، يعني ما حرّموا من السّائبة و

١- الخطبة = ١٠٩

الوصيلة و الحام و ما حرّموا من زروعهم فقال تعالىٰ: **آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى آللَّهِ تَفْتَرُونَ** معناه أنّه لم يأذن لكم في شيءٍ من ذلك بل أنتم تكذبون في ذلك على اللّه و كلمة، ما إستفهاميّة.

و قيل بمعنى الّذي، فعلى الأوّل فهي منصوبة بأنزل

**علىٰ الثّاني: أَرَأَيْتُمْ** قالوا أرأيتم، هنا بمعنى أخبروني، ءاللّه أذن لكم في التحليل و التّحريم فأنتم تفعلون ذلك بأذنه أم تكذبون عليه في نسبته اليه تعالى، و قالوا أيضاً أنّ أنزل معناه خلق كقوله و أنزلنا الحديد، و قوله: **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ آلْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ**[1].

و قيل هو على بابه و هو على حذف مضاف أي من سبب رزق و هو المطر.

و قال مجاهد هو مت حكموا به من تحريم البحيرة و السّائبة و الوصيلة و الحام.

و قال الضحاك هو إشارة الى قوله: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ آلْحَرْثِ وَ آلْأَنْعٰامِ نَصِيبًا**[2].

**وَ مٰا ظَنُّ آلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى آللَّهِ آلْكَذِبَ يَوْمَ آلْقِيٰمَةِ إِنَّ آللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى آلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لٰا يَشْكُرُونَ**

ما إستفهامية مبتدأ و خبرها، ظنّ، و المعنى، أيُّ شيءٍ ظَّن المفترين يوم القيامة أبهم الأمر على سبيل التهديد و الإبعاد يوم يكونُ الجزاء بالإحسان و الإساءة و يوم، منصوب، بظَّن قيل تقديره ما ظَّنهم أنّ اللّه فاعلٌ بهم أينجيهم أم يعذّبهم و بعبارةٍ أخرى لا ينبغي أن يظُّنوا أن يصيبهم على ذلك إلاّ العذاب و العقاب و المراد بالكذب المشار اليه في الآية هو ما مرَّ في الآية السابقة من جعلهم الحلال و الحرام في الرزّق و نسبتهم أيّاه الى اللّه تعالى و فى قوله: **إِنَّ آللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى آلنّٰاسِ** إشارة الى ما أعطاهم من النِّعم و قد ثبت أنّه



١- الزمر= ٦ ٢- الانعام = ١٣٦

تعالى دائم الفضل على البريّة و لكن أكثرهم، أي أكثر النّاس لا يشكرون، بل يكفرون بها و يقولون أنّها من الطّبيعة و لم يعلموا أنّ الطبيعة لفظةٌ لا معنى لها و لا شعور لها فكيف تعطي الأرزاق فالإعطاء منه تعالى على خلقه ثبت الشّكر عليه فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً فمن شكر عمل بمقتضى عقله و من كفر أنكر عقله أخرج نفسه من نوع الإنسان و أدخلها في زمرة الحيوانات هذا مضافاً الى أنّ الشّكر يوجب إزدياد النعمة و الكفران يوجب سلبها و إنتفاؤها و العاقل لا يقدم على ضرر نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِوَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**[2].

و الأيات الواردة في البحث على الشّكر كثيرة جدّاً و من المعلوم عقلاً و شرعاً أنّه تعالى غنيٌّ عن الخلق و شكرهم لأنّه تعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه و لا تضرّه معصية من عصاه ذلك يحبّ أن يشكر ليكون العبد بذلك مقرّباً اليه محبوباً عنده لأنّه تعالى خلقهم و الخالق يحبّ مخلوقه قهراً فأنّ من أحبَّ شيئاً أحبَّ آثاره و هو تعالى محبٌّ لذاته فهو محبٌّ لآثاره المترتبة على ذاته و لا شكّ أنّ الخلق من آثار ذاته تعالى و لأجل ذلك أرسل اليهم الأنبياء و كلّفهم بالأحكام و هذا معنى قوله: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِوَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ** أي أنّ اللّه تعالى جعل أسباب القرب و البعد، بيد العبد فمن أطاعه صار مقرّباً و من عصاه فلا.

**وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْاٰنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلّا كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**

١- النّمل=٤٠ ٢- إبراهيم=٧

ما للنّفي في الموضعين بمعنى ليس أي ليس تكون و ليس تتلو و الهاء في، منه، كناية عن القرآن قبل الذّكر تفخيماً له فهو كقوله تعالىٰ: **إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**[1].

و يحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشّأن و تقديره و ما يكون من الشّأن و الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله و المعنى ليس تكون في حالٍ من الأحوال لأنّ الشّأن و البال و الحال نظائر و ليس تتلو من القرآن و لا تعملون من عملٍ إلاّ كنّا عليكم شهوداً أي ليس يخفى على اللّه شيئاً من أعمالكم بل اللّه تعالى يعلمها و يشهدها إذ تفيضون فيه، الإفاضة الدّخول في العمل على جهة الإنصباب اليه و هو مأخوذ من فيض الإناء إذا إنصَّب من جوانبه و منه قوله: **أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَٰتٍ**[2] و عليه فالمعنى أنّه تعالى يكون شهيداً أي حاضراً و ناظراً على أعمالكم إذ تشرعون أي تدخلون فيها و فيه إشارة الى إحاطة علمه تعالى بالأشياء قبل وجودها و بعده و لا يخفى عليه شئ و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ** قرأ الكسائي، يعزب بكسر الزّاء و الباقون بضّمها و هما لغتان إلاّ أنّ الضّم أفصح و أشهر و أكثر، و العزوب الذّهاب عن المعلوم و ضدّه حضور المعنى للنفس.

يقال، تعزّب، إذا أنفر عن أهله.

و قال إبن عبّاس معنى لا يعزب لا يغيب و قوله: **مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ** فالذّر صغار النّمل واحدة ذرّة و هو خفيف الوزن جدّاً و معنى مثقال ذرّة، وزن ذرّة و قوله: **وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ** أي إلاّ و قد بيّنه اللّه تعالى في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته و حفظوه.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية أنّ الأشياء المخلوقة على قسمين: قسمٌ أوجده اللّه تعالى إبتداءً من غير واسطة كالملائكة و السّموات و الأرض.



---

١- النّمل=٩ ٢- البقرة=١٩٨

و قسمٌ آخر وجده اللّه بواسطة القسم الأوّل مثل الحوادث الحادثة في عالم الكون و الفساد و لا شكّ أنّ هذا القسم الثّاني قد يتباعد في سلسلة العلّية و المعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله: **وَ مٰا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّةٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِي اَلسَّمٰآءِ وَ لاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْبَرَ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ** أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرّة في الأرض و لا في السّماء إلاّ و هو في كتاب كتبه اللّه تعالى و أثبت صور تلك المعلومات فيه و متى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً بأحوالها و الغرض منه الرّد على من يقول أنّه تعالى غير عالم بالجزئيات و هو المراد من قوله: **إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1] انتهى كلامه.

**أقول** لا نحتاج في إحاطة علمه تعالى بجميع ما سواه كائناً ما كان الى هذه التّكلفات الباردة و التحزيحات الضعيفة الوَهمية التي لا يساعده عقل و لا نقل بل نقول لا شكّ أنّه تعالى خالق لما سواه فما سواه كائناً ما كان معلول مخلوق له و كلّ علّةٍ حاوية لجميع مراتب المعلول و إلاّ لا تكون علّة له و إذا كان كذلك فهو عالم بجميع المعلولات و مراتبها و إن شئت قلت هو تعالى عالم بذاته و جميع ما سواه من آثار ذاته و العالم بالذّات عالم بالآثار المترتبة عليه قهراً.

**ثالثاً:** لو لم يكن عالماً بشئ ممّا سواه فهو جاهل به و الجهل نقصٌ و كلّ نقصٍ مساوق للإمكان و هو واجب الوجود و محصّل الكلام في هذه الآية هو إحاطة علمه تعالى بالأشياء و هو ثابت عقلاً و نقلاً.

**أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰآءَ اَللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ**

**الأولياء** جمع ولّي و هو الّذي يستحق من اللّه أن يولّيه ثوابه و كرامته و هو المطيع للّه الّذي يتولى إجلاله و إعظامه الولّي النّصير.

و قال بعضهم أولياء اللّه هم الّذين يتولونه بالطّاعة و يتولاهم بالكرامة.

---

١- الجاثية= ٢٩

و قد فسّر ذلك في قوله: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ**.

و عن سعيد بن جبير أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله سأل عن أولياء اللّه فقال صلى الله عليه وآله هم الّذين يذكرون اللّه برؤيتهم يعني السَّمت و الهيئة.

و عن إبن عبّاس الإخبات و السكينة و قيل هم المتحابون في اللّه.

و قد روي الطّبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ من عباد اللّه عباداً يغبطهم الأنبياء و الشّهداء قيل من هم يا رسول اللّه فلعلّنا نحبّهم قال صلى الله عليه وآله هم قومٌ تحابّوا في اللّه من غير أموالٍ أنصاب وجوههم من نورٍ على منابر من نور لا يخافون إذا خاف النّاس لا يحزنون إذا حزن النّاس و قرأ: **أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰآءَ اَللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ**.

و روي هذا الحديث بأسناده عن عمر بن الخطّاب أيضاً أنّه قال قال رسول اللّه الحديث و قد نقل غير واحدٍ من مفسّري العّامة بعده هذا الحديث في تفاسيرهم و لم يعلموا أنّ ألفاظ الحديث تشهد بكذبه و ذلك لأنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ أولياء اللّه أفضل و أشرف من الأنبياء و الشهداء لأنّهم مغبوطون لهم و معنى الغبطة هو تمنّي مقمام المغبوط فيلزم منه أنّ مقام هؤلاء أعلى و أرفع من مقام الأنبياء و لا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم و كيف يعقل ذلك و المفروض أنّ الأنبياء في صدر الأولياء و أن شئت قلت أنّ الأولياء أنّما بلغوا هذا المقام ببركة الأنبياء و متابعتهم و المتبوع أفضل من التّابع في الشريعة فكيف يعقل أن يكون مغبوطاً للنبّي و نقل الرّازي.

هذا الحديث في تفسيره عن عمر عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنّه قال:

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هم قوم تحابّوا في اللّه على غير أرحامٍ بينهم و لا أموال يتعاطوا الخ و لم يذكر قوله (أنّ من عباد اللّه عباداً يغبطهم الأنبياء و الشهداء) ولعلّه تفطّن ما ذكرناه من الإشكال فأسقط ما أسقط أو نقل الحديث عن موضع أخر غير كتاب الطّبري و كيف كان لا شكّ أنّ أولياء اللّه من أقرب

العباد اليه تعالى إلاّ أنّ الأنبياء في صدرهم و رأسهم فلا يغبطون على أحدٍ من المخلوقين كائناً من كان.

**أن قلت** ما معنى الأولياء و ما المراد بهم.

**قلت** الولاء و التَّوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبة و من حيث الدّين و من حيث الصّداقة و النُّصرة و الإعتقاد و الولاية النُّصرة و الولاية تَوَّلي الأمر و الولّي و المولى يستعملان في ذلك كلّ واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي و فى معنى المفعول أي المولى يقال للمؤمن هو ولّي اللّه عزّ وجلّ و لم يرد مولاه و قد يقال أنّ اللّه تعالى ولّي المؤمنين و مولاهم فمن الأوّل.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰه وَلِّىَالَّذِينَ أٰمَنُوا**.

قال اللّه تعالىٰ: **أِنَّ وَلِّي اللّٰه**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَاللّٰهُ وَلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰه مَوْلىَ الَّذِينَ أٰمَنُوا**.

قال اللّه تعالىٰ: **نِعْمَ الْمَولىٰ وَ نِعْمَ النَّصِير**.

قاله الرّاغب في المفردات اذا عرفت هذا فنقول: معنىٰ الآية أنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم يوم القيامة و لا يحزنون، و هذه الآية بشارة من اللّه لأولياءه المقرّبين.

**فعن تفسير العيّاشي بأسناده، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أنّ أولياء اللّه، الآية ثمّ قال عليه السلام أتدرون من أولياء اللّه قالوا و من هم يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام هم نحن و أتباعنا فمن تبَّعنا من بعدنا طوبىٰ لهم و طوبى لنا و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا، قالوا يا أمير المؤمنين ما شأن طوبى لهم أفضل مِن طوبى لنا ألسنا نحن و**

هم على أمرٍ قال عليه السلام لا أنّهم حملوا ما لم تحملوا عليه و أطاقوا ما لم تطيقوا انتهى.

و عن الباقر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علّي بن الحسين عليه السلام: ألا أنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، اذا أدّوا فرائض اللّه، و أخذوا سنن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وتوَرّعوا عن محارم اللّه و زهدوا في عاجل زهرة الدنيا، و رغبوا فيما عند اللّه وإكتسبوا الطّيب من رزق اللّه لا يريدون التّفاخر و التّكاثر ثمّ أنفقوا فيما يلزمهم من حقوقٍ واجبة فأولئك الّذين بارك اللّه لهم فيما إكتسبوا و يثابون على ما قدّموا لأخرتهم انتهى.

و عن كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده الى أبي بصير قال قال الصّادق عليه السلام يا أبا بصير طوبىٰ لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته و المطيعين له في ظهوره أولئك أولياء اللّه الّذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون انتهىٰ[1].

ثمّ فسّر اللّه تعالى هذه الآية بقوله: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** و القرأن يفسّر بعضه بعضاً أي أنّ أولياء اللّه هم الذّين أمنوا باللّه و برسوله و بجميع ما جاء به الرّسول و مع ذلك يتّقون معاصيه ذكر اللّه تعالى للأولياء وصفين:

**أحدهما**: الإيمان.

**الثّاني**: التّقوى و الفرق بينهما أنّ التّقوى مضّمن بإتّقاء المعاصي مع منازعة النّفس اليها و أمّا الإيمان فهو من الأمن بسبب العمل من عائد الضّرر.

و قيل الإيمان موضوعه القلب و التّقوى في الجوارح والحقّ أنّ الإيمان هو الإعتقاد القلبي و التّقوى عبارة عن ظهوره في الخارج بسبب العمل فالتّقوى من ثمرات الإيمان و متّفرع عليه فالمتّقي مؤمن و لاعكس و الى هذا ينظر قول من

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٣٠٩

قال التقوى عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرّمات فأنّهما من فروع الإيمان.

**لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**

**البُشرىٰ** بضّم الميم البشارة و هى الخبر المفرّح.

و قال الرّاغب في المفردات يقال للخبر السّار البشارة و البشرى و معنى الآية أنّ لهؤلاء الأولياء الّذين أمنوا و كانوا يتّقون البشارة في الحياة الدنيّا و فى الأخرة.

قال الجبائي و قتادة و الزُّهري البشرى في الحياة الدنيّا هي الرّؤيا الصادقة الصالحة يراها الرّجل أو يرى أهله.

و قال أبو جعفر عليه السلام البشر في الدنيّا الرؤيا الصّالحة يراها المؤمن أو يرى له و في الأخرة الجنّة.

و قال الأخرون البشرى القرأن بشرف الإيمان و أمّا قوله: **لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ ٱللّٰهِ** معناه لا خلف لما وعد اللّه به من الثّواب بوضع كلمةٍ أخرى مكانها بدلاً منها لأنّها حقّ و الحقّ لا خلف له بوجهٍ و من المعلوم أنّ البشرى في الحياة الدنيّا و الأخرة هي الفور العظيم بحيث يصغر كلّ شئٍ في جنبه.

روي في الفقيه بأسناده أنّه أتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله رجلٌ من أهل البادية له جسم و جمال فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه وآله أخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ** فقال صلى الله عليه وآله أمّا قوله: **لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا** فهي الرّؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشر بها في دنياه.

و أمّا قوله عزّ وجلّ: **فِى ٱلْاٰخِرَةِ** فأنّها بشارة المؤمن يبشّر بها عند موته أنّ اللّه عزّ وجلّ قد غفر لك ولمن يحملك الى قبرك انتهى.

و يستفاد من بعض الأخبار أنّ البشارة في الدنيّا البشارة بقيام القائم عليه السلام.

فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: في قوله تعالىٰ: لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ الإمام يبشّرهم بقيام القائم و بظهوره و بقتل أعداءهم و بالنّجاة في الأخرة و الورود على محمّد صلى الله عليه وآله الصادقين على الحوض الحديث.

و بأسناده عن علّي بن عقبة عن أبيه قال: قال لي أبو عبد اللّه يا عقبة لا يقبل اللّه من العباد يوم القيامة إلاّ هذا الأمر الّذي أنتم عليه (المراد به الولاية)بين أحدكم و بين أن يرى ما تقرّ به عينه إلاّ أن يبلغ نفسه الى هذه ثمّ أهوى بيده الى الوريد ثمّ إتّكى و كان معي المعلّى فغمرني أن سله فقلت يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فاذا بلغت نفسه هذي فأي شئ يرى فقلت له بضعة عشرة مرّة أيّ شئ فقال في كلّها يرى لا يزيد عليها ثمّ جلس في أخرها فقال يا عقبة فقلت لبيّك و سعديك فقال أبيت إلاّ أن تعلم فقلت نعم يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم

أنّما ديني مع دينك فاذا ذهب ديني كان ذلک كيف لي بك يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ساعة فبكيت فرقّ لي فقال عليه السلام يراهما و اللّه قلت بأبي و أمّي من هما قال عليه السلام ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله و علّي يا عقبة لن تموت نفس مؤمنة أبداً حتّى تراهما.

قلت فإذا نَظَر اليهما المؤمن أَيَرجع الىٰ الدّنيا فقال لا يمضي أمامه إذا نظر اليهما مضىٰ أمامه فقلت لا يقولان شيئاً قال نعم يذخلان جميعاً على المؤمن فيجلس رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند رأسه وعلّي عليه السلام عند رجله فيكتب عليه رسول اللّه فيقول يا ولّي اللّه أبشر أنا رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّي خير لك ممّا تركت من الدنيّا ثمّ نهض رسول اللّه صلى الله عليه وآله فيقوم علّيٌ عليه السلام حتّى يكتب عليه فيقول يا ولّي اللّه أبشر أنا علّي بن أبي طالب الّذي كنت تحبّه أمّا لأنفعنّك ثمّ قال أنّ هذا في كتاب اللّه

عزّ وجلّ فقلت أين جعلني اللّه فداك هذا من كتاب اللّه قال عليه السلام في يونس قول اللّه عزّ وجلّ هاهنا: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ اَلْبُشْرٰى** انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن عبد الرّحيم قال قال أبو جعفر أنّما أحدكم حين تبلغ نفسه هاهنا ينزل عليه ملك الموت فيقول، أمّا ما كنت ترجو فقد أعطيته و أمّا كنت تخافه فقد أمنت منه و يفتح له باب الى منزله من الجنّة و يقال له أنظر الى مسكنك من الجنّة و أنظر هذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله و علّي و الحسن و الحسين عليهم السّلام رفقاءك و هو قول اللّه عزّ وجلّ: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ اَلْبُشْرٰى فِي اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا وَ فِي اَلْاٰخِرَةِ**[1] والأحاديث الواردة بهذاالمعنىٰ كثيرة.

**وَ لٰا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ**

ظاهر الكلام النّهي و المراد به تسلية النّبي صلى الله عليه وآله عن قولهم الّذي يؤذونه به و هو تكذيبهم وتهديدهم النبّي وتشاورهم في أمره و من المعلوم أنّ المكذّبين بعضهم لا جميعهم فالكلام على هذا من قبيل ذكر العام و إرادة الخّاص و لا يبعد أن تكون الصفة المخصّصة محذوفة وتقدير الكلام قولهم الدال على تكذيبك و معاندتك و كيف كان فقوله: **إِنَّ اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا** مستأنف أي لا يحزنك قولهم إذ لا عزّة و لا قدرة لهم فأنّ العزّة للّه جميعاً فهم لا يقدرون على شئ و فى هذه الآية تأمينٌ للرّسول صلى الله عليه وآله و سلم من أضرار الكفّار و أنّ اللّه تعالى يديله عليهم و ينصر الرّسول كما وعد اللّه به في قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ اَللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اَللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ غٰالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ**[3].

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٣٠٩ الىٰ ص ٣١٢ ٢- المجادلة=٢١
٣- يوسف=٢١

قال اللّه تعالىٰ: قال الأصمّ كانوا يتعزّزون بكثرة خدمهم و أموالهم فأخبر اللّه تعالى أنّه قادر على أن يسلب منهم ملك الأشياء و إن ينصرك و ينقل اليك أموالهم و ديارهم انتهى.

**أقول** ما ذكره الأصمّ لا دليل عليه فالآية على عمومها، ثمّ أنّ العزّة القهر و الغلبة مختّصة باللّه تعالى و لا ينافيه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**[1].

و ذلك لأنّ عزّة الرّسول و المؤمنين أنّما هي من اللّه لا من عند أنفسهم فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه ألا ترى أنّه تعالى يقول: **مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ جَمِيعًا**[2] و أمثالها من الأيات الّتي تدلّ على أنّ العزّة مختّصة به تعالى و أنّما تسري منه الى غيره من المخلوق إذا شاء و أراد.

و السِّر فيه هو أنّ المخلوق كائناً من كان محتاج الى خالقه فقيرٌ في ذاته و صفاته:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ إِلَى اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ**[3].

و إذا كان كذلك فالعبد كما أنّه محتاج الى خالقه في وجوده محتاج اليه في صفاته فأنّها من توابع الوجود و لوازمه فهو في حدّ نفسه لا يقدر على شي:

قال اللّه تعالىٰ: **ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَقْدِرُونَ عَلىٰ شَيْءٍ مِمّٰا كَسَبُوا**[5] و الآيات كثيرة.

---

١- المنافقون=٨
٢- فاطر=١٠
٣- سورة فاطر آية ١٥
٤- النّحل=٧٥
٥- البقرة = ٢٦٤

محصّل الكلام هو انّ مخلوق قادر بقدرته تعالى عالم بعلمه و عزيز بعزّته و حيٌّ بحياته و هكذا فقوله: **إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** معناه أنّها له تعالىٰ أوّلاً و بالذّات و لغيره ثانياً و بالفرض و قوله و هو السّميع العليم، معناه أنّه تعالى يسمع قولهم و يعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضيه حالهم و يدفع عنك شرّهم و بعبارةٍ أخرى أنّه عالم بالمسموعات و الضّمائر.

■

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَ مَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهَارَ
مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا
فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ
﴿٧٠﴾ وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ
إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِاٰيَاتِ
ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَ
شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ
ٱقْضُوٓا إِلَىَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا
سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَ
أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَآئِفَ
وَ أَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

## ◄ اللّغة

يَخْرُصُونَ، الخَرص حرز الثّمرة و الخرص المحروز كالنّقض للمنقوض و قيل الخرص الكذب و لعلّه هو المراد بالأية.

مِنْ سُلْطٰانٍ أي حجّة و الباقي واضح.

## ◄ الإعراب

ومٰا يَتَّبِعُ ما، نافية، و مفعول، يتّبع محذوف دلّ عليه قوله إن يتّبعون إلاّ الظّن، و شركاء، مفعول يدعون، و قيل هي إستفهاميّة في موضع نصب بيتّبع إِنْ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إن، هاهنا بمعنى، ما، و بهذا، يتعلّق بسلطانٍ أو نعت له مَتٰاعٌ فِي ٱلدُّنْيٰا خبر مبتدأ محذوف تقديره، إفتراءهم أو حياتهم أو تقلبهم ونحو ذلك إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ إذ، ظرف و العامل فيه، بناء و يجوز أن يكون حالاً فَعَلَى ٱللّٰهِ الفاء جواب الشّرط والفاء في فَأَجْمِعُوٓا عاطفة على الجواب شُرَ كَآءَ كُمْ الجمهور فيه على النّصب و فيه أوجه.

أحدها: أنّه معطوفٌ على أمركم تقديره أمر شركاءكم،، فأقام المضاف اليه مقام المضاف.

الثّاني: هو مفعول معه، تقديره مع شركاءكم.

الثّالث: هو منصوب بفعل محذوف أي و أجمعوا شركاءكم و قد يقرأ بالرّفع بناءً على أنّه معطوف على الضّمير في أجمعوا.

## ◄ التفسير

### أَلَآ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ

ألا للتنّبيه و أصلها، لا دخلت عليها حرف الإستفهام لتفيد التنبيه و هي تستعمل في الإستقبال و لا تقع بعدها، إن، إلاّ مكسورة، بخلاف، أما، فأنّها تكون بمعنى حقّاً كقولهم أما أنّه منطلق لأنّها للحال و يجوز بعدها كسر، إن و

فتحها و هذا هو الفرق بينهما و كلمة، مَن بفتح الميم لا تستعمل إلاّ في العقلاء بخلاف، ما، فأنّها تستعمل فيهم و فى غيرهم، و إنّما جيء بها في الآية دون، ما، مع أنّها أشمل و أوسع من حيث المعنى لأنّ المراد بها في الآية العقلاء فقط دون جميع المخلوق و إذا كان له تعالى ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم و وجب أن يكون ملكاً بطريق أولى و إنّما خّص العقلاء تعظيماً للأمر و المعنى أنّ اللّه تعالى مالك لجميع العقلاء الّذين في السّموات كالملائكة و فى الأرض كالجّن و الإنس.

قال الرّاغب في المفردات الملك هو المتّصرف بالأمر و النّهي في الجمهور و ذلك يختّص بسياسته الناطقين و لهذا يقال ملك النّاس و لا يقال ملك الأشياء.

قال بعض المفسّرين أنّ، من، في الأصل للعقلاء و أمّا في المقام فهي شاملة لهم ولغيرهم على سبيل التّغليب و حيث جيء، بما، كان تغليباً للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل، أقول و على هذا فتغليب ذوي العقول إنّما هو لشرفهم لا لكثرتهم و وجه الشّرف ظاهر.

و قال صاحب الكشّاف، يعني العقلاء المميّزين و هم الملائكة و الثّقلان و إنّما خصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا في ملكه فهم عبيدٌ كلّهم لا يصلح أحدٌ منهم للربوبيّة و لا أن يكون شريكاً له فما دونهم ممّا لا يعقل أحقّ أن لا يكون نّداً و شريكاً و دلّ على من إتخذ غيره ربّاً من ملك أو إنسّي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدّىً اليه التقليد و ترك النّظر إنتهىٰ.

**وَ مٰا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُرَكٰآءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**

لمّا أثبت في صدر الآية أنّ من في السّموات و الأرض على ما مرّ البيان فيه له تعالى و أنّه خالقهم ومالكهم أشار في المقام بما يترّتب عليه و هو عدم

صلاحيّة غير اللّه تعالى من المخلوقات شريكاً له و ذلك لأنّ المخلوق لا يكون شريكاً للخالق للزومه أن يكون المخلوق مخلوقاً لغيره و خالقاً لغيره و هو من قبيل إجتماع النّقيضين توضيحه إجمالاً هو أنّ المخلوق بما مخلوق محتاج الى الخالق و الخالق لا يكون مخلوقاً لغيره و إلاّ يلزم التسلسل و إذا كان كذلك فلو كان المخلوق شريكاً لخالقه يلزم أن يكون خالقاً و مخلوقاً معاً و أن شئت قلت أن يكون مخلوقاً و غير مخلوقٍ و بعبارةٍ أخرى مخلوقاً و لا مخلوق و هو من قبيل إجتماع النقيضين.

**أقول** و يلزم أيضاً تقدّم الشّيء على نفسه و هو محال لأنّ المخلوق من حيث أنّه مخلوق مؤخّر وجوداً و رتبةً عن خالقه فلو فرضنا كونه خالقاً أو شريكاً له يلزم تقدّمه وجوداً على وجوده كتقدم العِلّة على المعلول و هو كما ترى هذا حكم العقل السليم الخالي عن شوائب الأوهام و عليه فمن جعل غير اللّه من المخلوقات شريكاً له لم يتّبع حكم العقل بل خرج منه من حيث لم يحتسب و اذا خرج حكمه عن العقل فلا محالة يدخل في الظّن و هو ترجيح أحَد الإحتمالين على الأخر و أنّما لم نقل دخل في الشكّ لأنّ الشكّ عبارة عن تساوي الطّرفين و المشرك يقول بالشّرك و يعتقد به و لا يقول بتساوي الشّرك و عدم الشّرك فما حكم به في الباب يدخل في المظنون و الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مٰا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُرَكٰآءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ** فما قوله و ما يتّبع، نافية بمعنى ليس كما أنّ، إن في قوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ** أيضاً نافية وقوله: **شُرَكٰآءَ** مفعول يَتّبع، ومَفعول، يدعون، محذوف يفهم المعنى تقديره ألهة، فيصير معنى الآية أنّ الّذين جعلوهم ألهة و أشركوهم مع اللّه في الرّبوبية ليسوا شركاء حقيقتاً اذ الشّركة في الألوهيّة مستحيلة و إن كانوا قد أطلقوا عليهم إسم الشّركة بحسب ظنونهم الكاذبة الفاسدة فهم كاذبون في دعواهم كما قال: **إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** و لا يبعد أن تكون، ما، في قوله: **وَ مٰا يَتَّبِعُ** إستفهاميّة لا نافية و شركاء مفعول يدعون، و

عليه فالمعنى أيُّ شئ يتَّبع المتَّبع كأنّه قيل من يدعو شريكاً للّه فهو في الحقيقة لا يتّبع شيئاً لأنّ متابعة الظّن في باب الإعتقادات كالعدم.

و أجاز الزّمخشري أن تكون ما، موصوله بمعنى الّذي عطفاً على، من، و العائد محذوف أي و الّذي يتّبعه الّذين يدعون من دون اللّه شركاء أي شركاءهم.

و قال بعضهم أنّ، ما، موصوله و هى في موضع رفع على الإبتداء و الخبر محذوف تقديره و الّذي يتّبع المشركون باطلٌ.

**أقول** و لكلٍّ من هذه الوجوه وجه وجيه من حيث التركيب و أمّا من حيث المعنى فالمأل واحد و هو أنّ المشركين إتَّبعوا في قولهم بالشّرك ظنونهم الفاسدة و لم يعلموا أنّ الإعتقاد الصحيح لا يحصل بالظّن الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً ففي الآية دلالة على عدم جواز تحصيل الإعتقاد من طريق الظّن بل لابدّ أن يكون من طريق العقل و لأجل هذا إتّفقوا على عدم جواز التقليد في الأصول لأنّه لا يفيد إلاّ الظّن بل يجب تحصيله عقلاً بحسب القدرة و الإستطاعة و السّر فيه هو أنّ القطع لا يحصل إلاّ من طريق العقل فهؤلاء لتقليدهم أسلافهم في ذلك أو لشبهةٍ دخلت عليهم بأنّهم يتَّقربون بذلك الى اللّه دخلوا في الظّن و خرجوا من العقل و هو كما ترى فأنّ الحكم اذا لم يكن من طريق العقل فهو كذب و لذلك قال تعالىٰ: **وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** أي يكذبون في دعواهم و هو واضح.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى ما هو خارج عن قدرة الشّركاء فقال:

**هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**

أي أنّ الّذي يملك من في السّموات و الأرض هو الّذي جعل اللّيل أي خلقه لتسكنوا فيه فيزول التّعب و الكلال عنكم بالنّوم و الإستراحة فيه و جعل

النّهار و أنّما يبصر فيه تشبيهاً و مجازاً و إستعارةً في صفة الشّئ بسببه علىٰ وجه المبالغة ففي الآية تنبيه على عظيم قدرته و شمول نعمته لعباده فهو المستحقّ لأن يفرد بالعبادة و حيث أنّ إضافة الإبصار الى النّهار مجاز لأنّ النّهار لا يتّصف به حقيقة و أنّما يبصر من في النّهار فالمعنى يبصرون فيه مطالب معايشهم فهو من قبيل قول جرير حيث قال:

لقد لمتنا يا أمّ عيلان في السّرى ونمت و ما ليل المطّي بنائمِ

و قال الأخر:

و نام ليلي و تجّلى همّي

و من المعلوم أنّ اللّيل لا ينام و الظّاهر أنّ اللاّم في قوله: **لِتَسْكُنُوا فِيهِ** لام التّعليل أي أنّ السّكون في اللّيل هو العلّة لخلق اللّيل هكذا قيل و الحقّ أنّها لام الغاية و قد أشار اللّه تعالى بهذه الدقيقة حيث قال:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْها**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَللّٰهُ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهارَ مُبْصِرًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اَللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اَللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهارَ مُبْصِرًا**[٥].

١- القصص =٧٣
٢- الرّوم =٢١
٣- غافر =٦١
٤- القصص =٧٢
٥- النّمل =٨٦

**إن قلت** ما الفرق بين الخلق و الجعل حيث قال في المقام و نظائره، جعل، و في الأزواج خلق، مع أنّ الغاية في المقامين واحدة و هى السّكون.

**قلت** الخلق أصله التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلْقِ اَلسَّمٰوٰتِ وَ اَلْأَرْضِ.**

أي أبدعهما بدلالة.

قال اللّه تعالىٰ: **بَدِيعُ اَلسَّمٰوٰتِ وَ اَلْأَرْضِ**(١).

و يستعمل في إيجاد الشّئ من شئ نحو.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلٰالَةٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ اَلْجَآنَّ مِنْ مٰارِجٍ**(٤).

و هكذا و ليس الخلق الّذي هو الإبداع إلاّ للّه تعالى و الى هذا الفصل بينه تعالى و بين غيره أشار بقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**(٥).

و أمّا الخلق بمعنى الإستحالة و هو الّذي لا يكون على سبيل الإبداع فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ بِإِذْنِي**(٦).

و أمّا الجعل فهو على ما قيل لفظٌ عامٌ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

**الأوّل**: يجري مجرى صار و طفق فلا يتّعدى نحو، جعل زيد يقول كذا.

**الثّاني**: يجري مجرى أوجد فتّعدى الى مفعولٍ واحد.

---

١- البقرة= ١١٧ ٢- النساء = ١

٣- المؤمنون = ١٢ ٤- الرحمن = ١٥

٥- النحل = ١٧ ٦- المائدة= ١١٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَ ٱلنُّورَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**[١].

**الثّالث**: هي إيجاد الشّيء و تكوّنه من شيءٍ أخر.

قال اللّه تعالىٰ: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**[٤].

**الرّابع**: في تصيير الشّيء على حالةٍ دون حالة.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**[٧].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا**[٨].

**الخامس**: الحكم بالشّيء على الشّيء حقّاً كان أو باطلاً

فأمّا الحقّ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**[٩].

و أمّا الباطل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا**[١٠].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ**[١١].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ**[١٢].

---

١- النحل = ٧٨
٢- النحل = ٧٢
٣- النحل = ٨١
٤- الزخرف = ١٠
٥- البقرة= ٢٢
٦- النحل = ٨١
٧- نوح = ١٦
٨- الزخرف = ٣
٩- القصص = ٧
١٠- الانعام = ١٣٦
١١- النحل = ٥٧
١٢- الحجر = ٩١

فهذه هي وجوه الجعل بحسب الإستعمال و بذلك قد ظهر الفرق اذا عرفت هذا.

**فإعلم** أنّ اللّيل يطلق على الظّلمة و النّهار على النُّور و النُّور و الظلمة ضدّان لا يجتمعان إلاّ أنّ النُّور أمرٌ وجودّيٌ و الظُّلمة أمرٌ عدّميٌ و لا وجود لها فهي في الحقيقة عبارة عن عدم النُّور و ليسست بشئٍ فلا يتعلّق بها الإبداع و أن شئت قلت لا يتعلّق بها الخلق الّذي هو إيجاد شئٍ من شئٍ و لذلك قال جعل اللّيل و لم يقل خلق اللّيل.

و أمّا في الأزواج قال خلق و لم يقل، جعل، فالجعل الّذي تعلّق باللّيل هو جعل البسيط لا الجعل المرّكب أي جعل الشّئ شيئاً لأنّه في المقام من قبيل تحصيل الحاصل.

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** فمعناه أنّ في ذلك علامات للسّامعين الّذين يسمعون أي يتّفكرون في عجائب الخلقة و يتّدبرونها و فيه تنبيه على أنّ هذا الجعل لا يقدر عليه أحد غيره تعالى.

**قٰالُوا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ وَلَدًا سُبْحٰانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ**

قال بعض المفسّرين، الّذين أضافوا إتّخاذ الولد اليه طائفتان:

**أحدهما**: كفّار قريش و العرب فأنّهم قالوا الملائكة بنات اللّه

**والأخرى** النّصارى الّذين قالوا المسيح إبن اللّه فكذّب اللّه الفريقين في هذه الآية **أقول** الضّمير في قالوا، عائد على من نسب الى اللّه الولد كائناً من كان، فقال تعالى في جوابهم، **هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي ٱلْأَرْضِ** فإستدلّ على نفي الولد بقوله هو الغنّي، فتصير صورة القياس هكذا، إنّ اللّه تعالى غنّي له ما في السّموات و ما في الأرض، و كلّ غنّي كذلك لا يحتاج الى الولد أو لا يكون له ولد فهو تعالى لا يكون له ولد.

أمّا الصُّغرىٰ فلا كلام لأحدٍ فيه لأنّه تعالى خالق السّموات و الأرض و من كان كذلك فهو غنيٌّ لا محالة اذ المفروض أنّه مالك ما سواه كائناً ما كان نعني بالغنّي إلاّ هذا.

و أمّا الكبرى فلأنّ الغنّي عن الكلّ لا يحتاج الى الولد أو لا يكون له ولد لعدم إحتياجه به فينتج أنّه لا ولد له و هو المطلوب.

و حاصل الكلام أنّه تعالى منّزه عن إتّخاذ الولد لكونه غير محتاج الى ذلك لأنّه مالك ما فى السّموات و الأرض، و قوله: **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَآ** معناه ليس عندكم من برهانٍ بهذا الّذي تقولون به فأنّ السّلطان هو البرهان الظّاهر و كلّ قولٍ لا برهان على صحّته فهو داخل في الإفتراء و الكذب بل نقول أنّ البرهان قائمٌ على خلاف قولهم و أنّه يستحيل عقلاً و ذلك لأنّ الولد المفروض لا يخلو أمّا أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود أو ممتنع الوجود.

**الأوّل**: محال لأنّ الولد يوجد بعد وجود الوالد لا قبله و لا معه اذ لو كان قبله يلزم أن لا يكون ولداً له و أن كان معه يلزم تساوي الوالد و الولد في مرتبة الوجود و هو محال هذا كلّه مضافاً الى أنّ الواجب يكون موجوداً بذاته و الولد موجود بوجود الوالد فكيف يعقل أن يكون هو أيضاً واجب الوجود.

**الثّانى**: أعني كوهه ممكناً محالٌ أيضاً لأنّ كلّ ممكنٍ فهو حادث و الحادث لا يولد من القديم.

**الثّالث**: أعني كونه ممتنعاً فهو حقّ لا مرية فيه و هو المطلوب.

و إن شئت قلت أنّه تعالى بسيط الحقيقة فلا جزء له حتّى ينفصل عنه الولد فلو كان له ولد يلزم أن يكون له أجزاء و كلّ مركب من الأجزاء محتاج اليها و كلّ محتاج ممكن الوجود فيكون الواجب ممكناً و هذا خلف و تفصيل الكلام في هذا الباب يأتي في سورة التّوحيد إن شاء اللّه.

**قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الذّين أضافوا اليه الولد، **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** أي لا يفوزون بشئ من الثّواب و فى هذا الكلام إشارة بأنّهم إفتروا على اللّه تعالى بما قالوه في حقّه و هو كذلك و قد أوضحناه بما لا مزيد عليه.

**مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**

قوله: **مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا** رفع بأنّه خبر الإبتداء و تقديره ذاك متاع أو هو متاع أو لهم متاعٌ في الدنيّا.

قال بعض المفسّرين أنّه جواب عن سؤالٍ مقدّر كأنّه قيل كيف لا يعلمون و هم في الدنيّا مفلحون بأنواع النّعم ممّا يتّلذذون به فقيل في الجواب ذلك متاعٌ في الدنيّا و هو ممّا لا بقاء له لأنّه زائل لا محالة ثمّ يلقون الشّقاء المؤيّد في الأخرة بسبب كفرهم.

**وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا إِلَىَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ**

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يخبر هؤلاء الكفّار أخبار نوح اذ فيها تنبيهٌ و موعظةٌ لمن يتّنبه و يتّعظ بها فقال و أتل عليهم يا محمّد نبأ نوح اذ قال نوح لقومه الّذين بعث اليهم ياقوم أن كان كبر عليكم مقامي، بين أظهركم و تذكيري إيّاكم بأيات اللّه و أردتم قتلي و أذاي فعلى اللّه توكّلت أي فوّضت أمري اليه فأجمعوا ذوي الأمر منكم أي رؤوساءكم و وجوهكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة أي مغطّى مستوراً بل ينبغي أن يكون ظاهراً مكشوفاً ثمّ أقضوا إلىّ و لا تنظرون أي إفعلوا ما تريدون على وجه التهديد لهم.

**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**

أي فأن هربتم عن الحقّ و إتّباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه و أعرضتم عن إتّباعي و قبول قولي **فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ** أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي فيثقل عليكم، **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** و المعنى ليس أجري إلاّ عليه تعالى لأنّه أرسلني اليكم، **وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** و المعنى أنّي مأمورٌ من قبل اللّه تعالى أن أكون من المسلمين المطيعين لأوامره و نواهيه فأنّ طاعته خير ما يكسبه العباد.

**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ** أي أنّ قومه لم يقبلوا قوله: **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ** أي نجّينا نوحاً و أتباعه ممن معه في السّفينة عن الغرق، و جعلناهم خلائف، في الأرض.

**وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا** نوحاً في الماء فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين، الّذين أنذرهم نوح فأعرضوا عنه و كذّبوه و محصّل الكلام في هذه الأيات هو أنّ اللّه تعالى لا يعذّب قوماً إلاّ بعد تماميّة الحجّة و ظهور الحقّ عليهم عبرة لأولي الأبصار.

و أمّا قصّة نوح و الطّوفان و تفصيل الكلام فيها فيأتي في تفسير الأيات في سورة نوح إن شاء اللّه تعالى.

■

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاۤءُوهُمْ
بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾
ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هٰرُونَ إِلى فِرْعَوْنَ
وَ مَلَائِهِ بِاٰياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمّا جاۤءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا
قالُوٓا إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قالَ مُوسىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّا جاۤءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا وَ لا
يُفْلِحُ ٱلسّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قالُوٓا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمّا
وَجَدْنا عَلَيْهِ اٰبآءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيآءُ فِي
ٱلْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَ قالَ
فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمّا جاۤءَ
ٱلسَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسىٰٓ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ
﴿٨٠﴾ فَلَمّآ أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ
إِنَّ ٱللّٰهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَ يُحِقُّ ٱللّٰهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ
كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمآ اٰمَنَ لِمُوسىٰٓ إِلّا ذُرِّيَّةٌ
مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ
يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

## ◄ اللّغة

نَطْبَعُ، الطّبع جعل الشّئ على صفة غيره بمعنى فيه و قال الرّاغب في المفردات الطّبع أنّ تصّور الشّئ بصورةٍ ما كطبع السِّكة و طبع الدّراهم و هو أعمّ من الختم و أخصّ من النّقش.

فِرْعَوْنَ بكسر الفاء وسكون الرّاء وفتح العين إسمٌ أعجمّيٌ و قد أعتبر عرامته فقيل تفرّعن فلان اذا تعاطى فعل فرعون و منه قيل للطّغاة الفراعنة.

لِتَلْفِتَنَا أي لتصرفنا و اللّفت الصّرف عن أمرٍ.

## ◄ الإعراب

أَسِحْرٌ هٰذا سحر خبر مقدّم و هذا مبتدأ اَلْكِبْرِيَآءُ فِى اَلْأَرْضِ هو إسم كان و لكم، خبرها و فى الأرض، ظرف للكبرياء منصوب بها و بكان أو بالإستقرار في لكم، مَا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ يقرأ بالإستفهام فعلى هذا تكون، ما، إستفهاماً و موضعها نصب بفعل محذوف موضعه بعد، ما، تقديره يأُ شئٍ أتيتم به، و جئتم به، يفسّر المحذوف و قيل الخبر محذوف أي السِّحر هو موضعها الرّفع بالإبتداء و جئتم به، الخبر.

## ◄ التّفسير

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلٰى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

أي ثمّ بعثنا من بعد نوح رسلاً الى قومهم، و المعنىٰ أرسلنا كلّ رسولٍ الىٰ قومه فجاءوهم بالبيّنات الدّالات على صدق دعواهم من المعجزات و الكرامات الجارية على أيديهم بإذن اللّه و الضّمير في قوله، بعده، يرجع الىٰ نوح أي ثمّ بعثنا من بعد نوح رسلاً، و هم هود، في قوم عاد و صالح النّبي عليه السلام في قوم ثمود و إبراهيم الخليل عليه السلام في قوم نمرود و فرعون زمانه و

إسحاق عليه السلام و لوط في قومه و يعقوب النّبي و يوسف الصّديق و أيُّوب النّبي و شعيب و غيرهم من الأنبياء الّذين بعثوا الى قومهم كما سيجئ قصصهم في محلّه إن شاء اللّه.

## فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

الضّمير في كذّبوا أيضاً الى قوم نوح أي ما كانوا هؤلاء الأقوام ليؤمنوا بما كذّبوا به قوم نوح من قبل من توحيد اللّه و تصديق أنبياءه و قيل المعنى ما كانوا ليؤمنوا بالحجج و البيّنات بعد إتيان الأنبياء بها بما كذّبوا به من قبل و هذا يخبر عن عنادهم و عتُوهم و المقصود أنّهم كذّبوا أنبياءهم كما كذَّب قوم نوح و لم يؤمنوا كما لم يؤمن قوم نوح به.

## كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ

معناه أنّا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفّار سمة و علامة على كفرهم بلزمهم الذّم بها و تعرفهم بها الملائكة إنّا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتدين وليس المراد من الطَّبع في الآية المنع من الإيمان لأنّ من منع من الإيمان لا يحسن تكليفه به و المعتدون هم الظّالمون لنفوسهم الذّين تعدُّوا حدود اللّه تعالى هكذا قيل في تفسير الآية.

و قال بعضهم و جاء النّفي مصحوباً بلام الجحود ليدلّ على أنّ إيمانهم في حيّز الإستحالة و الإمتناع و الضَّمير في، كذّبوا، عائد على من عاد عليه ضمير، كانوا، و هم قوم الرُّسل و المعنى أنّهم كانوا قبل بعثة الرُّسل أهل جاهليّة و تكذيب للحقّ فتساوت حالتهم قبل البعثة و بعدها كأن لم يبعث اليهم أحد، ومن قبل، متعلّق بكذّبوا، أي من قبل بعثة الرُّسل و كيف كان لا خفاء في معنى الآية و الظّاهر أنّ، ما، في قوله: **بِمٰا** موصوله و لذلك عاد الضّمير عليها في قوله: **بِمٰا كَذَّبُوا** به ولو كانت مصدرية.

كما قال بعضهم بقي الضّمير غير عائد على مذكورٍ فيحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضّمير و الكاف في قوله: **كَذٰلِكَ** للتّشبيه أي مثل ذلك الطّبع المحكم الّذي يمتنع زواله نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم و المبالغين في الكفر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتجّ أصحابنا على أنّ اللّه تعالى قد يمنع المكلّف عن الإيمان بهذه الآية انتهى.

**والجواب عنه أمّا أوّلاً**: أنّ الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالىٰ: **بَلْ طَبَعَ ٱللّٰهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا**[1] ولو كان هذا الطّبع مانعاً لما صَحَّ الإستثناء.

**ثانياً**: لو كان الأمر كما ذكره و إعتقده لمّا تحسن التكليف لأنّ الممنوع من الإيمان كيف يكلّف به ثمّ يعاقب على عدم الإيمان فالحقّ أنّ علمه تعالى بعدم إيمانهم بإختيارهم كالطّبع على قلوبهم بعدم الإيمان.

**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِـَٔايَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**

و المعنى بعثنا بعد الرُّسل موسى و هارون الى فرعون و ملاءه، أي رؤوساء قومه و أكابرهم بأياتنا و هى المعجزات التّي ظهرت على يديه فإستكبروا، عن الإنقياد لها و الإيمان بها و كانوا قوماً مجرمين، في ذلك المستحقّين للعقاب الدّائم و الإجرام إكتساب السّيئة و هى صفة ذمٍّ و سيأتي تفصيل ذلك في سورة القصص إن شاء اللّه تعالى.

**و إعلم** أنّ موسى إسمٌ مركب من إسمين بالقبطيّة فمو، هو الماء، وسى، الشّجر و سمّي بذلك لأنّ التّابوت التّي كان فيها موسى وجد عند الماء و الشّجر وجدته حواري أسية و قد خرجن ليغتسلن و هو موسى بن عمران بن

١- النساء=١٥٥

يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب قيل ولد يعقوب لاوي و قد مضى من عمره تسع و ثمانون سنة ثمّ أنّ لاوي بن يعقوب نكح نابتة بنت ماوي بن يشخر فولدت له عرشون و مرزي و مردي وقاهث بن لاوي و ولد للاوي قاهث بعد أن مضى من عمره ستّ و أربعون سنة فنكح قاهث بن لاوي قاهي بنت مبنيرين بن تبويل بن إلياس فولدت له يصهر و تزوّج يصهر شميت بنت تباويت بن بركياً بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران و قد مضى من عمره سنة و كان عمر يصهر مائة و سبعاً و أربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نحيب بنت إشموئيل بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له هارون و موسى و إختلفوا في إسم أمّها فقيل نخيب و قيل أفاحية و قيل بوخائيد و هو المشهور و كان عمر عمران مائة و سبعا و ثلاثين سنة و ولد له موسى و قد مضى من عمره سبعون سنة، ثمّ أنّ هارون كان أكبر سنّاً من موسى و مات هارون قبل موسى و هو أخو موسى لأبيه و أمّه ولم يكن لموسى ولد و كان الولد و الذريّة لهارون و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً و قيل الوحي كان ينزل على موسى و هو يوحيه الى هارون و هو الحقّ.

**فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ**

أخبر اللّه تعالى عن قوم فرعون الّذين أخبر عنهم بالإستكبار أنّهم لمّا جاءهم الحقّ من عند اللّه قالوا أنّ هذا الّذي أتى به موسى من المعجزات و البراهين بسحرٌ ظاهر و هو إخراج الباطل بصورة الحقّ.

و قيل هو إسمٌ لفعلٍ يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصُّور و الطّبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند المحصلين.

**قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ**

**إعلم** أنّ الألف في قوله: **أَتَقُولُونَ**، و قوله: **أَسِحْرٌ هَٰذَا**، للإستفهام الإنكاري و قيل في تكريرها ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنّ يكون لتأكيد التّقريع على الحذف كأنّه قال أتقولون للحقّ لمّا جاءكم انّ هذا لسحرٌ مبين، أسحرٌ هذا و الحال أنّ السّاحر لا يفلح.

**الثّاني**: على وجه التكرار كقولك أتقول أعندك مال.

**الثّالث**: أن يكون حكاية قولهم و أن إعتقدوا أنّ السِّحر كما يقول الرّجل للجارية اذا أتته أحقٌّ هذا فيقولونه على التَّعجب ذكر هذه الوجوه في التبيان.

و قال الرّازي أنّ موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنّهم قالوا، أسحرٌ هذا بل قال أتقولون للحقّ لمّا جاءكم ما تقولون ثمّ حذف عنه مفعول، أتقولون، لدلالة الحال عليه ثمّ قال مرّةٍ أخرى أسحرٌ هذا و هذا إستفهام على سبيل الإنكار ثمّ إحتجّ على أنّه ليس بسحرٍ و هو قوله: **وَ لا يُفْلِحُ السّاحِرُونَ** انتهى كلامه.

و قال القرطبي في الكلام حذف و المعنى أتقولون للحقّ هذا سحرٌ ثمّ إستأنف إنكاراً أخر من قبله فقال أسحرٌ هذا فحذف قولهم الأوّل إكتفاءً بالثّاني من قولهم منكراً على فرعون و ملاءه.

و نقل عن الأخفش أنّه قال هو من قولهم و دخلت الألف حكايةً لقولهم لأنّهم قالوا أسحرٌ هذا فقيل لهم أتقولون للحقّ لمّا جاءكم أسحرٌ هذا انتهى.

**قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ.**

قرأ بعضهم، **ويكون**، بالياء والباقون بالتّاء على جهة الخطاب و هو الأشهر بل لا وجه لقراءة الياء بدليل قولهم لتلفتنا، على وجه الخطاب فالتّاء أوفق بسياق الآية من الياء مضافاً الى أنّ قوله لكما الكبرياء، أيضاً مؤيّد للخطاب ولو كانت قراءة الياء صحيحة ينبغي أن يقال لهما الكبرياء على وجه الغيبة و كيف كان فالمعنى أنّهم قالوا لموسى أجئتنا لتلفتنا أي لتصرفنا و تمنعنا عمّا وجدنا عليه أباءنا من عبادة الأوثان و تكون لكما، الخطاب لموسى و هارون لأنّهما بعثا اليهم كما قال تعالىٰ: **مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هٰرُونَ** الكبرياء في الأرض و هى

الملك و قال قوم هي العظمة و قال قوم هي السّلطان و الكبرياء إستحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب.

**وَ مٰا نَحْنُ لَكُمٰا بِمُؤْمِنِينَ** أي لسنا أن نؤمن لكما في، دعوتكما إيّانا بلا نّبوة و الألف في قوله: **أَجِئْتَنٰا**، للإستفهام و المراد به الإنكار على طريق اللّجاج و العناد لأنّهم تعلّقوا في حجّتهم بالشُّبهة في أنّهم على رأي أباءهم و إدّعوا أنّ من دعاهم الى خلاف ما كانوا عليه من الشِّرك و الكفر فهو يريد التّأمر عليهم و لم يعلموا أنّ أباءهم كانوا على الباطل ففي الآية دلالة على ذمّ التقليد في الإعتقادات بل يجب التّفحص فيها و هذا ممّا أجمعوا عليه و لم يخالف فيه أحد و أنّما خاطبوا موسى وحده في قولهم أجئتنا، لأنّه هو الّذي ظهرت على يديه معجزة العصا و اليد و المراد بالأرض في قولهم هو أرض مصر و أنّما قالوا و تكون، بالتّاء لمجاز تأنيث الكبرياء و من قرأ بالياء فقد راعى اللّفظ لأنّه مذّكر.

قال بعض المفسّرين أنّهم قالوا لموسى مقصودك في مجيئك الينا بما جئت هو أن ننتقل عن دين أباءنا الى ما تأمرنا به و نظيعك و يكون لكما العلّو و الملك علينا بطاعتك فنصير أتباعاً لك تاركين دين أباءنا و هذا مقصود لا نراه فلا نصدّقك فيما جئت به اذ غرضك أنّما هو موافقتك على ما أنت عليه و إستعلاءك علينا فالسَّبب الأوّل هو التقليد و الثّاني الجدّ في الرّئاسة حتّى لا تكونوا تبعاً و إقتضى هذان السببان اللّذان توهمّوهما مقصوداً التّصريح بإنتفاء الإيمان الّذي هو سببٌ لحصول السَّببين و يجوز أن يقصدوا الذّم بأنّهما أن ملكا أرض مصر تكَّبراً و تجَّبراً كما قال القبطي، إن تريدا إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض انتهى.

**أقول** معنى الآية واضح لا خفاء فيه فلا نحتاج الى هذه التّخريجات و التّكلفات.

**وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سٰاحِرٍ عَلِيمٍ** قرأ أكثر أهل الكوفة بكلّ سحّارٍ بتشديد الحاء و ألف بعدها و الباقون، ساحر، على وزن فاعل و لكلٍّ وجهٌ وجيه

و المعنى واحد و أنّما قال فرعون ذلك بعد أن أعجزه المعجزات التّي ظهرت على يد موسى و لم يكن له في دفعها حيلة فقال لقومه أدتوني بكلّ ساحرٍ عليم، أي عليم بالسِّحر بليغٌ في علمه و فرعون، لا ينصرف لأنّه أعجّمي معرفةً و هو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره إنصرف كياقوت و وزنه فعلون و الواو زائدة لأنّها لحقت عند سلامة الثّلاثة و مثله فردوس قالوا أنّما طلب فرعون كلّ ساحرٍ ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى و حتّى لا يفوته شئ من السّحر بتّأخر بعضهم.

**فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ**

و أنّما أمرهم موسى بالإلقاء أوّلاً لأنّ موسى أراد إبطال سحرهم و المعنى أطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم و عصيّكم.

**فَلَمَّآ أَلْقَوْا** حبالهم و عصيّهم **قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**

قرأ أبو عمرو و مجاهد و أصحابه و ابن القعقاع بهمزة الإستفهام في قوله: **ٱلسِّحْرُ** ممدودة و باقي السّبعة و الجمهور به هَمزة الوصل فعلى الإستفهام قالوا يجوز أن تكون، ما، إستفهاميّة مبتدأ و السِّحر بدل منها و أن تكون منصوبة بمضمر تفسيره **جِئْتُمْ بِهِ** و السّحر خبر مبتدأ محذوف تقديره، أهو السِّحر.

و قال بعضهم، ما، في موضع رفع بالإبتداء و الخبر **جِئْتُمْ بِهِ** و التقدير، أيُّ شئٍ جئتم به، على سبيل التّوبيخ و التّصغير لما جاءوا به من السِّحر.

و قيل أنّ الألف و اللاّم في قوله: **ٱلسِّحْرُ** للعهد و ذلك لأنّهم قالوا لما أتى به موسى أنّه سحر فقال موسى في جوابهم أنّ ما جدتم به فهو من السِّحر.

و في قراءة أبّي**مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ** بلا ألف ولام و أنّما عبّر عن عملهم بالفساد وعدّهم من المفسدين لأنّ المعارض للحقّ مفسد قطعاً كما أنّ المعارض للباطل مصلح و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**

معناه أنّ اللّه سيبطل سحركم هذا لأنّه من الباطل و فاعله مفسد و من أفسد في الأرض لا يصلح اللّه عمله لأنّه من الباطل الذّي كان زهوقاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلْ جٰآءَ اَلْحَقُّ وَ زَهَقَ اَلْبٰاطِلُ إِنَّ اَلْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقًا**[١].

و الى هـذا أشـار بـقوله **لِـيُحِقَّ اَلْـحَقَّ وَ يُـبْطِلَ اَلْـبٰاطِلَ وَ لَـوْ كَـرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ**[٢].

فأنّ هذا عطف على قوله: **قٰالَ مُوسىٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ** أي أنّ اللّـه سيبطله و يـحقّ الحـقّ بكـلماته أي يـظهر الحـقّ بسـبب كـلماته الّتـي وعـدها لموسى أو بكلامه الّذي يبيّن به معاني الأيات التّي أتاها نبيّه ﷺ أو بما سـبق من حكمه في اللّوح المحفوظ بأنّ ذلك يكون على إختلاف الأقوال فيه هذا.

**و أنا أقول** لا يبعد أن يكون المراد بالكلمات هو كلماته التّكوينيّة الوجـوديّة و في رأسها الأنبياء و الأوصياء و الأولياء و عليه فالمعنى أنّ اللّـه تـعالى يـبطل عمل المفسدين على أيدي المصلحين الكـاملين أعـني بـهم الأنـبياء أعـطاهم اللّه تعالى المعجزات و الكرامات و خوارق العادات ولو كره المجرمون و كيف كان ففي الآية دلالة صريحة على أنّه تعالى ينصر المحقّين و يخذل المفسدين قال اللّه تعالى **إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا فِي اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا**[٣].

**فَمٰآ اٰمَنَ لِمُوسىٰ إِلّٰا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِينَ**

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لم يصدّق لموسى بالنّبوة إلاّ ذريّة من قومه أي من قوم موسى من بني إسرائيل مع خوفهم من فرعون و أشراف قـومه، أو أتباعه أن يفتنوهم أي يعذّبوهم بأنواع العذاب و أنّ فرعون لعـالٍ فـي الأرض، هو من العُلو أي إستكبروا و إدّعى الألوهيّة و هى من أكبر مصاديق العلُّو و أنّه،

١- الاسرا= ٨١ ٢- الانفال = ٨

٣- غافر =٥١

أي فرعون، لمن المسرفين المكثرين في القتل و إرتكاب المعاصي و ذلك لأنّ الإسراف الّذي هو بمعنى التّجاوز عن الحدّ قد يتحقّق بالقتل و قد يتحقّق بسبب المعاصي.

قال ابن عبّاس أنّه أراد إلاّ قليل من قومه، و قيل كانت أمّهاتهم من بني إسرائيل و أباءهم من القبط و قيل سمّوا ذريّة لأنّهم أولاد الذين أرسل عليهم موسى فلم يستجيب الأباء و قيل الأبناء.

و قيل هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلّم السِّحر و جعلهم من أصحابه و الضّمير في قوله و ملاءهم، قيل يرجع الى الذريّة فقط و قيل الى فرعون و أتباعه، و قيل الى فرعون فقط و فى الآية إشعار بأنّ الذريّة من قوم موسى الّذين كانوا على خوف من فرعون و هو كذلك.

■

وَ قَالَ مُوسٰى يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللّٰهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَ أَوْحَيْنَآ
إِلٰى مُوسٰى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّاٰ لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ
بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَ
بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَ قَالَ مُوسٰى رَبَّنَآ إِنَّكَ اٰتَيْتَ
فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوٰالًا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلٰى أَمْوٰالِهِمْ
وَ اشْدُدْ عَلٰى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتّٰى يَرَوُا
الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمٰا
فَاسْتَقِيمٰا وَ لَا تَتَّبِعٰانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٨٩﴾ وَ جٰاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرٰائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتّٰى إِذٰآ أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ اٰمَنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ اٰمَنَتْ بِهِ
بَنُوٓا إِسْرٰائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْاٰنَ وَ قَدْ
عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا
مِنَ النّٰاسِ عَنْ اٰيٰاتِنَا لَغٰافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا
بَنِيٓ إِسْرٰائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

## ◄ اللّغة

تَبَوَّءَا أي إتّخذ يقال بوّأته منزلاً أي إتخّذته له و أصله الرّجوع من باؤو بغضب من اللّه، أي رجعوا و المبّوأ المنزل لأنّه يرجع اليه للمقام فيه.

آطْمِسْ بفتح الألف وكسر الميم و الطَّمس محو الأثر يقال طمست الرّيح آثار الديار.

وَ آشْدُدْ أي ثبّتهم على المقام في بلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشَّد عليهم.

بَغْيًا وَ عَدْوًا البغي طلب الإستعلاء بغير حّقٍ و العدو و الظُّلم.

## ◄ الإعراب

أَنْ تَبَوَّءَا يجوز أن تكون (أَن) المفسّرة و لا يكون لها موضع من الإعراب و يجوز أن تكون مصدريّة فتكون في موضع نصب، بأوحينا و الجمهور على تحقيق الهمزة و منهم من جعلها ياء و هى مبدلّة من الهَمزة تخفيفاً لِقَوْمِكُمَا أحد مفعولي تبَّوأ و يجوز أن يكون حالاً من البيوت بِمِصْرَ متعلّق بتَّبوأ أن يكون حالاً من البيوت و أن يكون حالاً من قومكما و أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في تبَّوأ فَلَا يُؤْمِنُوا في موضعه وجهان:

**أحدهما**: النَّصب و فيه وجهان:

أحدهما: هو معطوف على لِيُضِلُّوا.

**الثّانى**: هو جواب الدّعاء في قوله و أطمس و أشدد.

**والقول الثّانى**: موضعه جزم لأنّ معناه الدّعاء كما تقول لا تعذّبني وَ لَا تَتَّبِعَآنِّ يقرأ بتشديد النّون والنّون للتوكيد و يقرأ بتخفيف النّون و كسرها وَ جَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الباء للتعديّة مثل الهمزة بَغْيًا وَ عَدْوًا مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال آلْآنَ العامل فيه محذوف تقديره، أتؤمن الآن بِبَدَنِكَ في موضع الحال أي عارياً مُبَوَّأَ صِدْقٍ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون مكاناً.

## ◄التّفسير

**وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**

التَّوكل التَّوثق بأسناد الأمر الى اللّه و الوكالة عقد الأمر لمن يقوم به مقام مالكه و حيث أنّ اللّه عزّ و جلّ أملك بالعبد من نفسه فهم أحقّ بهذه الصِّفة فأنّ التوكل على اللّه يوجب النّجاة من كلّ محذور و الفوز بكّل سرور و لذلك قال موسى لقومه من بني إسرائيل **يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** أي صَدَّقتم بتوحيده واقعاً فعليه أي فعلى اللّه توكّلوا في جميع شئونكم أن كنتم مسلمين أي مطيعين منقادين له تعالى و قد مرّ منّا مراراً أنّ الإيمان عبارة عن الإعتقاد بالجنان و الإقرار باللّسان و العمل بالأركان و أمّا الإسلام فهو الإقرار بالشّهادتين فقط و لذلك يكون الإيمان أعّم من الإسلام فكلّ مسلم و ليس كلّ مؤمنٍ مسلمٍ مؤمناً إذا عرفت هذا فلقائل أن يقول قوله: **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** يكفي في المقام فما معنىٰ قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** بعده.

و الجواب أنّ قوله: **مُسْلِمِينَ** ليس المراد به الإسلام المصطلح أعني الإقرار بالشهادتين لأنّه موجود في الايمان بل المراد به التَّسليم و الإنقياد له تعالى كما قال أمير المؤمنين عليه السلام الإسلام هو التّسليم ألخ.

و مقام التَّسليم من أعلى المقامات في طريق السُّلوك الى اللّه فالمعنى أنّ موسى عليه السلام قال لقومه أن كنتم آمنتم باللّه حقّاً و كنتم من المطعين المنقادين له فعليه توكّلوا لأنّ المؤمن المنقاد له تعالى في جميع أوامره و نواهيه يكون في مقام التَّسليم لا محالة و لا نعني بالتَّوكل إلاّ إيكال الأمر اليه و لعلّه لذلك أتى بفاء التّفريع و قال فعليه توكلّوا ولم يقل و عليه توكلّوا أي أنّ التَّوكل من فروع الإيمان و التَّسليم فمن لا يتوكّل عليه لا يكون مؤمناً مطيعاً حقّاً و إنّما خاطبهم بذلك حين إشتّد خوفهم ممّا توعَّدهم به فرعون من قتل الآباء و ذبح الذريّة.

قال بعض المفسّرين علّق توكلهم على شرطين متقدّم و متّأخر و متى كان الشرطان لا يترّتبان في الوجود فالشّرط الثّاني شرط في الأوّل فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدواً عليه فالإسلام هو الإنقياد للتكاليف الصادرة من اللّه و إظهار الخضوع و ترك التّمرد و الإيمان عرفان القلب باللّه تعالى و وحدانيّته و سائر صفاته و أنّ ما سواه محدث تحت قهره و تدبيره و إذا حصل هذا الشّرطان فوّض العبد جميع أموره اليه تعالى و أعتمد عليه في كلّ الأحوال إنتهى كلامه.

**فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ، وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**

يظهر من الآية أنّهم أطاعوا موسى فتوكلّوا على اللّه تعالى و سئلوا اللّه تعالى و قالوا **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي لا تَجعلنا مِحنَةً و إعتباراً لهم أي للقوم الظالمين الّذين هم قوم فرعون و أختلفوا في معنى المراد بالفتنة الّتي أصلها البليّة فقال قوم معناه لا تجعلنا فتنة بتقتير الرّزق علينا و بسطه لهم و قال الزّمخشري أي موضع فتنة لهم أي عذاب يعذّبوننا و يفتنون عن ديننا أو فتنة لهم يفتنون بنا و يقولون لو كان هؤلاء على الحقّ لما أصيبوا.

و قال القرطبي، أي لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدّين أو لا تمنحنا بأنّ تعذّبنا على أيديهم و قال مجاهد المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا فيقول أعدائنا لو كانوا على حقّ لم نسلّط عليم فيفتنوا.

و قال الأخرون يعني لاتظهرهم علينا فيروا أنّهم خيراً منّا فيزدادوا طغياناً و كفراً الى غير ذلك من الأقوال المسطورة في التّفاسير.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه و فيه وجوه:

**الأوّل**: أنّ المراد لا تفتن بنا فرعون و قومه لأنّك لو سلطّتهم علينا لوقع في قلوبهم إنّا كنّا على الحقّ لما سلّطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قويّة في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

**الثّاني**: أنّك لو سلّطتهم علينا لأستوجبوا العقاب الشّديد في الأخرة يكون فتنةً لهم.

**الثّالث**: لا تجعلنا فتنةً لهم أى موضع فتنة لهم أي موضع عذاب لهم.

**الرّابع**: أن يكون المراد من الفتنة المفتون لأنّ إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق و المعنى لا تجعلنا مفتونين أي لا تمكنّهم من أن يحملونا بالظلم و القهر على أن ننصرف من هذا الدّين الحقّ الّذي قبلناه و هذا التّأويل متأكّد بما ذكره اللّه تعالى قبل هذه الآية و هو قوله: **فَمَآ اٰمَنَ لِمُوسىٰٓ إِلّٰا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ**[1] المطلوب الثّاني في هذا الدّعاء. فهو قوله تعالىٰ: **وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِكَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ**.

ثمّ قال و أعلم أنّ هذا التّرتيب يدلّ على أنّه كان إهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق إهتمامهم بأمر دنياهم و ذلك لإنّا إن حملنا قولهم: **رَبَّنٰا لٰا تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ** على أنّهم سلّطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أنّ هذا الدّين باطل فتّضرعوا الى اللّه تعالى في أن يصون أولئك الكفّار عن هذه الشّبهة و قدّموا هذا الدّعاء على طلب النّجاة لأنفسهم و ذلك يدلّ على أنّ عنايتهم بمصالح دين أعداءهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم و أن حملناه على أن لا يمكّن اللّه أولئك الكفّار من أن يحملوهم على ترك هذا الّدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أنّ إهتمامهم بمصالح أديانهم فٰوق إهتمامهم بمصالح أبدانهم و على جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة انتهى كلامه.

**أقول** هذا الكلام لا يحتاج الى هذه التأويلات الباردة السخيفة و ذلك لأنّ معنى الكلام أعني به قوله: **لٰا تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ** يظهر من قوله: **عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ**[2] فحيث كان إيمان الذريّة بموسى على خوف من فرعون و ملائهم أن يفتنهم، أي يعذّبهم و يبتليهم بأنواع

١- يونس = ٨٤ ٢- يونس=٨٣

المصائب فقالوا بعد إيمانهم بموسى ربّنا لا تجعلنا فتنة لفرعون و ملائه بعد إيماننا بموسى كما كنّا كذلك قبل الإيمان ففي هذا الكلام دعاءٌ على فرعون بالمغلُوبيّة و الإستئصال فكأنّهم قالوا ربّنا سلّطنا على أعداءنا و لا تجعلنا مقهورين لهم ليعذّبونا بأنواع العذاب.

و أنّما قالوا ذلك لأنّ قوم موسى إستعبدهم فرعون و ملائه و قالوا لو كان لهؤلاء على اللّه كرامة كما يقولون و يدّعون ما سلّطنا عليهم و حيث قالوا ذلك قال موسى لقومه: **يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا،فَقٰالُوا عَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ، وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِكَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ** أي لا تسلّطهم علينا ثانياً و هذا ظاهر لا خفاء فيه

**وَ أَوْحَيْنٰآ إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّاٰ لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا اَلصَّلٰوةَ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ.**

**الوَحي** بفتح و سكون الحاء الإشارة السريعة و لتضمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌّ و ذلك قد يكون بالكلام على سبيل الرَّمز و التّعرض و قد يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب، و بإشارةٍ ببعض الجوارح، و بالكتابة.

و يقال للكلمة الإلهية الّتي تلقى الى أنبياءه و أولياءه وحيٌ و ذلك أضربٌ جسماً دلّ عليه قوله: **وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلّٰا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرٰآءِ حِجٰابٍ**[1].

و ذلك أمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل عليه السلام النّبي في صورة معيّنة.

و أمّا بسماع كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه.

و أمّا بإلقاءٍ في الرَّوح كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ روح القدس نفث في روعي.

١- الشّورىٰ=٥١

و أمّا بإلهام:

كما قال تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**[١].

و أمّا بتسخير:

كقوله تعالىٰ: **وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى اَلنَّحْلِ أَنِ اَتَّخِذِي مِنَ اَلْجِبالِ بُيُوتاً**[٢].

وأمّا بمنامٍ كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن.

فالإلهام و التسخير و المنام دلّ عليه قوله، إلاّ وحياً و سماع الكلام معاينة دلّ عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرٰآءِ حِجٰابٍ**.

و تبليغ جبرائيل في صورةٍ معيّنة دلّ عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**[٣] إذا عرفت هذا فنقول.

قوله: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ** و هو هارون، كان الوحي الى موسى بواسطة جبرائيل و أمّا وحيه تعالى الى هارون فهو بواسطة جبرائيل و موسى و لذلك قدّم موسى في الكلام لأنّه كان نبيّاً مرسلاً و هارونه كان وزيره ما دام موسى حيّاً و لم يكن هارون نبيّاً في حياة موسى.

و قيل كان شريكاً له في النبّوة إلاّ أنّ موسى هو الأصل فيها.

نعم لو بقى هارون بعد موسى لكان نبيّاً و لكنّه مات قبل موسى.

و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى أوحى الى موسى و أخيه هارون **أَنْ تَبَوَّاٰ لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ** أي إتّخذا لهم بمصر، بيوتاً، أي إجعلا لهم بيوتاً في مصر ليسكنوا فيها **وَ اَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** الظّاهر أنّ الخطاب عامّ يشمل موسىٰ و هارون و قومهما، أي إجعلوا جميعاً بيوتكم قبلة.

و يمكن أن يقال في الكلام حذف و تقديره قولا لهم إجعلوا بيوتكم قبلة.

---

١- القصص=٧ ٢- النّحل=٦٨

٣- الشّورىٰ=٥١

و الجواب أن الحذف خلاف الأصل إلاّ أن يدلّ عليه دليل و لا دليل عليه في المقام مضافاً الى عدم الإحتياج اليه ضرورة أنّ الكلام بدونه مستقيم.

قال بعض المفسّرين أنّ فرعون كان مستولياً على بني إسرائيل خرب مساجدهم و مواضع عباداتهم و منعهم من الصّلوات و كلّفهم الأعمال الشّاقة وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بالصّلاة في بيوتهم في خفيّة من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيردّوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام.

و أمّا قوله: **قِبْلَةً** معناه مصلّى، و قيل أي مسجداً، أي و أجعلوا بيوتكم مصلّى، أو مسجداً و ذلك لأنّهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلّوا في بيوتهم.

والى هذا أشار بقوله: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ** و أمّا قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** معناه بشّرهم بالجنّة و ما وعد اللّه من الثّواب و أنواع النّعم.

نقل بعض المفسّرين عن إبن عبّاس أنّه قال في الكلام حذف و التقدير أجعلوا بيوتكم قبل القبلة.

و عنه أيضاً قبل مكّة و عن مجاهد أجعلوا بيوتكم مستقبل الكعبة و أنت ترى أنّ ما ذكروه لا دليل عليه إذا لا نعلم أنّهم كانوا يصلّون الى بيت المقدّس أو الى الكعبة و اللّه أعلم.

**وَ قَالَ مُوسٰى رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوٰالًا فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ.**

حكى اللّه تعالى في هذه الآية عن موسى أنّه قال ربّنا أنّك آتيت فرعون و ملائه أي أتباعه و رؤوساء قومه زينةً و أموالاً في الحياة الدنيا.

و المراد بالزينة ما يتزيّن به من الحلّي و الثياب و المتاع.

و قيل المراد بها هو حسن الصُّورة و ليس بشيء، ربّنا ليضلّوا عن سبيلك، أي ليضلّوا النّاس عن سبيل الحقّ بسبب ما آتيتهم من الأموال و المتاع.

**أن قلت** ظاهر الكلام يدلّ على أنّ موسى عليه السلام جعل الغاية في ما أتاهم اللّه الإضلال و هذا يوهم أنّ السّبب الأصلي في إقدارهم على الإضلال هو ما أتاهم من الأموال و حيث أنّ الزيّنة و الأموال ممّا أتاهم اللّه فهو تعالى في الحقيقة صار سبباً للإضلال و هو كما ترى يوجب الجبر و الظلم و اللّه تعالى منزّه عنهما فكيف قال موسى هذا.

**قلت** ليس الأمر كما ظننت و توّهمت و ذلك لأنّ موسى أشار بكلامه هذا الى طغيانهم و إضلالهم بسوء إختيارهم بسبب الأموال و بعبارةٍ أخرى أنّه اللّه تعالى أتاهم ما أتاهم من الأموال ليشكروا عليها فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً إلاّ أنّهم طغوا و تمرّدوا و عصوا بدل الشّكر و ضلّوا و أضّلوا و حيث كان سبب ذلك الأموال و الأمتعة فقال ما قال أي كأنّ اللّه تعالى جعلهم في الرّفاهية لأجل الإضلال لا لأجل الطّاعة و الشكر ففى الكلام ذمٌّ لقوم فرعون حيث إستفادوا من نعم اللّه خلاف ما كان واجباً عليهم عقلاً فهو من قبيل:

قوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ اٰلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**[1].

و من المعلوم المسلم عن الكلّ أنّ آل فرعون إلتقطه ليكون لهم إبناً و ناصراً ألا ترى الى قوله تعالى بذلك:

**وَ قٰالَتِ اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لٰا تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لٰا يَشْعُرُونَ**[2]

و الحاصل أنّهم إلتقطوه ليكون لهم قرّة عينٍ الخ لا ليكون لهم عدّواً و حزناً، إلاّ أنّ موسى صار في آخر الأمر عدّواً و حزناً على خلاف ما زعموه.

فمعنى الآية أنّ آل فرعون إلتقطه ليكون قرّة عين لهم، و قد حصل خلاف ما زعموه و قصدوه فصار عدّواً لهم فكأنّهم إلتقطوه للعداوة و هذا من محسنات فنّ البلاغة و ما نحن فيه من هذا القبيل و سمّي اللاّم بلام العاقبة.

---

١- القصص=٨ ٢- القصص=٩

و العجب أنّ الرّازي إستدلّ بهذه الآية على الجبر قال هذا لفظه.

إحتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّه تعالى يضلّ النّاس و يريد إضلالهم و تقريره من وجهين:

**الأوّل**: أنّ اللاّم في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام التعليل و المعنى أنّ موسى عليه السلام قال يا ربّ العزّة أنّك أعطيتهم هذه الزينة و الأموال لأجل أن يضلّوا فدلّ هذا على أنّه تعالى قد يريد إضلال المكلّفين.

**الثّاني**: أنّه قال و أشدد على قلوبهم فقال اللّه تعالى قد أجيبت دعوتكما و ذلك أيضاً يدلّ على المقصود انتهى كلامه.

و لم يعلم أنّ اللاّم ليست للتعليل بل هي لام العاقبة و الفرق بينهما واضح.

**ثالثاً**: أنّه تعالى منزّه عن فعل القبيح و إرادة الكفر قبيحة.

**رابعاً**: لو أراد الكفر لكان الكفّار مطيعين له في كفرهم إذ لا معنى للطّاعة إلاّ الإتيان بما يوافق الإرادة و لو كانوا كذلك لمّا إستحقوا الدّعاء عليهم بطمس الأموال و شدّ القلوب إذ المفروض أنّهم كانوا مطيعين في كفرهم.

نقل الرّازي هذه الأجوبة عن القاضي ثمّ قال في آخر كلامه و إذ ثبت هذا فنقول.

وجب تأويل هذه الكلمة و ذلك من وجوهٍ:

**الأوّل**: أنّ اللاّم في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام العاقبة كقوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ اٰلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا** و لمّا كانت عاقبة قوم فرعون هو الضّلال و قد أعلمه اللّه تعالى لا جرم عبّر عن هذا المعنى بهذا اللّفظ.

**الثّاني**: أنّ قوله: **رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** أي لئلا يضلّوا عن سبيلك فحذفت، لا، لدلالة المعقول عليه كقوله:

**يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا**[1].

١- النساء = ١٧٦

و المراد أن لا تضلّوا، و كقوله تعالىٰ:

**قالُوا بَلىٰ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ**[1].

المراد لئّلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير في الكلام.

**الثّالث**: أن يكون موسىٰ عليه السلام قد ذكر ذلك على سبيل التّعجب المقرون بالإنكار و ذالتّقدير كأنّك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فأنّهم لا ينفقون هذه الأموال إلاّ فيه و كأنّه قال آتيتهم زينةً و أموالاً لأجل أن يضلّوا عن سبيل اللّه ثمّ حذف حرف الإستفهام كقول الشّاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ غلس الظّلام من الرّباب خيالاً

أراد أكذبتك فكذا هاهنا

**الرّابع**: قال بعضهم هذه اللاّم، لام الدّعاء و هى لام مكسورة تجزم المستقبل و يفتتح بها الكلام فيقال ليغفر للّه للمؤمنين و ليعذّب اللّه الكافرين و المعنى ربّنا إبتلهم بالضّلال عن سبيلك.

**الخامس**: أنّ هذا اللاّم لام التّعليل بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة.

**السّادس**: أنّ الضّلال جاء في القرآن بمعنى الهلاك فقوله: **رَبَّنا لِيُضِلُّوا** عن سبيلك معناه ليهلكوا و يموتوا انتهى كلامه في المقام.

**أقول** أنّه لم يقنع بما ذكره في إثبات مدّعاه من الوجهين الّذين مرَّ ذكرهما بل شرع في الإستدلال بوجهٍ أبسط فقال.

**و أعلم** إنّا قد أجبنا عن هذه الوجوه مراراً كثيرة في هذا الكتاب و لا بأس بأن نعيدها (بعضها)، في هذا المقام.

فنقول الّذي يدلّ على أنّ حصول الإضلال من اللّه تعالى وجوه.

**الأوّل**: أنّ العبد لا يقصد إلاّ حصول الهداية فلمّا لم تحصل الهداية بل حصل الضّلال الّذي لا يريده علمنا أنّ حصوله ليس من العبد بل من اللّه تعالى فلو قالوا أنّه ظنّ بهذا الضّلال أنّه هدى فلا جرم قد أوقعه و أدخله في الوجود فنقول.

---

١- الاعراف ١٧٢=

فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السّابق فلو كان حصول ذلك الجهل السّابق بسبب جهلٍ آخر لزم التسلسل و هو محال فثبت أنّ هذه الجهالات و الضّلالات لابدّ من إنتهاؤها الى جهلٍ أوّل و ضلالٍ أوّل و ذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد و تكوينه لأنّه كرهه و أنّما أراد ضدّه فوجب أن يكون من اللّه تعالى انتهى.

و الجواب أنّ مجرّد القصد لا يكفي في تحقّق الهداية بل يجب العمل بعد القصد و هو بإختياره فقوله أنّ الجهل و الضّلال الأوّل لا يمكن أن يكون بإحداث العبد لا نفهم معناه إذ المفروض أنّ الكتاب و السُّنة قد بيّنا تكليف العبد فلو كان العبد مقصّراً في رفعه فالذّنب له.

**قال، الثّانى**: أنّه تعالى لمّا خلق الخلق بحيث يحبّون المال و الجاه حبّاً شديداً لا يمكنه إزالة هذا الحبّ عن نفسه ألبتّة و كان حصول هذا الحبّ يوجب الإعراض عمّن يستخدمه و يوجب التكبر عليه و ترك الإلتفات الى قوله و ذلك يوجب الكفر فهذه الأشياء بعضها يتأدّى الى البعض تأدّياً على سبيل اللّزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الّذي خلق الإنسان مجبولاً علىٰ حبّ المال و الجاه انتهى.

و الجواب أنّ حبّ المال و الجاه لايوجب ترك الإلتفات على سبيل اللّزوم بعد أن أعطى اللّه العبد العقل فلو كان حبّ المال و الجاه موجباً للكفر و الضّلالة على سبيل الإطلاق لكان في الأنبياء و الأوصياء و الأولياء أيضاً كذلك نرى خلاف ما ذكره في كثير من النّاس هذا مضافاً الى أنّ الكفر لا فاعل له لأنّه أمرٌ عدميّ فالقول بأنّ اللّه خالق الكفر لا معنى له.

**قال الثّالث**: و هو الحجّة الكبرى أنّ القدرة بالنسبة الى الضّدين بالسويّة فلا يترجح أحد الطّرفين على الثّاني إلاّ لمرجّح و ذلك المرّجح ليس من العبد و إلاّ لعاد الكلام فيه فلابدّ أن يكون من اللّه تعالى و إذا كان كذلك كانت الهداية و الإضلال من اللّه تعالى انتهى.

و الجواب أنّ المرجّح هو إرادة العبد قوله لعاد الكلام فيه، سفطة لأنّ العبد و أن كانت قدرته بالنسبة الى الضدّين بالسويّة إلاّ أنّه لمّا رجّح الفعل على الترك أو بالعكس لا يقال لم رجّح الفعل أو التّرك لأنّه بعقله يميّز بين الخير و الشّر و هذا هو منشأ إختياره في الأفعال الصّادرة عنه فالقول بأنّ الهداية و الإضلال من اللّه لا من العبد تحكمٌ لا دليل عليه بل الدليل ثابت على عدمه فهذه الوجوه الثّلاثة هي أقوى فحجّه في المقام و أنت ترى أنّها أوهن من بيت العنكبوت و قد أطال الكلام في النقض و الإبرام بما لا طائل تحته و أن أردت الوقوف على ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه: **رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** أخبر اللّه تعالى عن موسى أنّه دعى على فرعون و ملائه فسأل اللّه أن يطمس على أموالهم و الطمس محو الأثر فدعى موسى عليهم بأن يقلّب أحوالهم عن الإنتفاع بها لأنّها صارت باعثة على طغيانهم و معصيتهم و أمّا قوله و أشدد على قلوبهم، قيل معناه ثبّتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشدّ عليهم.

و قال القرطبي قال إبن عبّاس أي إمنعهم عن الإيمان، و قيل قسّها و أطبع عليها حتّى لا تنشرح للإيمان إنتهى قوله.

**أقول** ما ذكره أو نقله عن غيره غلطٌ فاحش على مذهب العدليّة نعم هو على مسلك الجبر الّذي يساوق الكفر لا كلام فيه و ذلك لأنّ اللّه تعالى لو منع العبد عن الإيمان كما يقولون به فلم أرسل الرُّسل و أنزل الكتب السّماوية ثمّ أنّ موسى كيف يدعوا عليهم بذلك و هو يدعوهم الى الإيمان، هذا كلّه مضافاً الى أنّ الكلام لا دلالة على ما ذكروه لأنّ قوله: **وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ليس فيه ذكرٌ من الإيمان و من المحتمل أن يكون المعنى و أشدد على قلوبهم في الإنتفاع بأموالهم كما هو مقتضى العطف و العجب من الرّازي حيث قال معنى ألشّد على القلوب الإستيثاق منها حتّى لا يدخلها الإيمان ثمّ نقل عن الرّازي

أنّه قال و هذا دليل على أنّ اللّه تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السّؤال إنتهى كلامه.

**أقول** لا نعلم من أين وجد لفظ الإيمان في الكلام حيث فسّر ألشّد على القلوب بعدم دخول الإيمان فيها أليس هذا من التّفسير بالرّأي نعوذ باللّه منه ثمّ أنّ موسى عليه السلام الّذي أرسل اليهم ليدعوهم الى الإيمان كيف يدعوا عليهم بشّد قلوبهم حتّى لا يدخلها الإيمان أليس هذا من التّناقض الّذي يحكم العقل بإستحالته و أمّا قوله: **فَلاٰ يُؤْمِنُوا حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ** قيل أنّه معطوف علىٰ قوله: **لِيُضِلُّوا** و التّقدير ربّنا ليضلّوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم و عليه فقوله: **رَبَّنَا اَطْمِسْ عَلىٰ أَمْوٰالِهِمْ وَ اَشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ** إعتراضاً، و قيل أنّه جواب لقوله: **وَ اَشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ** و التّقدير و أطبع على قلوبهم وقسّها حتّى لا يؤمنوا فأنّها تستحقّ ذلك فعلى القول الأوّل لا يكون فيه من معنى الدّعاء.

و على الثّاني فهو دعاءٌ عليهم.

و قال الفّراء: هو دعاء عليهم بأن لا يؤمنوا ثمّ حكى عن قوم أنّ المراد بذلك الإستفهام و الإنكار كأنّه قال أنّك لا تفعل ذلك ليضلّوا عن سبيلك.

و قيل أنّ قوله: **فَلاٰ يُؤْمِنُوا** خرج مخرج الجواب للأمر و معناه الإخبار كما يقولون أنظر الى الشّمس تغرب.

و قيل أنّ المعنى لا يؤمنون إيمان إلحاء حتّى يروا العذاب الأليم و هم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيارٍ أصلاً.

**و قيل** اللاّم، لام كي، و أنّه تعالى أعطاهم الأموال و الزّينة لكي يضلّوا عقوبة و أمثال هذه الأقوال كثيرة.

**و أنا أقول** ما ذكروه في معنىٰ الكلام ممّا لا يعتمد عليه و الّذي نقول أنّ الفاء للتّفريع و الكلام مستأنف و ليس داخلاً في الدّعاء أصلاً إذ لا معنى لدعاء

موسى عليهم بعدم الإيمان و هو مبعوث اليهم لأجل الإيمان فالكلام خرج مخرج الأخبار فقط و المعنى أنّهم لا يؤمنون بإختيارهم و إرادتهم حتّى يروا العذاب الأليم في الآخرة و لا تنفعهم الدّعوة و الموعظة و التخويف و غير ذلك لإنغمازهم في الشّهوات و متابعتهم الأهواء و الأميال النفسانيّة و من كان كذلك فهو لا يتّبع الحّق و لا يقبله و هو ظاهر.

**قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**

**قال** أي قال اللّه تعالىٰ في جواب موسى و هارون، **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا** على فرعون و ملائه و إنّما قال تعالىٰ: **دَعْوَتُكُمَا** و لم يقل دعوتك مع أنّ موسىٰ كان داعياً عليهم لقوله: **وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ** قيل لأنّ موسىٰ كان داعياً مع تأمين هارون و المُؤمن أيضاً داع لأنّ المعنى في التّأمين اللّهم اجب هذا الدّعاء و قيل لا يبعد أن يكون كلّ واحدٍ منهما ذكر هذا الدّعاء و إنّما خّص موسىٰ بالذّكر تشريفاً و تعظيماً له ثمّ أمرهما اللّه تعالىٰ بأمرين:

**أحدهما**: الإستقامة فقال: **فَاسْتَقِيمَا**.

**ثانيهما**: عدم متابعة الجهال فقال: **وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** أمّا الإستقامة فالمراد بها على ما قيل الإستقامة و الثّبات على طريق الدّعوة و ألرّسالة و قيل الإستقامة في دعائهما لفرعون و قومه علىٰ ما أمر اللّه به،قوله: **وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**[1] أي و لا تتبّعان سبيل الجاهلين أي لا تتبّعان سبيلهم في وعدي و وعيدي فأنّه لا خلف له.

و قال إبن جريح: مكث فرعون بعد هذه الأمور أربعين سنة.

**أقول** إستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم.

---

١-ج ١١

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ**(٤).

و الإستقامة على المنهج المستقيم صعبٌ مستصعب قال رسول اللّه ﷺ **شيبتني سورة هُود لِمَكان هذه الأية** و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ أمرهما بالثّبات و الإستقامة في طريق الدّعوة الى الحقّ و نهاهما عن متابعة الّذين لا يعلمون وعد اللّه و وعيده.

**وَ جَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُۥ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.**

المجاوزة الخروج عن الحدّ من إحدى الجهات الأربعة، و البحر مستقرّ الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفه من كان في وسطه يقول اللّه تعالىٰ: **وَ جَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ** أي أخرجناهم منه بأن جفّف لهم البحر و جعله طرقاً حتّى جاوزو،**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُۥ بَغْيًا وَ عَدْوًا** أي كانت متابعة فرعون لبني إسرائيل علىٰ سبيل البغي و الظُّلم و البغي طلب الإستعلاء بغير حقٍّ و فرعون كان من أكبر مصاديق البغي، حتّىٰ، إذا أدركه الغرق، و الضّمير في أدركه يرجع الىٰ فرعون (قال، فرعون) آمنت أنّه لا إله إلاّ الّذي، أي الإله الّذي، آمنت به بنوإسرائيل، و هو إله موسىٰ و أنا من المسلمين، أي المطيعين المنقادين له تعالىٰ.

---

١- فصّلت =٣٠
٢- الاحقاف =١٣
٣- هُود =١١٢
٤- الشّورىٰ =١٥

روي أنّ موسى سرىٰ بقومه متوجّهين الىٰ البحر و هم ستة مائة ألف و عشرون ألفاً و هم المقاتلة سوى الذّرية و كان موسى على السّاقة و هارون على المقدّمة ثمّ تبعهم فرعون بجنوده و على مقدّمته هامان في ألف ألف و سبع مائة ألف كلّ رجلٍ على حصان و على رأسه بيضة و بيده خربة أرسل فرعون في أثر موسىٰ و قومه ألف ألف و خمس مائة ثمّ خرج فرعون خلفهم في الدّهم و كانوا مائة ألف رجل كلّ واحدٍ منهم راكباً حصاناً أدهم فكان في عسكر فرعون مئة ألف حصان أدهم و ذلك حين طلعت الشّمس و أشرقت فلّما ترى الجمعان ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا يا موسى أين ما وعدتنا من النَّصر و الظَّفر هذا البحر أمامنا أن دخلناه غرقنا و فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا و لقد أوذينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا فقال موسىٰ أستعينوا باللّه و أصبروا أنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتّقين قالوا فلّما إنتهىٰ موسىٰ الىٰ البحر هاجَت الرّيح تَرمي بِمَوج كالجبال فقال له يوشع بن نون يا كلّيم اللّه أين أمرت و قد غشينا فرعون و أمامنا البحر فقال موسى هاهنا فخاض يوشع الماء و جاز البحر يواري حافر دابّته الماء فأوحى اللّه سبحانه الى موسى أن أضرب بعصاك الحجر فأنفلق فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم فإذا خربيل واقف على فرسه لم يبتل سرجه و لا لبده و ظهر في البحر إثني عشر ظريقاً لأثني عشر سبطاً لكلّ سبطٍ طريق و أرشل اللّه الرّيح و الشّمس علىٰ قعر البحر حتّى صار يبساً و عن عبد اللّه بن سلام أنّ موسى لمّا إنتهىٰ الىٰ البحر قال يا مَن كان قبل كلّ شئ والمُكّون لكلّ شئ والكائن بعد كلّ شئ إجعَل لنا مَخرجاً و عن عبد اللّه قال

قال رسول اللّه أنّه قال عند ذلك اللّهم لك الحَمد وإليك المُشتكىٰ وأَنت المُستعان ولا حَول ولا قُوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم فخاضت بنو إسرائيل البحر كلّ سبطٍ في طريقٍ و عن جانبيهم الماء كالجبل الضَّخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا و قال كلّ سبطٍ قد قتل أخواننا فأوحى اللّه سبحانه الى جبال الماء أن تشتكي فصار الماء شبكات ينظر بعضهم الى بضعٍ و يسمع بعضهم كلام بعضٍ حتّى عبروا البحر سالمين و لمّا خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدّمة عسكر فرعون اليه و أراد موسى أن يعود البحر الىٰ حاله الأولىٰ فأوحىٰ اللّه سبحانه أن أترك البحر رهواً أنّهم جندٌ مغرقون، فلمّا وصل فرعون قال لقومه أنظروا الى البحر قد إنفلق لهيبتي حتّىٰ أدرك أعدائي و عبيدي و لم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرسٍ أنثىٰ و عليه عمامة سوداء و تقدَّمهم و خاض البحر و ظنّ أصحاب فرعون أنّه منهم فلمّا سمعت الخيول ريحها إقتحمت البحر في أثرها و جاء ميكائيل على فرسٍ خلف القوم ليشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلمّا أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال أنّي قد أتيت هذا الموضع مراراً و مالي عهدٌ بهذا الطّريق (بهذه الطّرق) و أنّي لا أمن أن يكون هذا مكراً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإمتنع و نفر حتّى جاء جبرئيل على رمكة بييضاء فخاض البحر فتبعها حصان فرعون فلمّا توافوا في البحر و همَّ أوّلهم بالخروج أمر اللّه البحر فإلتطم عليهم فغرقهم جميعاً بمرأى من بني إسرائيل فلمّا سمعت بنو إسرائيل صوت إلتطام البحر قالوا لموسى ماهذه

**الوجبة فقال لهم أنّ اللّه سبحانه قد أهلك فرعون و كلّ من كان معه قالوا أنّ فرعون لا يموت ألم تر أنّه كان يلبث كذا و كذا يوماً لا يحتاج الى شئٍ ممّا يحتاج اليه الإنسان فأمر اللّه سبحانه البحر فألقاه على نجوةٍ من الأرض درعه حتّى نظر اليه بنو إسرائيل الىٰ أخر الحديث.**

**اَلْاٰنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ** أي الأن تقول ما تقول و الحال أنّك قد عصيت قبل ذلك وكُنتَ من المُفسدين و فيه إشارة الىٰ أنّ التّوبة قبل رؤية البأس مقبولة و أمّا بعدها فلا.

**فعن عيون الأخبار بأسناده الىٰ إبراهيم بن محمّد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرّضا عليه السلام لأيّ علّةٍ أغرق اللّه تعالىٰ فرعون و قد أمَن به و أقرّ بتوحيده قال عليه السلام لأنّه أمن عند رؤية البأس و الإيمان عند رؤية البأس غير مقبول حكم اللّه تعالىٰ في السَّلف و الخلف قال اللّه تعالىٰ: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا اٰمَنّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ،فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا**[1].

و لعلّةٍ أخرى أغرقه اللّه تعالى و هى أنّه إستغاث بموسىٰ لمّا أدركه الغرق و لم يستغيث باللّه فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه يا موسى لم تغث فرعون لأنّك لم تخلقه ولو إستغاث بي لأغثته انتهىٰ.

**فَالْيَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ اَلنّاسِ عَنْ اٰياتِنا لَغافِلُونَ**

قرأ يعقوب و قتيبة نُنجيك بالتّخفيف من أنجىٰ يُنجي و الباقون بالتّشديد من نَجّىٰ يُنَجّي فعلىٰ الأوّل هو من باب الأفعال و على الثّاني من باب التّفعيل و المعنى واحد، و البدن بفتح الباء و الدّال المهملة مستكن روح الحيوان على



---

١- غافر =٨٤ و ٨٥

صورته فأنّ كلّ حيوان له روحٌ و بدن و الحيّ في الحقيقة الرُّوح دون البدن عند قوم و فيه خلاف.

قال ابن عبّاس ننجّيك أي نلقيك بنجوةٍ من الأرض و هى المكان المرتفع و قوله: **بِبَدَنِكَ** أي بجسدك و جسمك دون روحك.

و قيل أي بدرعك و كان من لؤلؤٍ منظوم لا مثال له و قيل مِن ذهبٍ و قيل مِن حديد و فيها سلاسل من ذهب و أنّما قال ذلك لأنّ البدن جاء بمعنى الدّرع القصيرة قال الشّاعر:

ثـرى الأبـدان فـيها مسـبغات  علىٰ الأبطال والكـلب الحـصينا

يعني الدّرُوع و قال عمرو بن معد يكرب:

أعـاذل شكّـتي بـدني وسـيفى  وكـلّ مـقلّصٍ سـلس القـياد

و كانت له درع من ذَهب يعرف بها، و قيل معناه نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب و لا سلاح و ذلك أبـلغ فـي إهـانته و قـيل نُـخرجك صـحيحاً لم يأكلك شئ من الدَّواب **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ** الآية السّمة و العلامة أي و لمن وراءك و هم بنو إسرائيل و كان في أنفسهم أنّ فرعون أعظم شأناً من أن يغرق مطرحه علىٰ ممَّر بني إسرائيل.

و قيل معنىٰ الكلام **لِمَنْ خَلْفَكَ** أي لمن يأتي بعدك من القرون، و قيل لمن بقي من قبط مصر و غيرهم و قرأ بعضهم لمن **خَلفك** بفتح اللاّم أي من الجبابرة و الفراعنة ليتعّظوا بذلك و يحذروا أن يـصيبهم مـا أصـابك اذا فـعلوا فـعلك و معنى كونه أية، كونه عبرة يعتبر بها الأمم.

و قال بعض المفسّرين معناه لمن يأتي بعدك ممّن يراك علىٰ تلك الصّفة و قد كنت تدّعي الرّبوبية وقوله: **وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ اٰيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** إشارة الى غفلة أكثر النّاس عن أيات اللّه و عدم تدَّبرهم فيها فأنّ الأيات كثيرة و المعتبرين بها قليلة قال أمير المؤمنين عليه السلام **ما أَكثَر العِبَر وأقلّ الإعتبار** و قد ذمَّ اللّه تعالى الغافلين من النّاس في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غٰافِلِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ**(٣).

و غيرها من الأيات والسّر في ذلك أنّ الغَفلة مِن أعَظم الدّواهي في باب السّلوك الىٰ اللّه كما أنّ اليَقظة مِن أعَظم السّعادات والخيرات واليَقظة عن نوم الغَفلة لا تتّحقق إلاّ بالإعتبار عن موارد العِبَر.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبٰابِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰآءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصٰارِ**(٦).

**قال أمير المؤمنين عليه السلام أيّها النّاس أنظروا الى الدّنيا نظر الزّاهدين فيها الصّادفين عنها الىٰ أن قال فلا يغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها رحم اللّه إمرؤاً تفكّر فإعتبر و إعتبر فأبصر فكأنّ ما هو كائن من الدّنيا عن قليل لم يكن الىٰ أخر كلامه**(٧)

وقال في قصار الحكم: **و من إعتبر أبصر و من أبصر فهم و من فهم علم**(٨).

و قال عليه السلام: **و لو إعتبرت بما مضىٰ حفظت ما بقي**(٩).

و قال عليه السلام: **و لا تكن ممّن يصف العبرة و لا يعتبر**(١٠).

---

١- الرّوم =٧
٢- الأعراف =١٤٦
٣- النّحل =١٠٨
٤- يوسف =١١١
٥- النّازعات =٢٦
٦- أل عمران =١٣
٧- خ ١٠٣
٨- قصار الحكم، ٢٠٨.
٩- الكتاب ٤٩
١٠- قصار الحكم ١٥٠

**وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنيَ إِسْرٰآئيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ فَمَا اَخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰآءَهُمُ اَلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ فيمٰا كٰانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ** لما ذكر تعالى ما جرى لفرعون و أتباعه من الهلاك ذكر ما أحسن به لهم و ما إمتّن به عليهم اذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون فذكر اللّه تعالىٰ أنّه إختار لهم بعد هلاك فرعون من الأماكن أحسنها و الظّاهر أنّ المراد من بني إسرائيل في الآية هم الذّين كانوا أمنوا بموسى من الذّرية ونجوا من الغرق لا جميعهم بمقتضى سياق الأيات لقد بوّأنا، إخبار منه تعالى أنّه وطأ منزل بني إسرائيل و قوله: **مُبَوَّأَ صِدْقٍ** أي منزل صدقٍ و المعنى جعلناهم مكان صدقٍ و فضلٍ أو أنزلناهم منزلاً صالحاً مرّضياً قيل هو مصر و الشّام **وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ**، أي ملّكناهم الأشياء اللّذيذة من الأطعمة و الأشربة و الألبسة و غيرها.

قال القرطبي قال إبن عبّاس يعني قريظة و النّضير و أهل عصر النّبي ﷺ من بني إسرائيل فأنّهم كانوا يؤمنون بمحمّدٍ و ينتظرون خروجه ثمّ لمّا خرج حسدوه

**أقول** و أنت ترى أنّ هذا خلاف ظاهر الآية فأنّ ظاهرها يدُّل على أنّ المراد من بني إسرائيل هم الذّين أنجاهم اللّه من فرعون و بدّل خوفهم أمناً.

**فَمَا اَخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰآءَهُمُ اَلْعِلْمُ** أي فما إختلفوا في دينهم حتّى جاءهم العلم أي الدّليل المؤدّي الى العلم من جهة الرّسول و الكتاب فأمَن فريقٌ و كفر أخرون.

و قال صاحب الكشّاف فما إختلفوا في دينهم و ما تشعّبوا فيه شعباً إلاّ من بعد ما قرأوا التّوراة و كسبو العلم بدين الحقّ و لزمهم الثّبات عليه و إتّحاد الكلمة و علموا أنّ الإختلاف فيه تفرّق عنه و قيل هو العلم بمحمّدٍ ﷺ و إختلاف بني إسرائيل و هم أهل الكتاب إختلافهم في صفته و نعته و أنّه هو أم ليس بعد ما جاءهم العلم و البيان أنّه هو لم يرتابوا فيه انتهىٰ.

**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** هو إخبار منه تعالىٰ بأنّه الّذي يتوّلى الفصل بين بني إسرائيل في الأمور التّي يختلفون فيها يوم القيامة لأنّه يوم الفصل و أمّا الدّنيا فلا يمكن زوال الإختلاف فيها لأنّها لم تعدّ له و كيف كان فالآية مشعرة بذمّهم لأجل إختلافهم في دينهم بعد العلم وليس ذلك إلاّ لحبّهم الدّنيا و زخارفها أعاذنا اللّه منه بمنّه و كرمه فأنّ **حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة**، و أصل كلّ بليّة و لا سيّما في العلماء الّذين قال رسول اللّه فيهم، **اذا فَسَد العالِم فَسَد العالَم** صدق رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

■

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ
يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَ لَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ
رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَ لَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ اٰيَةٍ حَتَّى
يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ
اٰمَنَتْ فَنَفَعَهَآ اِيمَانُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ اٰمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ
مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ
فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي
ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي ٱلْاٰيَاتُ وَ
ٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ
فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ
فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ ٱللَّهِ وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفّٰيكُمْ وَ

أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَ ٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

## ◀ اللّغة

مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ، الإمتراء طلب الشكّ مع ظهور الدّليل و هو من مري الضَّرع أي مسجد ليدُّر.

كَشَفْنَا أي رفعنا.

ٱلْخِزْيِ، الخِزي بكسر الخاء هو الهوان الّذي يفضح صاحبه و يضع من قدره.

وَ مَتَّعْنَاهُمْ أي أبقيناهم أحياء سالمين ممتَّعين.

ٱلرِّجْسَ بكسر الرّاء و سكون الجيم الرّجس الكفر و قيل الغضب و السخط.

## ◄الإعراب

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ هو منصوب على الإستثناء المنقطع لأنّ المستثنى منه القرية و ليست من جنس القوم.

و قيل هو متّصل لأنّ التّقدير فلولا كان أهل القرية، و قد قرئ بالرّفع على أنّ، إلّا، بمنزلة غير و عليه فيكون صفة مٰاذٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ هو إستفهام في موضع رفع بالإبتداء و السَّمٰوات الخبر وَ مٰا تُغْنِي يجوز أن تكون إستفهاماً في موضع نصب و أن تكون نفياً كَذٰلِكَ حَقًّا فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ، كذلك، في موضع نصب صفة لمصدرٍ أي محذوف أي إنجاء كذلك و حقّاً بدل منه.

الثّانى: أن يكونا منصوبين بينجي الّتي بعدهما.

الثّالث: أن يكون، كذلك، للأولى و حقّاً للثّانية و يجوز أن يكون، كذلك، خبر المبتدأ أي الأمر كذلك و حقّاً مَنصوب بما بعَدها.

## ◄التّفسير

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ظاهر الآية أنّ المخاطب بها النّبي صلى الله عليه وآله يقول اللّه تعالى له إن كنت في شكّ ممّا، أي من الّذي أنزلنا اليك، الشكّ هو توّقف النّفس فيما يخطر بالبال عن إعتقاده علىٰ ما هو به و على ما ليس به.

و قال الرّاغب في المفردات الشكّ إعتدال النقّيضين عن الإنسان و تساويهما ثمّ أنّهم إختلفوا في تفسير الآية و أنّه كيف يُمكن أن يكون النّبي في شكّ ممّا أنزله اللّه عليه.

فقال صاحب الكشّاف فأن كنت في شكّ بمعنى الفرض والتمثيل كأنّه قيل فأن وقع لك شكّ مثلاً و خيّل لك الشّيطان خيالاً منه تقديراً فسأل الّذين يقرؤن الكتاب.

و قيل خوطب به رسول اللّه و المراد أمّته.

و قيل الخطاب للسّامع ممّن يجوز عليه الشّك، و قيل ،إن، للنّفي أي فما كنت في شكّ فاسأل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنّك شاكّ و لكن لتزداد يقيناً كما إزداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة أحياء الموتى ذَكر هذه الوجوه في كتابه و قد أطال الكلام في هذا الباب الرّازي في تفسيره لهذه الآية و لا نحتاج الى نقل ما ذكره و من أراد الوقوف عليه فعليه بمراجعة كتابه.

نعم إختار من تلك الوجوه وجهاً لا بأس بذكره قال بعد الوجه الثّالث ما هذا لفظه.

و أقول تمام التّقرير في هذا الباب أنّ قوله: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** فأفعل كذا و كذا قضّية شرّطية و القضّية الشّرطية لا إشعار فيها ألبتّة بأنّ الشّرط وقع أو لَم يقع و لا بأنّ الزجاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها إلاّ بيان ماهيّة ذلك الشّرط وأنّها مستلزمة لمّاهية الجزاء فقط و الدليل عليه أنّك إذا قلت أن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ثمّ لا يدّل هذا الكلام علىٰ أنّ الخمسة زوج و لا علىٰ أنّها منقسمة بمتساويين فكذا هاهنا هذه الآية تدّل على أنّه لو حصل هذا الشكّ لكان الواجب فيه هو فعل كذا و كذا فأمّا أنّ هذا الشكّ وقع أو لم يقع فليس في الآية دلالة و الفائدة في إنزال هذه الآية على رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ تكثر الدّلائل و تقويتها ممّا يزيد في قوّة اليقين و طمأنينة النّفس و سكون الصّدر و لهذا السَّبب أكثر اللّه تعالىٰ في كتابه من تقرير دلائل التّوحيد و النبوّة انتهىٰ كلامه.

**أقول** ما ذكره حقٌّ لا غبار عليه فأنّ القضّية الشّرطية ساكتة عن وجود الشّرط ليتّرتب عليه الجزاء و عدمه و هكذا بالنّسبة الى الجزاء إذ لا وجود له إلاّ بعد وجود الشّرط و الأحسن في تقرير الدّليل هو أن يقال أنّ القضّية الشّرطية تقتضي تعليق شيءٍ علىٰ شيءٍ أي تعليق الجزاء على وجود الشّرط و هذا ممّا لا كلام لأحدٍ فيه إلاّ أنّ البحث في الإستلزام بمعنى أنّها تستلزم إمكان وقوع الشّرط بمعنى تعليق الجزاء علىٰ الشّرط الممتنع لا يجوز أو لا تستلزم ذلك بل

هي ساكتة عنه فالجزاء معلّق على الشّرط سواء أمكن وقوع الشّرط أم لا و على هذا القول يجوز تعليق الجزاء علىٰ الشّرط الّذي لا يمكن وجوده أصلاً، و حيث أنّ القول الأوّل لا دليل عليه لأنّ لزوم تقييد الشّرط بإمكان الوجود لا يساعده العقل والنّقل.

**أمّا العقل** فلأنّ التّقييد خلاف الأصل و لا يثبت إلاّ الدّليل و اذ ليس فليس.

**أمّا النّقل** فلقوله تعالىٰ: **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ**[1]

فأنّ العبادة معلّقة علىٰ وجود الولَد للرّحمٰن و هو ممتنع مستحيل المعلوم أنّ القضيّة شرطية فهذا في المستحيل عقلاً.

و أمّا المستحيل عادةً فلقوله: **فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ**[2].

نعم وقوع أن للتّعليق علىٰ المستحيل قليلٌ جدّاً و لكن أصل الوقوع ممّا لا كلام فيه اذا عرفت هذا فنقول:

**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ**

لا شكّ أنّه شرطيّة فأن قلنا أنّ وجود الشكّ في رسول اللّه ممكنٌ علّق الجزاء و هو السّؤال على الممكن و أن قلنا أنّه محال في حقّه عقلاً أو عادةً، علّق الجزاء على المحال و على التّقديرين لا إشكال في الآية أصلاً و الشّرط صحيح أمكن وجوده أو إمتنع.

**لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** قيل اللاّم في قوله، لقد، لام القسم، و يحتملان تكون للتّأكيد.

قال صاحب الكشّاف معناه فأثبت ودم على ما أنت عليه من إنتفاء المرية، أي ثبت عندك بالأيات و البراهيم القاطعة أنّ ما أتاك هو الحقّ الّذي لا مدخل فيه للمرية فلا تكوننّ من الممترين الشّاكين.

---

١- الزُّخرف =٨١ ٢- الأنعام =٣٥

**وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**

علّق الخسران على التّكذيب بأيات اللّه و هو كذلك لأنّ تكذيب الأيات يرجع في الحقيقة الى تكذيب اللّه بل هو هو و أيُّ خسرانٍ أشدَّ و أفضح منه قيل هو عطف علىٰ قوله فلا تكونَنَّ من الممترين.

قال بعضهم أنّ المراد بالخطاب غير النّبي من جملة أمّته من كان شاكّاً في نبُوته قال السَّيد المرتضىٰ رحمه الله في أماليه عند هذه الآية **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** الى أخر الأية، ظاهر الخطاب له صلى الله عليه و آله و المعنى لغيره كما قال تعالىٰ: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ**[1] فكأنّه قال يا أيّها السّامع للقرأن في شكّ ممّا أنزلناه على نبيّنا فإسأل الّذين يقرأون الكتاب ثمّ قال رحمه الله و ليس يمتنع عند من أمعن النَّظر أن يكون الخطاب متوجّهاً الىٰ النّبي صلى الله عليه و آله و ليس اذا كان الشكّ لا يجوز عليه لم يحسن أن يقال له إن سلكت فأفعل كذا كما قال تعالىٰ في كتابه: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**[2] و معلوم أنّ الشّرك لا يجوز عليه و لا خلاف بين العلماء في أنّه داخل في ظاهر أيات الوعد و الوعيد و أن كان لا يجوز أن يقع منه ما يستحقّ به من العقاب و أن قيل له إن أذنبت عوقبت، فهكذا لا يمتنع أن يقال له إن سلكت فإفعل كذا و كذا و أن كان مِمّن لا يشكّ انتهى.

**أقول** ما ذكره رحمه الله حقٌّ فانّ الخطابات القرأنية تعمّ جميع المسلمين في ظاهر الأمر و عليه فقوله: **وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ** أيضاً مِن هذا القبيل اذ لا تدّل الآية على وقوع التّكذيب منه صلى الله عليه و آله كما لا تدلّ على وجود الشّرك في قوله: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** بل تدلّ على تعليق الخُسران على التّكذيب الّذي لم يقع و لا يقع البتّة كما تدلّ على تعليق حبط العمل على وجود الشّرك الّذي لم يقع منه عليه السلام قطّ فالآية المبحوثة عنها في المقام لا تحتاج الىٰ التّأويل بأنّ الخطاب له عليه السلام و المراد غيره بل هي بحالها من غير

١- الطّلاق =١ ٢- الزّمر =٦٥

تأويل و حيث أن تلك الأيات في الحقيقة من المتشابهات و قد أمرنا فيها بالتّمسك بأهل البيت الّذين عبَّر عنهم القرأن بالرّاسخين حيث قال: **وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اَللّٰهُ وَ اَلرّٰاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ**[1] فنذكر في ختام الكلام ما رُوي عنهم عليهم السّلام في هذا الباب فنقول:

عن كتاب علل الشّرائع بأسناده عن محمّد بن سعيد الأذخري و كان مِمّن يصحب موسى بن محمّد بن علّي الرّضا أنّ موسىٰ أخبره أنّ يحيى بن أكثم كتب اليه يسأله عن مسائل:

أخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** الىٰ أخره من المخاطب بها فأن كان المخاطب به النّبي ليس شكّ فيما أنزل اللّه عزّ وجلّ اليه و أن كان المخاطب غيره فعلى غيره اذاً أنزل الكتاب قال موسى فسألت أخي علّي بن محمّد النّقي عليه السلام عن ذلك قال عليه السلام أمّا قوله فأن كنت في شكّ الآية فأنّ المخاطب بذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله و لم يكن في شكّ ممّا أنزل اللّه عزّ وجلّ و لكن قالت الجهلة كيف لا يبعث الينا نبيّاً من الملائكة أنّه لم يفرق بينه و بين غيره في الإستغناء عن المأكل و المشرب و المشي في الأسواق فأوحى اللّه عزّ وجلّ الى مبيّه فإسأل الذّين يقرأون الكتاب من قبلك بمحضرٍ من الجهلة هل بعث اللّه رسولا قبلك إلاّ و هو يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق و لك بهم أسوة و أنّما قال و أن كنت في شّكٍ، و لم يكن، و لكن ليتبعهم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ نِسٰاءَنٰا وَ نِسٰاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اَللّٰهِ عَلَى اَلْكٰاذِبِينَ**[2].

ولو قال تعالى نبتهل فنجعل لعنة اللّه عليكم لم يكونوا يجيبون للمباهلة و قد عرف أنّ نبيّه مؤدٍّ عنه رسالته و ما هو من الكاذبين و كذلك عرف النّبي أنّه صادق فيما يقول و لكن أحبّ أن ينصف من نفسه انتهىٰ.

---

١- ال عمران = ٧ ٢- آل عمران = ٦١

و بأسناده الىٰ إبراهيم بن عمير رفعه الىٰ أحدهما عليه السلام في قول اللّه عزّ و جلّ لنبيّه: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ قال رسول اللّه لا شكّ و لا أَشكّ انتهىٰ.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن إبن مسكان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لمّا أسري برسول اللّه الىٰ السّماء و أوحى اليه في علّي ما أوحىٰ من شرفه و من عظمته عند اللّه ورد الى البيت المعمور و جمع له النّبيين و صلّوا خلفه عرض في نفس رسول اللّه من عظم ما أوحى اللّه اليه في علّي فأنزل اللّه: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ فإسأل الذّين يقرأون الكتاب من قبلك يعني الأنبياء فقد أنزلنا اليهم في كتبهم من فضله ما أنزلنا في كتابك لقد جاءك الحقّ مِن ربّك فلا تكوننَّ من الممترين و لا تكوننَّ من الّذين كذّبوا بأيات اللّه فتكون من الخاسرين فقال الصّادق عليه السلام فواللّه ما شكّ و ما سأل انتهىٰ[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ أي أنّ الّذين ثبت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون، إختلفوا في معنى الكلمة و المراد بها.

فقال قتادة هي اللّعنة والغَضَب و قيل المراد بها وعيده بأنّهم يصيرون الى العذاب.

و قال الزّمخشري هي قول اللّه تعالى الّذي كتب في اللّوح و أخبر به الملائكة أنّهم يموتون كفّاراً فلا يكون غيره و تلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر.

و قال الرّازي المراد من هذه الكلمة كلم اللّه بذلك و إخباره عنه و خلقه في العبد مجموع القدرة و الدّاعية و هو موجب لحصول ذلك الأمر.

و قال إبن عطيّة أنّ اللّه أوجب لهم سخطه من الأزل و خلقهم لعذابه فَلا

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ٢١٩ و ص ٢٣٠

يؤمنون ولو جاءهم كلّ بيان و كلّ وضوح إلاّ في الوقت الذّي لا ينفعهم فيه الإيمان كما صنع فرعون و أشباهه و غير ذلك من الأقوال المسطورة في تفاسيرهم.

و قال البيضاوي أنّ الّذين حقّت، أي أثبتت، عليهم كلمة ربّك، بأنّهم يموتون على الكفر و يخلدون في العذاب، لا يؤمنون.

**وأقول** و عليه فمعنى الكلمة في الآية عنده هو إخباره تعالى بموتهم على الكفر و خلودهم في العذاب و يرجع هذا الى حكمه تعالى على العبد بالإيمان أو الكفر فأن كان كذلك فهو الجبر بعينه و أن كان المراد بإخباره أو حكمه بأنّه كذا و كذا هو علمه تعالىٰ بأنّه سيصير الى الكفر أو الىٰ الإيمان بإختياره و إرادته فهو حقّ لكنّهم لم يريدوا ذلك بل مرادهم قضاءه تعالىٰ على العبد بالكفر و الإيمان قضاءً لازماً كما صرّح به الرّازي و غيره من الأشاعرة و الحقّ أنّ الكلمة في الآية بمعنى ما وعد اللّه به و أخبر عنه بالثّواب و العقاب و الكفر و الإيمان و ذلك لأنّ وعده حقٌّ ثابت لا خلف له و من أصدق من اللّه قيلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَ ٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَ ٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَ صَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا**[5].

---

١- المائدة =٩
٢- التّوبة =٦٨
٣- يٰس =٥٢
٤- الأنعام =١١٥
٥- الأعراف =١٣٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ عَلَى ٱلْكٰافِرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي ٱلنّٰارِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**[٣] والأيات كثيرة.

و من المعلوم أنّ الوعد اذا كان عن علم بعاقبة الأمر لا يكون إلاّ حقّاً فمعنى وعده تعالى هو علمه بما يرجع الأمر بالأخرة اليه لا حُكمه و قضاءه بأنّه لابدّ من وقوعه و اذا كان كذلك فقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لٰا يُؤْمِنُونَ** معناه أنّ الذّين ثبت و تحقّق في علم اللّه عدم إيمانهم فهم لا يؤمنون قطعاً لإستحالة تخلّف العلم عن المعلوم في حقّ من هو عالم بالسّرائر و العواقب و هذا ممّا لا كلام لنا فيه لأنّه لا ينافي الإختيار في حقّ العبد و أنّه بإختياره و إرادته يكون كافراً.

و قد ثبت عند المحصّلين أنّ العلم كاشف عن المعلوم لا أنّه علّة لوجود المعلول و الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **وَ لَوْ جٰآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتّٰى يَرَوُا ٱلْعَذٰابَ ٱلْأَلِيمَ** كلمة **لَوْ** وصليّة أي أنّهم لا يؤمنون و إن جاءتهم كلّ أيةٍ حتّى يروا العذاب الأليم في الأخرة أي لا تنفعهم الموعظة و لا التّهديد التّرغيب و لا غير ذلك كما لا تنفعهم الأيات و العلامات الدّالة علىٰ التّوحيد و النبوّة و هم الّذين قال اللّه فيهم **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[٤].

**فَلَوْلاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهٰآ إِيمٰانُهٰآ إِلّٰا قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰآ ءَامَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ**

معنى لولا (هَلاّ) و هى تستعمل علىٰ وجهين:

**أحدهما:** علىٰ وجه التّخصيص.

---

١- الزّمر =٧١ ٢- الزّمر =١٩

٣- غافر =٦ ٤- الانعام = ٩١

**الثّانى:** على وجه التّأنيب كقولك، هلاّ يأتي زيد بحاجتك، و قولك، هلاّ، إمتنعت من الفساد الذّي رغبت اليه و هى في المقام تحضيضيّة لا تأنيبية و لذلك صحبها التّوبيخ فهي بمعنى هلاّ و التّحضيض أن يريد الإنسان فعل الشّئ الّذي يحضّ عليه و اذا كانت للتّوبيخ فلا يريد المتكلّم الحضّ على ذلك الشّئ كقول الشّاعر:

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمي المقنّعا

لم يقصد حضّهم على عقر الكمي المقنع و فى الآية ونجّهم على ترك الإيمان النّافع فالمعنى، فهلاّ أمن أهل القرية و هم على مهلٍ لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحال و قوم، منصوب على الإستثناء المنقطع اذ ليسوا مندرجين تحت لفظ القرية.

و قال الزّمخشري يجوز أن يكون متصّلاً و الجملة في معنى النّفي كأنّه قيل ما أمَنَت قرية من القرى الهالكة إلاّ قوم يونس (لمّا أمنُوا) باللّه و كشفنا عنهم عذاب الخزي، أي رفعناه عنهم **فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ** بعد توبتهم و رجوعهم عمّا كانوا عليه من الكفر و العناد و نحن نذكر قصّتهم لتكون عبرة لأولي الألباب.

**فنقول روي العيّاشي في تفسيره عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول وجدنافي بعض كتب أميرالمؤمنين عليه السلام قال عليه السلام حدّثني رسول اللّه أنّ جبرئيل حدّثه أنّ يونس بن متى بعثه اللّه الىٰ قومه و هو إبن ثلاثين سنة و كان رجلاً يعتريه الحدّة و كان قليل الصّبر على قومه و المداراة لهم عاجزاً عمّا حَمل أوتار النبوّة و أعلامها و أنّه يفسخ عنها كما يفسخ الجذع تحت حمله و أنّه أقام فيهم يدعوهم الى الإيمان باللّه والتّصديق به و إتّباعه ثلاثاً و ثلاثين سنة فلم يؤمن به و لم يتّبعه من قومه إلاّ رجلان إسم أحَدهما روبيل وإسم الأخر تنوخا و كان روبيل من أهل بيت العلم و النبوّة**

و الحكمة و كان قديم الصُّحبة ليونس بن متى قبل أن يبعثه اللّه بالنبوّة و كات تنوخا رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة و ليس له علم و لا حكم و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوّت منها و كان تنوخا رجلاً حطّاباً يتّحطب علىٰ رأسه ويأكُل من كسبه و كان لرُوبيل منزلة من يُونس غير منزلة تنُوخا لعلم رُوبيل و حكمته و قديم صحبته فلمّا رأىٰ يونس أنّ قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر و عرف من نفسه قلّة الصّبر فشكى ذلك الى ربّه و كان فيما شكى أن قال ياربّ أنّك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم الى الإيمان بك و التّصديق برسالاتي و أخوَّفهم عذابك و نعمتك ثلاثاً و ثلاثين سنة فكذّبوني و لم يؤمنوا بي و جحدوا نبوّتي و إستخفّوا برسالاتي و قد تواعدوني و خفت أن يقتلوني فأنزل عليهم عذابك فأنّهم قوم لا يؤمنون قال فأوحى اللّه الىٰ يونس أنّ فيهم الحمل و الجنين و الطّفل و الشّيخ الكبير و المرأة الضّعيفة و المستضعف المهين وأنا الحاكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا أعذّب الصّغار بذنوب الكبار من قومك يا يونس عبادي و خلقي و برَّيتي في بلادي و فى عِيلتي أحبّ أن أتأنّاهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم و أنّما بعثتك الى قومك لتكون حيطاً عليهم تعطف عليهم سخاء الرّحمة الماسّة منهم و تأنّاهم برأفة النُّبُوة فأصبر معهم بأحلام الرّسالة و تكون لهم كَهيئة الطّبيب المداوي العالم بمداواة الدّاء فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرّفق ولم تسنهم بسياسة المرسلين ثمّ سألتني مع سواء نظرك العذاب لهم عند قلّة الصّبر منك و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه و أحسن صحبةً و أشدّ تأنّياً في الصّبر عندي و أبلغ في العذر فغضيت له حين غضب لي و أجبته حين دعانى.

فقال يونس يا ربّ أنّما غضبت عليهم فيك و أنّما دعوتُ عليهم حين غضبوك فوعزّتك لا أنعطف عليهم برأفةٍ أبداً و لا أنظر اليهم بنصيحةٍ شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم أيّاى و جحد نبوّتي فأنزل عليهم عذابك فأنّهم لا يؤمنون أبداً فقال اللّه يا يونس أنّهم مِائة ألف أو يزيدون من خلقي يعمرون بلادي و يلدون عبادي و محبّتي أن أتأنّاهم للّذي سبق من علمي فيهم و فيك و تقديري و تدبيري غير علمك و تقديرك و أنت المرسل و أنا الرّب الحكيم و علمي فيهم يا يُونس باطن في الغيب عندي لا يعلم ما منتهاه و علمك فيهم ظاهر لا باطن له يا يُونس قد أجبتك ما سألت من إنزال العذاب عليهم و ما ذلك يا يونس بأوفر لحظّك عندي و لا أحمد لشأنك و سيأتيهم العذاب في سؤال يوم الأربعاء وسط الشّهر بعد طُلوع الشّمس فأعلمهم بذلك قال فمَّر يونس و لم يسؤه و لم يدر ما عاقبته فأنطلق يونس الىٰ تنوخا العابد فأخبر بما أوحى اللّه اليه من نزُول العذاب على قومه في ذلك اليوم و قال له إنطلق حتّىٰ أعلمهم بما أوحي اللّه إلّى من نزول العذاب فقال تنُوخا فدعهم في غمرتهم و معصيتهم حتّى يعذّبهم اللّه فقال له يونس بل نلقىٰ روبيل فنشاوره فأنّه رجل عالم حكيمٌ من أهل بيت النُّبوة فأنطلقا الىٰ رُوبيل فأخبره يُونس بما أوحى اللّه اليه من نزول العذاب علىٰ قومه في شوّال يوم الأربعاء في وسط الشّهر بعد طلوع الّشمس فقال له ما ترى إنطلق بنا حتّىٰ أعلمهم ذلك فقال له رُوبيل إرجع الىٰ ربّك رجعة نبيّ حكيم و رسول كريم و أسأله أن يصرف عنهم العذاب فأنّه غنّي عن عذابهم و هو يحبّ الرّفق بعباده و ما ذلك بأضرّ لك عنده و لا أسوَأ لمنزلتك لديه و لعلّ قومك بعد ما سمِعت و رأيت من كفرهم و جحودهم يؤمنون يوماً فصابرهم وتأنّاهم فقال له تنوخا ويحك يا

رُوبيل ما أشرت علىٰ يونس و أمرته و أمرته بعد كفرهم باللّه و جحودهم لنبيّه و تكذيبهم أيّاه و إخراجهم أيّاه من مساكنه و ما همّوا به من رجمه فقال روبيل لتنوخا أسكت فأنّك رجلٌ عابد لا علم لك ثمّ أقبل على يُونس فقال أرأيت يا يوُنس إذا أنزل اللّه العذاب علىٰ قومك أنزله فيهلكهم جميعاً أو يهلك بعضاً و يبقى بعضٍ فقال له يُونس بل يهلكهم جميعاً و كذلك سألته ما دخلتني لهم رحمة تعطف فأراجع اللّه فيهم و أسأله أن يصرف عنهم فقال له رُوبيل أتدري يا يُونس لعلّ اللّه إذا أنزل عليهم العذاب فأحسُّوا به أن يتوبوا اليه و يستغفروه فيرحمهم فأنّه أرحَم الرّاحمين و يكشف عنهم العذاب من بعد ما أخبرتهم عن اللّه أنّه ينزل عليهم الهذاب يوم الأربعاء فتكون بذلك عندهم كذّاباً فقال تنوخا و يحَك يا رُوبيل لقد قلت عظيماً يُخبرك النّبي المرسل أنّ اللّه أوحى اليه أنّ العذاب ينزل عليهم فتردّ قول اللّه و تشكّ فيه و فى قول رسوله إذهب فقد حبط عملك فقال روبيل لتنوخا لقد فسد رأيك ثمّ أقبل على يونس فقال أنزل الوَحي والأمر من اللّه فيهم علىٰ ما أنزل اليك فيهم من إنزال العذاب عليهم و قوله الحّق أرأيت إذا كان ذلك فهلك قومك كلّهم و خربت قريتهم أليس اللّه يمحوا إسمك من النبوّة و تبطل رسالتك و تكون كبعض الضَّعفاء و يهلك علىٰ يديك مائة ألف من النّاس فأبىٰ يُونس أن يقبل وصّيته فأنطلق و معه تنوخا الىٰ قومه فأخبرهم أنّ اللّه أوحى اليه أنّه منزّل العذاب عليهم يوم الأربعاء في شوّال في وسط الشّهر بعد طلوع الشّمس فردّوا اليه (عليه) قوله و كذّبوه و أخرجوه من قريتهم إخراجاً عَنيفاً فخرج يُونس و معه تنوخا من القرية و تنّحيا عنهم غير بعيد و أقاما ينظران العذاب و أقام رُوبيل مع قومه في قريتهم حتّىٰ إذا دخل عليهم شوّال صرخ

رُوبيل بأعلىٰ صوته في رأس الجبل الى القوم أنا رُوبيل الشّفيق عليكم الرّحيم بكم الىٰ ربّه قد أنكرتم عذاب اللّه هذا شوّال قد دخل عليكم أخبركم يُونس نبّيكم و رسول ربّكم أنّ اللّه أوحىٰ اليه أنّ العذاب ينزل عليكم في شوّال في وسط الشّهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشّمس و لن يخلف اللّه وعده رسله فأنظروا ماذا أنتم صانعون فأفزعهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب فأجفلوا (أَسرعوا) نحو رُوبيل و قالوا له ماذا أَنت مشير به علينا يا رُوبيل فأنّك رجلٌ عالم حكيم لم نزل نعرفك بالرّقة علينا و الرّحمة لنا و قد بلغنا ما أشرت به على يُونس فمرنا بأمرك و أشرنا برأيك فقال لهم رُوبيل فأنّي أرىٰ لكم و أشر عليكم أن تنظروا و تعمدوا و إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشّهر أن تعزلوا الأطفال عن الأمّهات في أسفل الجبل في طريق الأودية و تقفوا النّساء في سفح الجبل و يكون هذا كلّه قبل طلوع الشّمس فعجّوا عجيج الكبير منكم و الصّغير بالصّراخ و البكاء و التّضرع الى اللّه و التّوبة اليه و الإستغفار له و أرفعوا رؤسكمالىٰ السّماء و قولوا ربّنا ظلمنا و كذّبنا نبّيك و تبنا اليك من ذنوبنا و أن لا تغفر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين المعذّبين فأقبل توبتنا و أرحمنا أرحم الرّاحمين ثمّ لا تملّوا من البكاء و الصّراخ و التّضرع الى اللّه و التّوبة اليه حتّىٰ توارىٰ الشّمس بالحجاب أو يكشف اللّه عنكم العذاب قبل ذلك فأجمع رأي القوم جميعاً علىٰ أن يفعلوا ما أشار به عليهم رُوبيل فلّما كان يوم الأربعاء الّذي توقّعوا العذاب تنّحىٰ رُوبيل عن القرية حيث يسمع صرخهم و يرى العذاب إذا نَزَل فلّما طلَع الفَجر يوم الأربعاء فعل قوم يُونس ما أمرهم رُوبيل فلّما بزغت الشّمس أقبلت ريح صفراء مظلمة مسرعة لها صرير و حفيف فلّما رآها و عجّوا

جميعاً بالصّراخ و البكاء و التّضرع الىٰ اللّه و تابوا اليه و أستغفروه و صرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمّهاتهم و عجّت سخال البهائم تطلب الثّدي و عجّت الأنعام تطلب الرّعا فلم يزالوا بذلك و يُونس و تنوخا يسمعان صيحتهم و صراخهم و يدعُون اللّه عليهم بتغليظ العذاب عليهم و رُوبيل في موضعه يسمع صراخهم و عجيجهم و يرىٰ ما نزل و هو يدعوا اللّه بكشف العذاب عنهم فلّما أن زالت الشّمس و فتحت أبواب السّماء و غضب الرّب تعالى رحمهم الرّحمن فأستجاب دعاءهم و قبل توبتهم و أقالهم عثرتهم و أوحى الىٰ إسرافيل أن أهبط الى قوم يُونس فأنّهم قد عجّوا إلّي بالبكاء و التَّضرع و تابوا إلّي و أستغفروني فرحمتهم و تبت عليهم و أنا التّواب الرّحيم أسرعُ الى قبول توبة عبدي التآئب من الذّنوب و قد كان عبدي يُونس و رسولي سألني نزول العذاب علىٰ قومه و قد أنزلته عليهم و أنا اللّه أحّق من و فى بعهده و قد أنزلته عليهم ولم يكن إشترط يُونس حين سئلني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلكهم فأهبط اليهم فأصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي فقال إسرافيل يا ربّ أنّ عذابك قد بلغ أكنافهم و كادوا أن يهلكهم و ما أراه إلاّ قد نزل بساحتهم فالى أين أصرفه فقال اللّه كلاّ إنّي قد أمرت ملائكتي أَن يَصرفوهيَنزلوه عليهم حتّىٰ يأتيهم أمري فيهم و عزيمتي فَأهبط يا إسرافيل عليهم و أصرفه عنهم و أصرف به الى الجبال فأذّلها به وليّنها حتّىٰ تصير ملتئمة حديداً جامداً فهبط إسرافيل فنشر أجنحته فأستاق بها ذلك العذاب حتّىٰ ضرب بها تلك الجبال الّتي أَوحىٰ اللّه اليه أَن يَصرفه اليها.

قال أبو جعفر عليه السلام و هي الجبال الّتي بناحية الموصل اليوم فصارت حديداً الىٰ يوم القيامة فلّما رآىٰ قوم يُونس أنّ العذاب قد

صرف عنهم هبطوا الى منازلهم من رؤوس الجبال و ضمّوا اليهم نساؤهم و أولادهم و أموالهم و حمدوا اللّه علىٰ ما صرف عنهم و أصبح يُونس و تنوخا يوم الخميس في موضعها الّذي كانا فيه لا يشّكان أنّ العذاب قد أنزل بهم و أهلكهم جميعاً لِما خفيت أصواتهم عنهما فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشّمس ينظران الىٰ ما صار اليه القوم فلّما دنوا من القوم و أستقبلتهم الحطّابون و الحماة والرّعاة بأعناقهم ونظروا الى أهل القرية مطّمئنين قال يُونس لتنوخا يا تنُوخا كذّبني الوحي (أي بإعتقاد القوم) وكذّبت وعدي لقومي لا و عزّة ربّي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذّبني الوحي فأنطلق يُونس هارباً على وجهه مغاضباً لرّبه ناحية بحر، أيلة، مستنكراً فراراً من أن يراه أَحد من قومه فيقول له يا كذّاب فلذلك قال اللّه: وَ ذَا اَلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ[1] و رجع تنوخا الىٰ القرية فلقى رووبيل فقال يا تنوخا أيّ الرّأيين كان أصوب و أحّق أرأييما أو رأيك فقال له تنوخا بل رأيك كان أصوب و لقد كنت أشرت برأي العلماء و الحكماء و قال تنوخا أمّا إنّي لَم أزل أرىٰ إنّي أفضل منك لزهدي و فضل عبادتي حتّى إستَبان فضلك لفضل علمك و ما أعطاك اللّه من الحكمة مع التّقوىٰ أفضل من الزُّهد و العبادة بلا علم فأصطحبا فلم يزالا مقيمين مع قومهما و مضىٰ يُونس على وجهه مغاضباً فكان من قصّته ما أخبر اللّه في كتابه الىٰ قوله: فآمنوا فمتّعناهم الىٰ حين.

قال أبو عبيدة قلت لأبي جعفر عليه السلام كم كان غاب يُونس عن قومه حتّىٰ رَجع اليهم بالنبوّة و الرّسالة فآمنوا به و صدّقوه قال عليه السلام أربعة أسابيع منها في ذهابه الىٰ البحر و سبعاً في بطن الحوت و

١- الانبياء= ٨٧

سبعاً تحت الشّجرة بالعراء و سبعاً منها في رجوعه الىٰ قومه فقلت له و ما هذه الأسابيع شهورا وأيّام أو ساعات فقال يا أبا عبيدة أنّ العذاب آتاهم يوم الأربعاء في النّصف من شوّال و صرف عنهم من يومهم ذلك فأنطلق يُونس مغاضباً فمضى يوم الخميس سبعة أيّام في مسيره الىٰ البحر و سبعة أيّام في بطم الحُوت و سبعة أيّام تحت الشّجرة بالعراء و سبعة أيّام في رجوعه الىٰ قومه فكان ذهابه و رجوعه ثمانية و عشرين يوماً ثمّ آتاهم فآمنوا به و صدّقوه و أتّبعوه فلذلك قال تعالىٰ: فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ اٰمَنَتْ فَنَفَعَهٰآ ايمانُهٰآ الىٰ آخر الآية.

و قد روى أبو بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال لما أظلّ قوم يُونس العذاب دعوا اللّه فصرفه عنهم قُلتُ كيف ذلك قال عليه السلام كان في العلم أنّه يصرفه عنهم إنتهىٰ.

و عن الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أنّ يُونس لمّا آذاه قومه دعى اللّه فأصبحوا أوّل يوم من صُفر، و أصبحوا اليوم الثّاني و وجوههم سُود الحديث.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال و قد ذكر يوم عاشوراء، و هذا اليوم الّذي تابَ اللّه منه علىٰ قوم يُونس إنتهىٰ.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ثقال عليه السلام لَبث يُونس في بطن حُوت ثلاثة أيّام و نادىٰ في الظّلمات ظلمة بطن الحوت و ظلمة اللّيل و ظلمة البحر لا إلٰه إلاّ أنت سُبْحانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِينَ[1] فأستجاب اللّه له فَأخرجه الحُوت الىٰ السّاحل ثمّ قذفه فألقاه الىٰ السّاحل و أنبت اللّه عليه شجرة من يقطين و هو القرع فكان يمصّه و يستّظل به و بورقه و كان تساقط شعره ورَّق جلده

١- الانبياء = ٨٧

**و كان يُونس يسيح و يذكر اللّه باللّيل و النّهار فلمّا أن قوى و إشتدّ بعث اللّه دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثمّ يبست فشّق ذلك على يونس فظلّ حزيناً فأوحى اللّه اليه مالك حزيناً يا يُونس قال يا ربّ هذه الشّجرة الّتي كانت تنفعني سلّطت عليها دودة فيبست قال تعالىٰ يا يونس أحزنت بشجرةٍ لم تزرعها و لم تسقها ولم تعن بها أن يبست حين إستغنيت عنها و لم تحزن لأهل نينوىٰ أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب أنّ أهل نينوىٰ آمنوا و أتّقوا فأرجع اليهم الحديث.**

**أقول** الأحاديث نقلناها عن[1] و لم نذكر جميع ما ذكروه في الباب حذراً عن الإطناب إن شئت الإطّلاع علىٰ أكثر ممّا ذكرناه فعليك بمراجعة المآخذ المذكورة و غيرها من كتب الأحاديث.

**وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِين**

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه لو شاء و أراد إيمان جميع النّاس، لآمن من في الأرض جميعاً، و ذلك لأنّه تعالى قادر على كلّ شيءٍ فهو يقدر علىٰ أن يكون الخلق على الإيمان و لكنّه لم يرد و لم يشاء ذلك قال تعالىٰ: **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**[2] ففي الآية دلالة علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ لم يشاء إيمان الجميع على سبيل القهر و أعمال القدرة لا أنّه تعالىٰ لم يرد و لم يشاء الإيمان أصلاً بل شاء الإيمان علىٰ سبيل الإختيار.

و من المعلوم أنّه لا يكون في الجميع ففي الآية إخبار عن عموم قدرته و أنّه قادر علىٰ كلّ شيءٍ و هو ممّا لا كلام فيه و في قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتّٰى**

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ و تفسير العياشي و تفسير البُرهان
٢- سورة الشّعراء آية ٤

**يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** دلالة على أنّه لا ينبغي إكراههم عليه لأنّ اللّه قادر عليه يريده لأنّه ينافي التكلّيف و فيه تسلية للنّبي ﷺ ممّا كان يلحقه من التّحسر و الحرص على إيمانهم.

قال صاحب الكشّاف (ولو شاء ربّك) مشيئّة القسر و الإلجاء **لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** على وجه الإحاطة و الشّمول مجتمعين علىٰ الأيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه ألا ترىٰ الىٰ قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ** يعني يقدر علىٰ اكراههم و إضطرّارهم الىٰ الإيمان هو لا أنت وإيلاء الإسم حرف الإستفهام للإعلام بأنّ الإكراه ممكن مقدور عليه و أنّما الشّأن في المكره من هو، و ما هو إلاّ وحده لا يشارك فيه لأنّه هو القادر علىٰ أن يفعل في قلوبهم ما يضطّرون عنده الى الإيمان و ذلك غير مستطاع للبشر انتهىٰ.

و قال الرّازي أنّ اللّه تعالىٰ في الآية بيَّن أنّ جِدّ الرّسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع و مبالغته في تقرير الدّلائل.

و الجواب عن الشّبهات لا تفيد لأنّ الإيمان لا يحصل إلاّ بتخليق اللّه تعالىٰ و مشيّئته و إرشاده و هدايته فإذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان.

و الجواب عنه أنّ الإيمان لو كان بتخليق اللّه و جدّ الرّسول لا ينفع فيه فلا نحناج الى الرّسول أصلاً إذ المفروض أنّ جدّه لا ينفع و من كان كذلك فوجوده كالعدم فعلى اللّه تخليق الإيمان في قلب من يشاء و هذا ممّا لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل و ليت شعري ماالمراد بتخليق الإيمان في العبد فأن كان المراد إلقاء الإيمان في قلب العبد فهو ممّا يمكن تحقّقه من غير رسولٍ لأنّ إلقاء الإيمان في القلب خارج عن قدرة الرّسول و أن كان المراد به إيجاد الإيمان فهو ليس من المكوّنات حتّى يتعلّق به الخلق.

ثم قال الرّازي إحتجّ أصحابنا على صحّة قولهم بأنّ جميع الكائنات بمشيّئة اللّه تعالىٰ فقالوا كلمة، لو، تفيد إنتفاء الشّئ لإنتفاء غيره فقوله: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ**

**لَآمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** يقتضي أنّه ما حصلت تلك المشيّئة و ما حصل إيمان أهل الأرض بالكلّية فدلّ هذا على أنّه تعالى ما أراد إيمان الكّل انتهىٰ.

و أجاب الجبائي عنه بأنّ المراد بالمشيّئة هو مشيّئة الإلجاء أي لو شاء اللّه أن يلجئهم الىٰ الإيمان لقدر عليه ولصّح ذلك منه و لكنّه ما فعل ذلك لأنّ الصّادر من العبد علىٰ سبيل الإلجاء لا ينفعه و لا يفيده فائدة.

ثمّ قال الجبائي و معنى إلجاء اللّه تعالى أيّاهم الىٰ ذلك أن يعرّفهم إضطراراً أنّهم لو حاولوا تركه حال اللّه بينهم و بين ذلك و عند هذا لابدّوأن يفعلوا ما ألجؤوا عليه كما أنّه من علم منّا أن حاول قتل مالك فأنّه يمنعه منه قهراً لم يكن تركه لذلك الفعل سبباً لإستحقاق المدح و الثّواب فكذا هاهنا انتهىٰ.

**أقول** هذا الجواب قد ذكره الرّازي في تفسيره بعد ذكره إحتجاج أصحابه ثمّ نَصدّىٰ للجواب عن الجبائي.

**وقال** أعلم أنّ هذا الكلام ضعيف و بيانه من وجوهٍ:

**الأوّل**: أنّ الكافران كان قادراً على الكفر فهل كان قارداً على الإيمان أو ما كان قادراً عليه فأن قدر على الكفر ولم يقدر علىٰ الإيمان فنيئذٍ يكون القُدرة علىٰ الكفر مستلزمةً للكفر فإذا كان خالق تلك القدرة هو اللّه تعالىٰ لزم أن يقال أنّه تعالى خلق فيه قدرةً مستلزمة للكفر فوجب أن يقال أنّه أراد منه الكفر إن كانت القدرة صالحة للضدّين كما هو مذهب القوم فرجحان أحد الطَّرفين علىٰ الآخر أن لم يتوقّف علىٰ المُرّجح فقد حصل الرجحّان لا لمرجّح و هذا باطل و إن توّقف علىٰ المرجّح أمّا أن يكون من العبد أو من اللّه فأن كان من العبد عاد التّقسيم فيه و لزم التّسلسل و هو محال و أن كان من اللّه فيكون مجموع تلك القدرة مع تلك الدّاعية موجباً لذلك الكفر فإذا كان خالق القدرة و الدّاعية هو اللّه تعالىٰ فحينئذٍ عاد الإلزام.

**الثّاني**: أنّ قوله: **وَ لَوْ شٰآءَ رَبُّكَ** لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء لأنّ النّبي ﷺ ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيد في الآخرة فبيّن اللّه تعالىٰ أنّه لا قدرة للرّسول علىٰ تحصيل هذا الإيمان ثمّ قال: **وَ لَوْ شٰآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النّافع حتّى يكون الكلام منتظماً فأمّا حمل اللّفظ على مشيّئة القهر و الإلجاء فأنّه لا يليق بهذا الموضع انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و نحن نقول أمّا ما ذكره أوّلاً من أنّ الكافر أن كان قادراً علىٰ الكفر فهل كان قادراً علىٰ الإيمان أو ما كان قادراً عليه نقول في جوابه أنّه قادر علىٰ الإيمان أيضاً كما أنّه قادر علىٰ الكفر قوله فرجحان أحَد الطَّرفين يحتاج الىٰ المرجّح و المُرّجح أمّا أن يكون من العبد أو من اللّه نقول أنّه من العبد قوله عاد التّقسيم فيه و لزم التسّلسل.

نقول المرّجح موجود و هو حكم العقل برجحان أحد الطَّرفين على الأخر فأين التّسلسل ثمّ أين التّرجيح بلا مرّجح و بعبارةٍ أخرىٰ التّسلسل موقوف علىٰ التَّرجيح بلا مرجّح فإذا ثبت المرجّح و هو حكم العقل بإختيار الأصلح فلا يلزم التّسلسل هذا أن قلنا بإستحالة التّرجيح بلا مرجّح و نحن نقول به بل نقول لا إشكال فيه و ذلك لأنّ نفس التّرجيح لأحد الطّرفين علىٰ الآخر بسبب العقل مرجّح و أيّ مرجّحٍ أقوى مِن إختيار العقل أحد الطّرفين و الّذي نقول بإستحالته هو التَّرجح بلاً مرجّح و أين هذا من ذاك و حيث أنّ الرّازي لم يفرق بين التّرجيح و الترجّح فقال ما قال و هذا هو الّذي صار منشأ لخطأه و إشتباهه و كم زلَّ أقدام العلم في هذا الميلان.

و أمّا ما ذكره ثانياً في جواب الجبائي من أنّ قوله و لو شاء ربّك، لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء الىٰ آخر ما قال فطريفٌ من الكلام و ذلك لأنّ مشيّئة

اللّه لا تخلو عن الإلجاء و الإختيار و بعبارةٍ أخرى قوله تعالىٰ: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** إختياراً أو إضطراراً و لا ثالث لهما فأن كان إختياراً فهو تعالىٰ شاء و أمر به و لم يحصل الإيمان مِن الكلّ و أن كان إضطراراً بأن يضطّر العبد علىٰ الإيمان فهو و أن كان قادراً عليه إلاّ أنّه لم يشاء و لم يرد الإيمان كذلك لأنّ الإيمان الأضطراري لا فائدة فيه فقوله لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء شططٌ من الكلام.

و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ شاء الإيمان من العباد إختياراً منهم لا إضطراراً و حيث أنّ النّبي كان حريصاً على إيمان الكلّ فقال تعالىٰ تسليةً له ذلك لا يكون و لا يحصل منهم بالإختيار و لو شاء ربّك لأمَن من في الأرض جميعاً علىٰ سبيل الإضطرار و الإلجاء و لكنّه لم يشاء و الدّليل علىٰ ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** فالمعنىٰ إنّا لم نكرههم عليه أفانت تكرههم عليه و لو كان الإيمان من المكره مفيداً لأكرهناهم عليه ففي الآية دلالة علىٰ عدم جواز الإكراه و الإجبار في الدّين و هذا هو الأصل في المقام:

قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ**[1].

دَلَّت الآية علىٰ عدم جواز الإكراه في الدّين والّدين هو الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **اُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ**[2].

و هو يدُّل على أنّ وظيفة النّبي مجرّد الدّعوة الى الحقّ لا الإكراه و الإجبار عليه ظاهر لا خفاء فيه **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** الإذن الأمر و كلمة، ما، نافية و المعنى ليس لنفسٍ أن تؤمن إلاّ بأمر اللّه لها بالإيمان كما قال: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ**

١- البقرة=٢٥٦ ٢- النحل = ١٢٥

**اَلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ**[1] و لا يبعد أن يكون المراد بالإذن، العلم أي لا تؤمن إلاّ بِعلم اللّه و على المعنيين فالآية لا تدّل على أنّ العبد في إيمانه لا إختيار له بل تدّل على أنّ الإيمان مأمور به فمن أطاع الخالق آمن به و من آمن به فقد أطاعه و أنّ اللّه تعالىٰ عالمٌ بمن آمن به قبل إيمانه بل قبل إيجاده و أمّا قوله: **وَ يَجْعَلُ اَلرِّجْسَ عَلَى اَلَّذِينَ لٰا يَعْقِلُونَ** أي يَجعَل العذاب علىٰ الّذين لا يعقلون أوامره و نواهيه و قيل يجعل الكفر عليهم أي يحكم عليهم بالكفر و أنّهم أهله ذمّاً لهم.

و قال إبن عبّاس الرِّجس الغضب و السّخط أي يجعل اللّه الغضب والسّخط عليهم و كيف كان فالمعنى واضح.

**قُلِ اُنْظُرُوا مٰاذٰا فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا تُغْنِي اَلْآيٰاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لٰا يُؤْمِنُونَ.**

الخطاب للّرسول و المراد جميع الأمّة بل جميع النّاس أمرهم اللّه تعالى بالنّظر الى السّمٰوات و الأرض و ما فيها مِن عجائب الخلقة من مجيئ اللّيل و النّهار و مجرى البحور و الأفلاك و الشّمس و القمر و جميع الكواكب من السّيارات و غيرها و نتاج الحيوان و خروج الزّرع و الثّمار و وقوف السّمٰوات و الأرض بغير عمادٍ و غيرها من الأيات العجيبة لأنّ كلّ ذلك تدبير يقتضي مدبّراً لا يشبه الأشياء و لا تشبهه و من المعلوم أنّ المراد بالنّظر في الآية و أشباهها ليس مجرّد الرّؤية بالعين بل المراد الفكر والإعتبار.

و قال الرّماني هو طلب الشّئ من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين و كلمة، ما، في قوله: **مٰاذٰا فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ** إستفهامية و المعنى أنظروا أيُّ شئٍ فيهما و أمّا قوله: **وَ مٰا تُغْنِي اَلْآيٰاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لٰا**

١- النّساء=١٦٩

**يُؤْمِنُونَ** فقيل، ما، للنّفي و المعنى ما يغني عنهم شيئاً يدفع الضّرر إذا لم يفكرّوا فيها و لم يعتبروا بها كقولك و ما يغني عنك المال شيئاً إذا لم تنفقه في وجوهه.

و قيل، إستفهامية و المعنى أيُّ شيءٍ يغني عنهم من إجتلاب نفعٍ أو دفع ضرر إذا لم يستدلّوا بها و النذّر جمع نُذير و هو صاحب النّذارة و هى إعلام بموضع المخافة ليقع به السّلامة و قال بعضهم النذّر جمع نذير أمّا مصدر فمعناه الأنذارات و أمّا بمعنىٰ منذر فمعناه المنذرون و الرسّل و فى الآية توبيخٌ لِحاضري رسول اللّه من المشركين و كيف كان فالمقصود من الآية هو تنبيه الغافلين و كثيراً ما ذكر اللّه تعالىٰ في كتابه الحضّ علىٰ الكفّار في مخلوقاته:

قال اللّه تعالىٰ: **فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللّٰهُ لَكُمُ ٱلْايَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنْفُسِهِمْ**[٤].

**فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ**

خاطب اللّه نبيّه بلفظ الإستفهام و المراد به النّفي لأنّ التّقدير ليس ينتظر هؤلاء الكفّار إلاّ مثل أيّام الّذين ضلّوا من قبلهم.

قال صاحب الكشّاف أي وقائع اللّه تعالى فهم كما يقال أيّام العرب لوقائعها.

---

١- آل عمران=١٣٧
٢- الحشر=٢١
٣- البقرة=٢١٩ - و ٢٦٦
٤- الرّوم=٨

قال بعض المُفسّرين أنّما قابلَ بين الأيّام المنتظرة و الأيّام الماضية في وقوع العذاب و الحسرة حين لا تنفع النّدامة، قل يا محمّد، لهؤلاء الكفّار فأنتظروا أنّي معكم من المنتظرين أي إنتظروا ما وعد اللّه به من العقاب فأنّي منتظراً لنزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد اللّه به و المقصود من الآية إنّا نعذّبهم في المستقبل كما عذّبنا من كان قبلهم في الماضي فأنّ حكم الأمثال واحد.

**ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.**

بعدم إستحقاقهم العذاب بل يستحقّون الرّحمة لإيمانهم فكما أنّه تعالىٰ أنجى الرُّسل و المؤمنين في الأمم الماضية بعد نزول العذاب فكذلك في المستقبل فأنّ الملاك و هو الإيمان موجود فيهم أنّه تعالىٰ خاطب نبّيه و قال:

**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ**

قيل أنّه خطاب لأهل مكّة و ظاهر الكلام أنّه خطاب لجميع المشركين و المعنى أنّ الرّسول يقول لهم إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبيّنه لكم إنّي لا أعبد الّذين تعبدون و أنتم مِن دون اللّه كائناً ما كان **وَ لَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفّيكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** قيل في قوله يتوفاكم دلالة على البدء و هو الخلق و على الإعادة فكأنّه أشار الىٰ أنّه يعبد اللّه الّذي خلقكم و يتوفّاكم و يعيدكم و كثيراً ما صرّح في القرآن بهذه الأطوار الثّلاثة و كان التّصريح بهذا.

الوصف لما فيه من التّذكير بالموت و إرهاب النّفوس به و صيرورتهم الى اللّه بعده فهو الجديد بأن يخاف منه و يتّقىٰ و يعبد لا الحجارة الّتي تعبدونها و أمرت أن أكُون من المؤمنين المصدّقين باللّه الموحّدين له المفرد له بالعبادة و

قيل معناه أن كنتم في شكّ من ديني و ممّا عليه، أثبت أم أتركه و أوافقكم، فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال و لا تشّكوا في أمري و أقطعوا عنّي أطماعكم و أعلموا إنّي لا أعبد الّذين تعبدون من دون اللّه و لا أختار الضّلالة على الهدىٰ كقوله: **قُلْ يٰٓأَيُّهَا ٱلْكٰفِرُونَ، لآ أَعْبُدُ مٰا تَعْبُدُونَ**[1] إنتهىٰ.

و قوله أمرت أن أكون أصله بأن أكون فحذف الجّار.

**وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لٰا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.**

هذه الآية عطف علىٰ ما قبلها والتّقدير أمرت أن أكون من المؤمنين و قيل لي **أَقِمْ وَجْهَكَ** إختلفوا في، أن، هل هي مصدريّة أو تفسيريّة فمن قال بأنّ قوله: **وَ أَنْ أَقِمْ** معمولة تقوله و، أمرت، مراعي فيها المعنى لأنّ معنى قوله أن يكون، كن، من المؤمنين، فتكون، أن مصدرّية صلتها الأمر و قد أجاز ذلك النّحويون و من قال أنّ الجملة المقدّرة فيها معنى القول فعلى قوله تكون أن تفسيريّة و المعنىٰ إستقم للدّين و لا تحدّ عنه و كنّي بذلك عن صرف العقل بالكلّية الى طلب الدّين هكذا قيل.

و قوله: **حَنِيفًا** فهو حال من الضّمير في أقم أو من المفعول و أجاز الزّمخشري أن تكون حالاً من الدّين و الحنف هو في الأصل ميلٌ عن الضّلال الى الإستقامة كما أنّ الجنف بالجيم ميلٌ عن الإستقامة الى الضّلال يقال تحّنف فلان أي تحرّىٰ طريق الإستقامة و سمّت العرب كلّ من حجّ أو إختتن حنيفاً تنبيهاً على أنّه في دين إبراهيم.

قال بعض المفسّرين معنى الكلام، أستقم بإقبالك علىٰ ما أمرت به من القيام بأعباء النبوّة و تحمّل أمر الشّريعة ودعاء الخلق الى اللّه بوجهك إذ مَن أقبل علىٰ الشّئ بوجهه يجمع همّته له فلم يضجع فيه، و قيل معناه أقم وجهك في الصّلاة بالتوجّه نحو الكعبة و الاقامة نصب الشّئ المنافي لإضجاعه.

---

١- الكافرون = ١/٢

و أمّا قوله: **وَ لٰا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** فمعناه واضح و لا يبعد أن يكون المراد من الشّرك المنّهي عنه في الآية هو الخفّي منه المعبّر عنه بالرّياء لأنّه ينافي الإخلاص فكأنّه قال أقم وجهك للدّين حنيفاً مخلصاً، و أنّما قلنا ذلك لأنّ الشّرك الجلّي كعبادة الأوثان لا يكون في النّبي قطعاً.

**وَ لٰا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَنْفَعُكَ وَ لٰا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظّٰالِمِينَ.**

قيل المعنىٰ، لا تدعه إلهاً كما يدعوا المشركون الوثن إلٰهاً، و قيل معناه لا تدعه دعاء الألهة في العبادة بدعاءه و معنى لا تدع من دون اللّه، لا تدع غير إلٰهاً وأنّما قال ما لا ينفعك و لا يضُّرك مع أنّ عبادة غيره تعالىٰ لا تحسن و لا يجوز مطلقاً لأنّ عبادة غير اللّه ممّن يضّر و ينفع قبيحة عقلاً فعبادة من لا يَضُّر و لا ينفع أقبح و أبعد من الشّبهة هكذا قيل و عندي وجه أخر.

و هو أنّ قوله: **لٰا يَنْفَعُكَ وَ لٰا يَضُرُّكَ** إشارة بل كناية عن أنّ كلّ معبودٍ غيره تعالى سواء كان من الجمادات أم من ذوي العقول لا يقدر على إيصال النّفع و الضّر الى غيره.

أمّا الجماد فمعلومٌ و أمّا ذوي العقول مثل فرعون و نمرود و أمثالهما فأنّهم تحت قدرة اللّه و إرادته واقعاً و اذا كانوا كذلك فأنّهم عاجزون في حدّ ذواتهم و أنفسهم علي شئٍ فأيّ نفعٍ في عبادتهم و أيُّ ضُّرٍ في ترك عبادتهم فصّح قوله أنّ غير اللّه كائناً ماً كان لا ينفعك و لا يضُّرك و بما حقّقناه يندفع الإشكال المشهور و هو أنّ عبادة غير اللّه تضُّر قطعاً فكيف قال و لا يضُّرك.

و حاصل الدّفع هو أنّ تركها لا يضُّرك لا أنّ فعلها لا يضُّرك و لا ينفعك كيف و يلزم علىٰ ذلك إرتفاع النّقيضين و هو محال و ذلك لأنّ الفعل لا يخلو من النّفع و الضّر قطعاً في صورة إتّحاد الجهة نعم يمكن أن يكون نافعاً من جهةٍ و ضّاراً من جهةٍ أخرى.

**فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** و ذلك لأنّ الشّرك من أعظم مصاديق الظّلم كما قال تعالىٰ:

**وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يٰا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1].

و لا شكّ أنّ من إتّخذ إلٰهاً غير اللّه فهو مشرك و كلّ مشركٍ فهو ظالم فمن فعل ذلك فهو ظالمٌ و هو المطلوب.

قال المفسّرون هذا الخطاب و أن كان متوجّهاً الى النّبي صلى الله عليه وآله إلاّ أنّ المراد به أمّته.

**أقول** ما ذكره المفسّرون في هذه الآية و نظائرها من أنّ الخطاب للنّبي و المراد أمّته لا نفهم معناه فأن أرادوا من حملهم الآية علىٰ هذا المعنى هو تعليق الشّرط علىٰ المحال لو كان المراد شخص الرّسول بمعنى أنّه يستحيل الشّرك من الرّسول فنقول في جوابهم أنّ وجود الشّرك أو إثباته له منافٍ لمقام رسالته مادام كونه رسولاً فهو صحيحٌ إلاّ أنّ الآية ساكتة عنه بل الآية تقول أن فعلت كذا كنت من الظّالمين و حيث أنّه لم يفعل فلا يكون منهم.

و أن أراد أنّ الشّرك محال منه مع قطع النّظر عن رسالته وبعبارةٍ أخرىٰ هو في نفسه محال في حقّه عقلاً فهو يحتاج الىٰ الإثبات فأنّ الشّرك من البشر من حيث هو هو ليس من المحالات العقليّة.

نعم أنّ الرّسول منزّهٌ عنه لأنّ اللّه تعالىٰ عصمه و حفظه من كلّ المعاصي مادام كونه نبيّاً و هو لا يدّل على أنّه في حدّ نفسه مع قطع النّظر عن العصمة لا يقدر عليه أو أنّه محال في حقّه فالحقّ أنّ هذه الآية و أمثالها خطاب لجميع النّاس و لا شكّ أنّ النّبي صلى الله عليه وآله منهم فحمل هذه الأيات على عمومها لا إشكال فيه.

---

١- لقمان =١٣

و محصّل الكلام هو أنّ الآية حكمت و أثبتت الظّلم للمشرك من أيّ شخصٍ كان و التّخصيص يحتاج الى الدّليل و حيث أنّ الموضوع من أهمّ المسائل الإعتقادية و به يتّضح مقام العصمة فلا بأس بالتكلّم فيه إجمالاً اذ كثير من النّاس يظنّون أنّ معنى العصمة هو عدم القدرة على العصيان و ليس كذلك فأنّ المعصوم يقدر على الذّنب كغيره من البشر إلاّ أنّ اللّه تعالى عصمه من الخطأ والزّلل.

**فنقول** لا شكّ أنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان معصوماً من أوّل عمره الى أخره كما هو المختار أو بعد البعثة كما ذهب اليه قوم.

أو في إبلاغه أحكام الدّين فقط كما إختاره شرذمة قليلة و على أيّ التّقادير فالعصمة ثابتة له و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً ثمّ أنّ العصمة في العبد معناها حفظ اللّه إيّاه عن الخطأ.

قال الرّاغب في المفردات عصمة الأنبياء حفظه إيّاهم أوّلاً بما خصَّهم من صفاء الجوهر ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة و النّفسية ثمّ بالنُّصرة و تثّبت أقدامهم ثمّ بإنزال السّكينة عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتّوفيق انتهىٰ كلامه.

و قال الأخرون العصمة في الأنبياء هو أنّ اللّه تعالى أعطاهم قوّة قدسيّة تمنعهم عن الخطأ و كيف كان ليس معنى العصمة عدم قدرتهم على المعصية و الخطأ اذ لو كان كذلك فلا فضل للمعصوم على غيره لأنّ المفروض أنّه لا يقدر على الخطأ و من كان كذلك فهو مجبول على الطّاعة و أن شئت قلت خلقه اللّه غير قادرٍ على المعصية فترك العصيان ليس بإختياره لعدم قدرته عليه كان خارجاً عن القدرة و الإختيار لا مدح فيه و لذلك نقول أنّ الأنبياء و المعصومين أفضل من الملائكة لأنّ دواعي المعصية ليست موجودة في الملائكة بخلافها في الأنبياء حيث أنّها موجودة فيهم فالملك لا يزنى مثلاً لعدم وجود الشّهوة فيه و النّبي لا يزنىٰ مع وجودها فيه بإختياره و الفرق

واضح فمن قال أنّ المعصوم لا يعصي بمقتضى طبعه البشري لم يعرف معنى العصمة قطعاً اذا علمت هذا فالمعصوم بمقتضىٰ طبعه البشرىٰ يقدر على العصيان أيّة معصيةٍ كانت كغيره من أفراد البشر إلاّ أنّه لا يعصي بإختياره و إرادته بسبب ما أودع اللّه تعالىٰ فيه من القوّة القدسّية المانعة عن الخطأ أو أنّه تعالى يحفظه بأيّ نحوٍ شاء و أراد و أمّا أنّه يكون مسلوب الإختيار فليس كذلك و هذا هو المستفاد من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ اَلنّٰاسِ**(١).

أي يحفظك اللّه عن أذاهم إيّاك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ**(٣).

دلّت الأيات على أنّ العاصم هو اللّه و لا عاصم في الحقيقة غيره كذلك و عليه فحمل الأيات على ظواهرها لا إشكال فيه و لا ينافي عصمة النّبي حتّىٰ نحتاج الىٰ التكلّف و نقول الآية خطاب للنّبي و المراد أمّته ثمّ أنّ الأيات بهذه المضامين في القرأن كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ وَ لاٰ أُشْرِكَ بِهِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **لٰكِنّٰا هُوَ اَللّٰهُ رَبِّي وَ لاٰ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّي وَ لاٰ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا**(٨).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلّٰا نَعْبُدَ إِلَّا اَللّٰهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**(٩).

---

١- المائدة =٦٧
٢- يونس =٢٧
٣- غافر =٣٣
٤- الزّمر =٦٥
٥- الرّعد =٣٦
٦- الكهف =٣٨
٧- غافر =٤٢
٨- الجنّ =٢٠
٩- أل عمران =٦٤

و أمثال هذه الأيات كثيرة و لا يمكن حمل جميعها على ما ذكروه من الخطاب للنّبي و المراد أمّته، فقوله: **أَنِّيأُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَ لاَ أُشْرِكَ بِهِ** يأبى عن ذلك الحَمل والحاصل هو أنّه تعالىٰ نهىٰ جميع الخلق عن الشّرك و الظّلم و الكذب و الخيانة و غيرها فرق في ذلك بين المعصوم و غيره و من قال أو يقول غيره فعليه بالإثبات.

**وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ.**

الخطاب للنّبي ظاهراً و لجميع النّاس واقعاً و المعنى أن أحلَّ بك الضُّر لأنّ المَّس الحقيقي لا يجوز عليه تعالىٰ لأنّ حقيقتها تكون بين الجسمين لكن لمّا أدخل الباء للتعدّية جرى مجرىٰ أن تقول يمسّك من أمَّسه و أمّا اذا لم يتعدّ فيكون كقوله: **مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ**[1] و الممّاسة و المطابقة و المجامعة نظائر و ضدّها المباينة، و الكشف رفع السّاتر المانع من الإدراك فكأنّ الضُّر هاهنا ساتر يمنع مِن إدراك الإنسان.

قال بعض المفسّرين و أتى بالضُّر بلفظ المَّس و فى الخير بلفظ الإرادة فقال و أن يردك بخيرٍ، و طابق بين الضُّر و الخير مطابقةٌ معنوّية لا لفظّية لأنّ مقابل الضُّر النَّفع و مقابل الخير الشَّر فجاءت لفظة الضّر ألطف و أخصّ من لفظة الشَّر و جاءت لفظة الخير أتمّ من لفظة النَّفع و لفظة المَّس أوجز من لفظة الإرادة و أنَّص على الإصابة و أنسب لقوله فلا كاشف له إلاّ هو و لفظ الإرادة أدَّل على الحصول في وقت الخطاب و فى غيره و أنسب للفظ الخير و أن كان المَّس و الإرادة معناهما الإصابة و جاء جواب، أنّ يمسسّك، بمفي عامّ و إيجاب و جاء جواب، إن يردك بنفي عامّ لأنّ ما أراده لا يردُّه رادّ لا هو و لا غيره لأنّ

١- الأنبياء =٨٣

إرادته قديمة لا تتغيّر فلذلك لم يجئ التّركيب فلا رادّ له إلاّ هو و المَّس من حث هو فعل يوقعه و يرفعه بخلاف الإرادة فأنّها صفة ذاتٍ.

و جاء، فلا رادّ لفضله، سمّي الخير فضلاً إشعاراً بأنّ الخيرات منه تعالىٰ صادرة على سبيل الفضل و الإحسان و التّفضل ثمّ إنّسع في الإخبار عن الفضل و الخير فقال يصيب به من يشاء من عباده ثمّ أخبر بالصّفتَن الدّالتين على عدم المؤاخذة و هما الغفور الّذي يستر و يصفح عن الذّنوب و الرّحيم الّذي رحمته سبقت غضبه انتهى.

**أقول** المَّس في الأصل يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللَّمس و كنّي به عن النّكاح تارةً فقيل مسَّها و ماسَّها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِذا نَكَحْتُمُ اَلْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**[٢].

و في قصّة مريم:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنّٰى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**[٣].

و عن الجنُون أُخرىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ اَلشَّيْطانُ مِنَ اَلْمَسِّ**[٤].

و قد يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذىً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا اَلنّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰامًا مَعْدُودَةً**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**[٦].

و الأيات كثيرة اذا عرفت معنى المَّس حقيقتاً و مجازاً فقد علمت أنّ المَّس في الآية لا يراد به معناه الحقيقي فهو كناية عن حلول الضّر و الأذىٰ.

---

١- البقرة =٢٣٧
٢- الأحزاب =٤٩
٣- أل عمران =٤٧
٤- البقرة =٢٧٥
٥- البقرة =٨٠
٦- القَمَر =٤٨

و من المعلوم أنّه لا كاشف له إلاّ هو تعالىٰ و لا يقدر على رفعه غيره كما أنّه اذا أراد إصابة الخير فلا رادّ أي لا مانع له ممّا أراد فلا يقدر أحد على منعه ففي الآية إشارة بل دلالة على أنّ الضُّر و النّفع بيده اذ لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو.

أزِمّــة الأمــور طــرّاً بـيده و الكلّ مستمدةٌ مـن مـدده

و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: **يُصِيبُ بِهِ** أي بالخير من يشاء من عباده، قالوا المراد بـالمشيّئة هاهنا المصلحة و عليه فالمعنى أنّه تعالى اذا رأى المصلحة فـي إصـابة الخـير الى عبده فلا يقدر أحد على صرفه عنه و هو أيضاً لا خـلاف فـيه لأنّ الخـالق الموجد المالك لجميع ما سواه و هو علىٰ كلّ شئٍ قـدير و هـو لا يسأل عـمّا يفعل و هم يسألون قال اللّه تعالىٰ **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[1]

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** معناه أنّه غفّار لكلّ ذنبٍ فلا ييأس من ذلك أحد في حال تكليفه و الرّحيم معناه إنعامه علىٰ جميع خلقه.

**قُلْ يٰٓأَيُّهَا ٱلنّٰاسُ قَدْ جٰآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.**

أمر اللّه نبيّه في هذه الآية أن يقول لجميع النّاس قد جاءكم الحقّ من ربّكم، و المراد به هو الّذي من عمل به من العباد نجا و ضدّه الباطل و هو الّـذي مَـن عمل به هلك فمن عمل بالحقّ كان حكيماً و من عمل بالباطل كان سفيهاً قيل المراد بالحقّ هاهنا هو ما أتىٰ به النّبي من القرأن و الشّـرائـع و الأحكـام و غـير ذلك من الأيات والدّلالات و الحقّ تارةً يقال و يراد به ما لا سبيل للبطلان اليه و تارةً يقال و يراد به الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل.

**ثالثة:** يقال و يراد به المطابق للواقع و يـقابله البـاطل و هـو الذّي لا يـطابق الواقع فقوله تعالىٰ: **قَدْ جٰآءَكُمُ ٱلْحَقُّ** يطلق على جميع هذه المـعاني لأنّ مـا

١- الأنعام =١٧

أتى به النّبي أعني به الدّين لا سبيل للبطلان اليه فأنّ حلاله حلال الىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك فالدّين هو الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل الى يوم القيامة و هو المطابق للواقع ونفس الأمر اذ لا يحتمل فيه الكذب قطعاً و لمّا كان كذلك فمن عمل به بإتيان الواجبات و تَرك المحرّمات فلا محالة يهتدي الىٰ صراط المستقيم.

و من المعلوم أنّ النّفع عائداً الىٰ العامل لأنّ الإهتداء الىٰ الكمال من أعظم المنافع و أحسن العوائد و الىٰ ذلك المعنى أشار اللّه بقوله: **فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** و الدّليل عليه هو أنّ اللّه تعالى غنّي علىٰ الإطلاق لا يحتاج الىٰ عبادة العبد اذ الإحتياج مساوقٌ للإمكان و هو تعالىٰ واجب الوجود و الرّسول أيضاً لا يحتاج الىٰ عبادة الأمّة:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٰى لِلْعٰالَمِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يٰا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلىٰ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**[٣].

و الأيات في الباب كثيرة فاذا كان نفع العمل لا يعود الىٰ اللّه و الىٰ الرّسول فلا محالة يعُود الى العامل به و هو المطلوب.

ثمّ أنّ هذا الكلام بعينه يجري فيمن لا يعمل و يعصي ربّه لأنّ اللّه تعالى لا تضُره معصية من عصاه و النّبي كذلك اذ هو المبلّغ للأحكام و الى هذا المعنى أُشير بقوله: **وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** و المقصود أنّ العاصي بعصيانه يضُر بنفسه و هو معلوم.

قال أهل السنّة أنّ الهداية و الضّلال واقعان بإرادة اللّه تعالىٰ من العبد و أنّ

١- الأنعام =٩٠ ٢- هُود =٢٩
٣- الشّعراء =١٠٩

من حكم له في الأزل بالإهتداء فيقع ذلك و أنّ من حكم له بالضّلال فكذلك و لا حيلة في ذلك.

**وأنّا أقول** قد مرّ نظير هذا الكلام منهم فيما مضى غير مرّةٍ وأجبنا عنهم بما لا مزيد عليه و العجب منهم حيث لم يتدّبروا في كلام اللّه تعالىٰ حقّ التدّبر فأنّ قوله: **فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** في الحقيقة ردٌّ علىٰ مقالتهم لأنّ التّاء في الإهتداء إمّا للطّلب و أمّا للقبول.

**فعلىٰ الأوّل**: معنى الكلام فمن يطلب الهداية و الرّشاد فأنّما طلبها لنفسه.

**علىٰ الثّانى**: فمن قبل الهداية فقد قبلها لنفسه و المشهور أنّها للطّلب و على التّقديرين لا يوافق الكلام مسلك الجبر و ذلك لأنّ من حكم له في الأزل بالإهتداء فلا معنى لقوله فمن إهتدىٰ الخ في الدّنيا و ذلك لأنّه من تحصيل الحاصل و هكذا في جانب الضّلالة و من المعلوم أنّ الإهتداء بإختيار العبد كما أنّ الضّلال بيده.

و أمّا على ما ذهبوا اليه فهما خارجان عن قدرة العبد فلا معنى لقوله في أخر الآية و ما أنا عليكم بوكيلٍ أليس معنى هذا الكلام أنّ الرّسول ليس وكيلاً عليهم ليمنعهم من إعتقاد الباطل أو يجبرهم على الحقّ بل يجب عليهم النّظر لأنفسهم فمن لا إختيار له كيف ينظر لنفسه و هذا ظاهر.

**وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ.**

أمر اللّه تعالى نبيّه بالصّبر و متابعة الوحي و لعلّ المراد بالصّبر هو الصّبر على أذى المشركين في إنكارهم دعوته و إيذاءهم للنّبي صلى الله عليه وآله باليد و اللّسان و أنّما أمره بالصّبر لأنّه مفتاح الفرج و لذلك أمر اللّه جميع أنبياءه به فأنّ إنكار المعاندين دعوة الأنبياء أو أذاهم لم يكن مختّصاً برسول اللّه بل كان بجميع الأنبياء:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مٰا كُذِّبُوا**[١].

و فى حكايةً عنهم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اِصْبِرْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ**[٣].

و الأيات كثيرة و أمّا متابعة الوحي و هو إلقاء المعنى في النّفس علىٰ وجهٍ خفّي فالمراد بها واضح لا خفاء فيه اذ في عدم متابعة الوحي يتحقّق العصيان و المخالفة و النّبي منزّهٌ عنهما:

قال اللّه تعالىٰ: **إِتَّبِعْ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا اِخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ**[٧].

و محصّل الكلام هو انّ النّبي في الأحكام تابع للوحي و قوله: **حَتّٰى يَحْكُمَ اَللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ** معناه حتّى يحكم اللّه تعالىٰ بينك و بين من خالفك و أذاك يوم القيامة فأنّه تعالى خير الحاكمين لأنّه لا يظلم أحداً يخفى عليه شيء ممّا فعلوه من الشّرك و النّفاق و العناد و إيذاء الرّسول و من أمن به هذا أخر الكلام في تفسير سورة يونس و الحمد اللّه ربّ العالمين.

* * *

١- الأنعام =٣٤
٢- إبراهيم =١٢
٣- هُود =١١٥
٤- سورة الأنعام أية ١٠٦
٥- الزّخرف =٤٣
٦- يونس =١٥
٧- طه =١٣

## سورة هود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

### ◄ اللّغة

ءَايَاتُهُ، الأيات جمع أية و هي العلامة.

فُصِّلَتْ، التّفصيل ضدّ الإجمال.

أُحْكِمَتْ، الإحكام بكسر الألف مصدر قولك، أحكَم إحكاماً و هو منع الفعل عن الفساد.

خَبِيرٍ، الخَبير العليم.

يَثْنُونَ تقول تثنّيته عن كذا أي غطّيته.

لِيَسْتَخْفُوا، الإستخفاء طلب خفاء النّفس.

يَسْتَغْشُونَ من الغّش أي يتّغطون ثيابهم و الباقي واضح لا خفاء فيه.

## ◄ الإعراب

كِتَابٌ أي هذا كتابٌ و يجوز أن يكون خبر الٓرٰ.

مِنْ لَدُنْ يجوز أن يكون صفة أي كائن من لدن، و أن يكون مفعولاً و العامل فيه فُصِّلَتْ بنيت، لدن، و إن أضيفت لأنّ علّة بناءها خروجها من نظيرها فأنّ، لدن، بمعنى عند، و لكن هي مخصوصة بملاصقة الشّئ و شدّة مقاربته و عند ليست كذلك بل هي للقريب و ما بعد عنه و بمعنى اللمك أَلَّا تَعْبُدُوٓا١ أي أن لا تعبدوا و في، أن، ثلاثة أوجه:

أحدها: هي مخفّفة من الثقيلة.

الثّانى: أنّها ناصبة للفعل و على الوجهين موضعها الرّفع تقديره، هي أن لا تعبدوا و يجوز أن يكون التّقدير بأن لا تعبدوا فيكون موضعها جرّاً أو نصباً.

الوجه الثّالث: أن تكون، أن، بمعنى، أي، فلا يكون لها موضع و الا تعبدوا نهيٌ و مِنْهُ أي من اللّه و التقدير نذير كائن منه فلمّا قدّمه صار حالاً و يجوز أن يتعلّق بنذير و يكون التّقدير إنّني لكم نذير من أجل عذابه وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا١ أن، معطوفة على، أن، الأولى و هى مثلها فيما ذكر إِنْ تَوَلَّوْا١ أي يتّولوا يَثْنُونَ الجمهور على فتح الياء و ضمّ النّون و ماضيه، ثنى، و يقرأ كذلك إلاّ أنّه بضمّ الياء و ماضيه أثنى و هو ضعيف أَلَا حِينَ العامل في الظّرف محذوف أي ألا حين يستغشون ثيابهم يستخفون و يجوز أن يكون ظرفاً ليعلم.

## ◄التّفسير

### الٓرٰ

إختلف المفسّرون في هذه الحروف التّي في أوائل السُّور و الحقّ أنّها أسماء للسُّور و قد مرّ الكلام فيها في البقرة **كِتٰبٌ أُحْكِمَتْ اٰيٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** و المعنى هذا كتابٌ أحكمت أياته ثمّ فصلّت، قيل أحكمت الأيات بالأمر و النّهي و فصلّت بالثّواب و العقاب.

و قيل أحكمت أياته من الباطل ثمّ فصلّت بالحرام و الحلال و قيل أحكمت أياته على وجه الجملة ثمّ فصلّت أي بيّنت بذكرها أية.

**أقول** الإحكام الإتّقان و منع الفعل عن الفساد و قيل الإحكام النَّظم و معنى قوله: **أُحْكِمَتْ اٰيٰتُهُ** نظمت نظماً رضيّاً لا نقص فيه و لا خلل كالبناء المحكم و هو الموّثق في التَّرصيف و على هذا فالهمزة في، أحكمت، ليست للنّقل و يجوز أن تكون للنّقل من حكم، بضمّ الكاف اذا صار حكيماً فالمعنى جعلت حكيمة كقولك تلك أيات الكتاب الحكيم على أحد التّأويلين في قوله: الكتاب الحكيم.

و قيل من أحكمت الدابة اذا منعها من الجماح بوضع الحكمة عليها و منه قول جرير:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم  أنّي أخاف عليكم أن أغضبا

و قال قتادة أي أحكمت من الباطل و عن أبي قتيبة، أحكمت أي إتقنت شبه ما يحكم من الأمور المتَّقنة الكاملة و بهذه الصّفة كان القرأن في الأوّل ثمّ فصلّ بتقطيعه و تبيينه في أحكامه و أمر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فثمّ، على بابها و هذه طريقة الإحكام و التَّفصيل اذ الإحكام صفة ذاتيّة و التّفصيل أنّما هو بحسب من يفصل له و الكتاب أجمعه محكمٌ مفصّلٌ و الإحكام الذّي هو ضدّ النّسخ و التَّفصيل الّذي هو خلاف الإجمال أنّما يقالان مع ما ذكرناه بإشتراك.

و قال صاحب الكشّاف، ثمّ فصّلت كما تفصّل القلائد بالدّلائل من دلائل التّوحيد و الأحكام و المواعظ و القصص أو جعلت فصولاً سورة سورة و أية أية و فرّقت في التّنزيل و لم تنزل جملة واحدة أو فصّل بها ما يحتاج اليه العباد أي بيّن و لخصّ و قرئ أحكمت أياته ثمّ فصّلت أي أحكمتها أنا ثمّ فصّلتها في معنى ثمّ ليس معناها التّراخي في الوقت و لكن في الحال كما تقول هي محكمه أحسن الإحكام ثمّ فضّله أحسن التّفصيل و فلان كريم الأصل ثمّ كريم الفعل انتهىٰ كلامه.

و أمّا قوله: **مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** قيل معناه من لدن حكيم عليم و لعلّ الوجه فيه هو أنّ الخبر العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر و قيل الخبرة بضمّ الخاء المعرفة ببواطن الأمر.

و قال الرّاغب في المفردات بعد ما نقلناه عنه، أي عالمٌ بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و قيل خبير بمعنىٰ مخبر انتهىٰ.

**أقول** و عليه فمعنى الكلام من لدن حكيمٍ عالم بأخبار أعملكم أو ببواطن أموركم و كيف كان فالمعنى واضح لأنّه تعالىٰ حكيمٌ خبير علىٰ جميع التّقادير.

**أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ.**

قال الزّمخشري قوله ألاّ تعبدوا، مفعول له على معنى، لئّلا تعبدوا أو تكون، أن مفسّرة لأنّ في تفصيل الأيات معنى القول كأنّه قيل، قال لا تعبدوا إلاّ اللّه أو أمركم أن لا تعبدوا إلاّ اللّه إنّني لكم منه تذيرٌ و بشيرٌ، أي انّني لكم منه أي من اللّه تعالىٰ نذيرٌ و بشيرٌ، نذيرٌ من العذاب و العقاب و بشيرٌ الى الثّواب:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ**[2].

١- المائدة =١٩ ٢- المائدة =١٩

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**(٣).

و الأيات الدّالة على أنّ الرّسول بشيرٌ و نذيرٌ كثيرة و المقصود أن تعبدوا اللّه فأنّي أبشركم بالثّواب و أن تكفروا به فأنّي أنذركم و أخوفكم من عذابه و ما على الرّسول إلاّ البلاغ.

**وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ**

**الواو** للعطف و المعنى أن لا تعبدوا و أن إستغفروا و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه أمركم أن لا تعبدوا إلاّ اللّه و أن إستغفروا ربّكم ثمّ توبوا اليه أي إرجعوا اليه فأنّ التّوبة هي الرّجوع يقال تاب عن ذنبه اذا رجع عنه فأن فعلتم ذلك، **يُمَتِّعْكُمْ مَتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** إختلفوا في متاع الحسن قيل هو الرّضا في الميسور و الصّبر على المقدور.

و قيل هو حسن العمل و قطع الأمل.

و قيل هو النّعمة الكافية مع الصحّة و العافية.

و قيل هو الجلال الّذي لا طلب فيه و لا تعب.

و قيل هو لزوم القناعة و توفيق الطّاعة و قوله: **إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** أي مدّة معيّنة الّتي لا يعلمها إلاّ هو.

و قال الزّمخشري أنّه تعالى يطوّل نفعكم في الدّنيا بمنافع حسنة مرضيّة من عيشةٍ واسعةٍ و نعمةٍ متتابعة و أنّما وصف المتاع بالحسن لطيب عيش المؤمن برجاءه في اللّه عزّ وجلّ و فى ثوابه و فرحه بالتّقرب اليه بمفروضاته و

١- الأعراف =١٨٨

٢- فاطر =٢٢/٢٣

٣- الحجّ =٤٩

السّرور بمواعيده و الكافر ليس في شيءٍ من هذا و الاجل المسمّى قيل هو أجل الموت و قيل هو يوم القيامة.

و قال الزّمخشري الىٰ أن يتوّفاكم **وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** أي إنّ اللّه تعالى يعطي في الأخرة كلّ من كان له فضل في العمل.

و الحقّ أنّه ترغيب في العمل لأنّه على مقداره يجازي صاحبه و أنّ اللّه تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

**وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** والتّقدير، وأن تتولوا، إلاّ أنّه حذف للتّضعيف و لذلك شدّده إبن كثير و قيل معناه، فقل أنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير و هو يوم القيامة وصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الأهوال و المجازات لكلّ إنسانٍ على قدر عمله.

**أقول** لا يبعد أن يكون الفعل علىٰ بابه و أن يكون المراد به الغائبين الماضين و التّقدير قيل لهم أنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ كبيرٍ.

**إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.**

المرجع المصير الى مثل الحال الأولى و قد ثبت أن كلّ شيءٍ يرجع الى أصله:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ**[٥].

---

١- البقرة =١٥٦
٢- العَلَق =٨
٣- مريم =٤٠
٤- الأنعام =٣٦
٥- هُود =١٢٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[١].

و فى هذه الآية إشارة الىٰ أمرين:

**أحدهما**: أنّ الرّجوع اليه.

**الثّانى**: أنّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شئٍ.

**أمّا الأمر الأوّل**: فهو من المسلّمات بل من البديهيات فأنّ المخلوق تحت قدرة الخالق و حيث أنّ الخالق خلق الخلق و أوجدهم فلا يمكن للخلق الفرار من حكومته.

**أمّا الأمر الثّانى**: و هو عموم قدرته فهو أيضاً ثابت عقلاً و نقلاً.

**أمّا نقلاً** فالأيات و الأخبار الواردة في الباب.

**أمّا عقلاً** فلأنّه لو لم يكن قادراً على كلّ شئٍ فلا محالة يكون قادراً علىٰ بعضٍ دون بعضٍ و معنى عدم قدرته في البعض يرجع الى ضعفه و عجزه و العجز نقصٌ و عيب فأنّ كلّ ناقصٍ فهو داخل في سلسلة الممكنات و المفروض أنّه تعالىٰ واجب الوجود فكيف يكون عاجزاً ناقصاً.

**ثانياً**: أنّه محتاج في رفع نقصه الىٰ غيره و كلّ محتاج فهو مخلوق فرضناه خالقاً فهو تعالىٰ قادر على كلّ شئٍ عالمٌ بكلّ شئٍ محيطٌ بكلّ شئ فقدرته تتعلّق بكلّ مقدور كما أنّ علمه يتعلّق بكلّ معلومٍ و هو ممّا لا كلام فيه عند المحقّقين.

## أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

أي يثنونها و يمدحونها على عداوة النّبي و قيل على الكفر و قيل أنّهم يثنون صدورهم على ما كانوا عليه من النّفاق و المأل واحد.

قيل نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول اللّه و يحلف أنّه ليحبّه و يضمر خلاف ما يظهر و قوله ليستخفوا منه، فالإستخفاء طلب خفاء

١- فُصّلت =٢١

النّفس و نظيره إستغشىٰ والهاء في منه ترجع الىٰ إسم اللّه أي ليستخفوا ما في صدورهم و ضمائرهم من اللّه.

و قيل عائدة الى الرّسول أي ليستخفوا عن الرّسول و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه خافية و الرّسول أيضاً كذلك بإذن اللّه تعالىٰ.

**أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ** معناه أنّهم كانوا يتغطّون ثيابهم ثمّ يتّفاوضون ما كانوا يدبّرونه علىٰ النّبي و على المؤمنين و يكتمونه عن النّاس فبيّن اللّه تعالى أنّهم وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاءً فوقهم علمٌ بما يسّرون و ما يعلنون أنّه عليمٌ بذات الصُّدور.

و حاصل المعنى أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ فهو عالم بسرائر المنافقين و ضمائرهم كما هو عالم بظواهرهم إلاّ أنّ المنافق لنفاقه يظنّ أنّه كما يقدر على إعمال النّفاق بالنسّبة الى أمثاله بسبب عدم وقوفهم على ضميره كذلك يقدر على الاستخفاء للّه تعالىٰ و لرسوله و ليس كذلك.

و محصّل الكلام هو أنّه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم و إعلانهم فلا وجه لتوصّلهم الىٰ ما يريدون من الإستخفاء:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ خٰائِنَةَ اَلْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي اَلصُّدُورُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **ربّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفِي وَ مٰا نُعْلِنُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ**[٤].

و غيرها من الأيات و الدّليل عليه من العقل هو أنّه تعالى لو لم يعلم شيئاً ظاهراً كان أو باطناً يلزم منه الجهل بالنسّبة الى ما لا يعلم و الجهل نقص و

١- غافر =١٩
٢- إبراهيم =٣٨
٣- الأحزاب =٥٤
٤- النّمل =٢٥

النَّقص من شئون الممكن و الواجب منزّهٌ عنه فهو تعالى عالم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها كما أنّه قادر على جميع المقدورات و هذا أصلٌ ثابت عقلاً و شرعاً هذا أخر الكلام في الجزء الحادي عشر وبه نختم الكلام في هذا الجزء و يتلوه الجزء الثّانى عشر.

■

# الفهرست


**سورة الأنفال ..... ٩**

الآيات ٤١ الى ٤٦ ..... ٩
اللّغة ..... ٩
الإعراب ..... ١٠
التّفسير ..... ١١
الآيات ٤٧ الى ٥٦ ..... ٣٤
اللّغة ..... ٣٥
الإعراب ..... ٣٥
التّفسير ..... ٣٦
الآيات ٥٧ الى ٦٥ ..... ٥٢
اللّغة ..... ٥٢
الإعراب ..... ٥٣
التّفسير ..... ٥٤
الآيات ٦٦ الى ٧٦ ..... ٦٧
اللّغة ..... ٦٨
الإعراب ..... ٦٨
التّفسير ..... ٦٩

**سُورة التّوبة ..... ٨٧**

الآيات ١ الى ٦ ..... ٨٧
اللّغة ..... ٨٨
الإعراب ..... ٨٨
التّفسير ..... ٨٩
الآيات ٧ الى ١٨ ..... ١٠٨
اللّغة ..... ١٠٩
الإعراب ..... ١٠٩
التّفسير ..... ١١٠
الآيات ١٩ الى ٢٤ ..... ١٣١
اللّغة ..... ١٣١
الإعراب ..... ١٣٢
التّفسير ..... ١٣٢
الآيات ٢٥ الى ٢٩ ..... ١٥٢
اللّغة ..... ١٥٢
الإعراب ..... ١٥٣
التّفسير ..... ١٥٣
الآيات ٣٠ الى ٣٥ ..... ١٧٦
اللّغة ..... ١٧٦
الإعراب ..... ١٧٧
التّفسير ..... ١٧٨
الآيات ٣٦ الى ٤٠ ..... ٢٠٤
اللّغة ..... ٢٠٥

الإعراب ..... ٢٠٥
التفسّير ..... ٢٠٦
الآيات ٤١ الى ٤٨ ..... ٢٤٩
اللّغة ..... ٢٥٠
الإعراب ..... ٢٥٠
التّفسير ..... ٢٥٠
الآيات ٤٩ الى ٥٦ ..... ٢٦٥
اللّغة ..... ٢٦٥
الإعراب ..... ٢٦٦
التّفسير ..... ٢٦٦
الآيات ٥٧ الى ٦٣ ..... ٢٨١
اللّغة ..... ٢٨١
الإعراب ..... ٢٨٢
التّفسير ..... ٢٨٣
الآيات ٦٤ الى ٧٠ ..... ٢٩٩
اللّغة ..... ٣٠٠
الإعراب ..... ٣٠٠
التّفسير ..... ٣٠١
الآيات ٧١ الى ٧٨ ..... ٣١٤
اللّغة ..... ٣١٥
الإعراب ..... ٣١٥
التّفسير ..... ٣١٥
الآيات ٧٩ الى ٨٥ ..... ٣٤١
اللّغة ..... ٣٤٢

الإعراب ..... ٣٤٢
التّفسير ..... ٣٤٣
الآيات ٨٦ الى ٩٣ ..... ٣٥٦
اللّغة ..... ٣٥٧
الإعراب ..... ٣٥٧
التّفسير ..... ٣٥٧
الآيات ٩٤ الى ٩٩ ..... ٣٧٣
اللّغة ..... ٣٧٤
الإعراب ..... ٣٧٤
التّفسير ..... ٣٧٤
الآيات ١٠٠ الى ١٠٦ ..... ٣٨٤
اللّغة ..... ٣٨٥
الإعراب ..... ٣٨٥
التّفسير ..... ٣٨٥
الآيات ١٠٧ الى ١١٢ ..... ٤٠٩
اللّغة ..... ٤١٠
الإعراب ..... ٤١٠
التّفسير ..... ٤١١
الآيات ١١٣ الى ١٢٠ ..... ٤٢٦
اللّغة ..... ٤٢٧
الإعراب ..... ٤٢٧
التّفسير ..... ٤٢٨
الآيات ١٢١ الى ١٢٩ ..... ٤٥٨
اللّغة ..... ٤٥٩

الإعراب ..... ٤٥٩
التّفسير ..... ٤٥٩

■

## سُورة يُونس ..... ٤٧٣

الآيات ١ الى ١٠ ..... ٤٧٣
اللّغة ..... ٤٧٤
الإعراب ..... ٤٧٤
التّفسير ..... ٤٧٥
الآيات ١١ الى ٢٠ ..... ٤٩٩
اللّغة ..... ٥٠٠
الإعراب ..... ٥٠٠
التّفسير ..... ٥٠١
الآيات ٢١ الى ٢٦ ..... ٥٢٢
اللّغة ..... ٥٢٣
الإعراب ..... ٥٢٣
التّفسير ..... ٥٢٤
الآيات ٢٧ الى ٣٦ ..... ٥٤٠
اللّغة ..... ٥٤١
الإعراب ..... ٥٤١
التّفسير ..... ٥٤٢
الآيات ٣٧ الى ٤٤ ..... ٥٧٠
اللّغة ..... ٥٧٠

الأعراب ..... ٥٧١
التّفسير ..... ٥٧١
الآية ٤٥ ..... ٥٨٩
الآيات ٤٦ الى ٥٦ ..... ٥٩٢
اللّغة ..... ٥٩٣
الإعراب ..... ٥٩٣
التّفسير ..... ٥٩٣
الآيات ٥٧ الى ٦٥ ..... ٦٠٧
اللّغة ..... ٦٠٨
الإعراب ..... ٦٠٨
التّفسير ..... ٦٠٨
الآيات ٦٦ الى ٧٣ ..... ٦٢٤
اللّغة ..... ٦٢٥
الإعراب ..... ٦٢٥
التفسير ..... ٦٢٥
الآيات ٧٤ الى ٨٣ ..... ٦٣٦
اللّغة ..... ٦٣٧
الإعراب ..... ٦٣٧
التّفسير ..... ٦٣٧
الآيات ٨٤ الى ٩٣ ..... ٦٤٦
اللّغة ..... ٦٤٧
الإعراب ..... ٦٤٧
التّفسير ..... ٦٤٨
الآيات ٩٤ الى ١٠٩ ..... ٦٦٩

اللّغة ..... ٦٧٠
الإعراب ..... ٦٧١
التّفسير ..... ٦٧١

■

**سُورة هود ..... ٧٠٧**

الآيات ١ الى ٥ ..... ٧٠٧
اللّغة ..... ٧٠٧
الإعراب ..... ٧٠٨
التّفسير ..... ٧٠٩

■